حلا المطري

كانت لك

الكتـــــاب: كانت لك

المــؤلــــف: حلا المطري

الغـــــلاف: أ/ إيمان صلاح

المراجعة اللغوية: أ/ سلام عيدة

رقــم الإيــداع:

الترقيـم الدولـي:

الإخـراج الفنــي: أ/ حسين الحماقي - ت/ 01006674335

المدير العام: عيد إبراهيم عبدالله

جميع الحقوق محفوظة

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر دون موافقة قانونية مكتوبة يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

العنوان: 6 ش التحرير، الدور 18، أمام محطة مترو البحوث، الدقي، الجيزة

هاتف: 0237621688 - موبايل: 01142050403

الموقع الإلكتروني: www.ibda3-tp.com

البريد الإلكتروني: info@ibda3-tp.com

حلا المطري

كانت لك

إبداع
Ibdaa
للنشر والتوزيع والترجمة

الإهداء..

إلى القلوب المجنونة، العابثة في الحياة عشقًا . .

وتلك التي أبت العقلانية . . ولو على سبيل التّغيير . .

إلى كل الباحثين عن السّيرياليّة وشرود الحواس، إليكم هذه الرّواية . .

إليكم قلبي وحروفي العبثيّة . . . .

وإلى جنونٍ آخر

تحيّاتي..

حلا المطري

وعلى سبيل الحب، نكتب عنه لنعيشه على الورق، إذ أنّه أماتنا على أرض الحياة، والقوت: عدّة أقلام وسماءات بيضاء في انتظارِ شرودنا الأدبي، وكم من قلمٍ مجنونٍ أحيانًا وكم من آخر شرّدنا!!! هكذا هو الجنون، الجنون بعفويتهِ الجرداء من المنطق.

يصبح الجنون أحيانًا هو العقلانِيّة بعينها، ولكن بحريةٍ أكبر وتفكيرٍ أقل.

أنا لست سوى كاتبة قد أيقنتْ حروفَ الحبِ بمفردها، لتنتهي منه كذلك بمفردها!!

وقد أيقنتُ لا محالة، أنّني بهذا أستفزُّ الأدب واللغة وجميع العاشقين، الصّابرين منهم والتائهين، وكم يشرفني هذا! إذ إنّني سأكوّن طائفة أو حزب أدبي مجنون، حزبٌ يشُنُّ حروبَه بكلِّ ما أُوتيَّ من حرف.

ثورة بدأتها أنا، لتنهوها أنتم أو تبدأوها، كلّ بمنطقهِ الخاص!!

سألني:

- لِمَ تكتبين رواية؟!

أجبتهُ:

- لكي أُحِبّكَ فيها.

توقّفتُ عن الكتابةِ لِما يقارب الثّلاث سنوات، واقتصرتْ كتاباتي على الأبحاث والفروض الخاصّة بدراستي، بيدَ أنّني في أعماقي، شعرت بأنّي سأعودُ إدماني الحبريّ إيّاه. لكنّني لم أكن لأعلم أن عودتي ستكون قهرية أكثر منها سلمية. لم أكن لأعلم أن كل حروفي وكل ما اختزنته من كلمات سيكون لك وحدك- أنتَ دون سواك- وكأنّني تعلّمتُ القراءةَ والكتابة لأسردَ ما كان بيننا لهذه السطور المنسيّة. ها أنا أعود، وحولي كل ما يلزمني لاستحضاركَ ها هنا وكأنّكَ عفريتٌ أُحبُّ استحضارهُ وأفشلُ لاحقًا في صرفه! أقبلُ هذه الورطة، كما أقبلُ أن أشقى، وما أجملَ الشقاءَ بك!

وأنا الآن مدركة كليًّا وعلى يقينٍ مطلق أن استحضاركَ هنا هو الدليلُ الأقوى على فشلي الذريع في نسيانك. لا أصدّقُ أنّني ابتعتُ كتاب أحلام مستغانمي "نسيان كوم" في محاولةٍ منّي لتنفيذ وصاياها والاتّعاظ ولو على سبيل التغيير. وجدتها تكتب في نهاية الكتاب ميثاقًا غريبًا ولكنّه أبهجني نوعًا ما بعنوان: "ميثاق شرف أنثوي" وعلى جميع من يقرأنه – إذ كان الكتاب نسائيًّا بحتًا- الالتزام كلّيًّا بعهوده الأربعة. ونصَّ الميثاق على:

. أن أدخل الحب وأنا على ثقة تامّة بأنّهُ لا وجود لحبّ أدبي.

. أن أكتسب حصانة الصّدمة، وأتوقّع كل شيء من حبيب.

. ألّا أبكي بسبب رجل، فالذي يستحق حقًّا دموعي ما كان ليرضى بأن يبكيني.

. أن أكون جاهزة للنسيان كما ينسى الرجال.
ثم طَلَبَتْ الكاتبة من كل قارئة إضافة توقيعها أسفلَ تلك الصّفحة، فما كان منّي إلّا ووقّعتُ أسفلها بكل سرور "رنا معاذ ياسين"، وكأنّه قد تمَّ تجنيدي لأصبحَ إنسانة تنسى كما ينسى الرجال، وما هي إلا خمس دقائق حتّى شرعتُ بالبكاء!
فرُحتُ أبحث عن الصّفحة التي تركتها الكاتبة للقارئات ليكتبنَ فيها، لأكتبَ فيها فجيعتي: "تطلبينَ منّي النسيان سيدتي والذّاكرة تأبى.
حين يغيب، يتركُ خلفه عمرًا من الصّمت، فتصبح كل الموجودات ذكرى عقيمة لما كان بيننا، ويمسي النّسيان حلّاً مستحيلاً أكثرَ منهُ قهريًا، ويبقى السؤالُ معلّقًا.
"كيفَ لي أن أنسى؟؟ " كيفَ لي أن أنسى وفي انعكاسي ملامحه الغائبة؟ وفي شراييني رائحته المسافرة؟ وفي دفاتري شيءٌ من عبقِ حروفهِ وجنونهِ الذي لا يُنسى؟؟
ما هذا النّسيانُ المستحيل، عزيزتي؟.... لن أنسى، ولو أُصِبتُ بضربةٍ قويةٍ على رأسي أفقدُ على أثرها كل ذاكرتي، حتمًا سيقودني شيءٌ ما إليه.. حتمًا! عطري ربّما، قلمي، ضحكتي، أو شرشف سريري؟!
فليحُلَّ عليَّ غضبكِ يا مستغانمي.
"ما استطعتُ أن أنسى!"

***

شوقي إليك، يملؤه العتاب، حقًّا لا أدري، أمِنَ الصّواب أن أشتاقك؟؟ أن أشتاق ملامحكَ المشاكسة ورائحتكَ المتمرّدة؟ أن أملأَ عمري بفراغاتك وأن تنشغل كل جوارحي بوعودكَ التي لن تكون يومًا لي؟؟ ليتني لم أعرفك!!، ولكن لن ينفع التّمني الآن؟ سأبقى تحتَ ظلّ الوقت أنتظر أن يلتئم عمري وأن يسامحني قلبي الذي تشاركنا تعذيبه وروحي التي شرّدناها سويّة.

أحقًّا هذا قد حدث؟

أحيانًا ولفرط ذهولي أسألُ نفسي: لِمَ كلّ هذا الحداد؟؟ فكلّ ما حدث بيننا هو بداية لجنونٍ ما، بداية لتمرّداتٍ عاطفية، بداية لضوضائية الحواس، بداية لإجراءاتٍ عشقية ستجمعنا. فقط بداية.. بداية لم تكن يومًا لتليقَ بالحب كما يجب. هكذا فعلتْ بي البداية، فماذا تُراها قد فعلتْ بك؟؟

أحيانًا وأنا أجوبُ شوارع القاهرة، أجدني أبحث عن نسيمك القاهريّ، أعلم أنّكَ لستَ هناك، لكن هذا شاب في طولك، وهذا له لون شعرك، وهذا له عيناك، وذاك له شفتاك، وهذا اسمه كاسمك. أتدري كم أعشق اسمك؟! كم أعشق حروفه الأربعة؟ أعشقه حتى حينما يكون اسمًا لغيرك. يقشعرُّ قلبي لدى اجتياحه مسامعي، فأشعر بها دعوة أخرى لتذكيري بك، حتى دون أن أرضى بنسيانك فعليًّا. كنت في الآونةِ الأخيرة أقرأُ مقالاً لمحرر عمود في مجلةٍ أسبوعية فقط لأنّه يحمل اسمًا كاسمك، حتى وإن كانت لديه عقدة واضحة ضد النّساء.

كتبَ في العدد الأخير:
"إن آمنت بالنّساء إيمانًا مطلقًا.. ستكفر لاحقًا بالحب!! " كم تأتي أويقات أكادُ اشعر فيها بعينيك تجتاحني، وأحيانًا أكاد أقسم بأنّي أسمعُ كلماتك تهمس لوجداني المُيتّم، أو تراهُ المُتيّم بك؟؟ لا أدري، أو تراني أدري! إلّا أنّني أحب وأكره وقعَ هذا الانهزام المدوي. إنّها اللحظة التي ينسدل فيها ستار الصّدفة، "لم أكن على وعيٍ تامٍ بما حدث، إلّا أنّني كنت على يقينٍ مطلق بأنّه حدث!! "
وجدتني أسألٍ نفسي، وللمرّة الأولى:
لِمَ هو؟ لِمَ عيناه؟ وذلك البرود فيهما والذي بدوره بثَّ الدّفءَ في مكنوناتي؟! إنّه أمرٌ يحدث معي مئات المرّات- إن لم يكن آلاف- في زمنٍ تتبجحُ فيه الأخلاق. استيقظتُ من تلك الثواني القاتلة، ونفضتُ عن جسدي صقيعَ نظراته ووجدتني أبتعد عنها وأعلن في نفسي: "لن أنهزم." وهكذا اشتعلتْ فتيلةُ البداية، أو هل أتراني أنا من أشعلها؟؟ كم من أمورٍ تظلُّ مبهمة في الحياة!! إلّا أنّنا أحيانًا نحب تركها مبهمة، رغبةً في انتظار المفاجآت، أو ربما في سفك روتينيّة الحياة.

***

"أنتِ مجنونة.. متى تعقلين؟ "

جملة سمعتها صباحَ مساء من جدّتي مديحة، اعتدتها من شفتيها الملساء، ولا أكاد أذكرُ مرّةً سمعتها منها إلّا وضحكتُ من كلّ قلبي.

إنّها جدّتي الغالية، وجدتني أكبرُ معها وفيها. ولكن لكلّ منّا وجهته الخاصّة، أنا أتّجه إلى ربيع العمر وهي بدورها تتّجه إلى ما بعد الخريف أو ذلك الفصل الخامس الذي يجمع فصولَ الحياةِ كلّها. عشتُ فيها ولم يبعثرنا يومًا فرقُ العمر بيننا. كانت على قدرٍ كبير من العلم والدّهاء والإيمان، الإيمان الذي قلّما نجده في زمننا هذا، ولا زلتُ حتى هذه اللحظة لا أدري ما الذي ورثتهُ منها، عفويتها ربّما؟ أو هدوئها الرّزين، أم أنَّ قلبي شابهَ قلبها؟ ولكن بتجاعيدٍ أقل ونضارةٍ أكثر؟؟

هي والدة أبي الذي استُشهدَ في حربٍ نفسيّةٍ لا أريدُ ذكرها الآن، وأمّي لم تقدر على أن تُنفى من الحب فراحت تبحث عن حبٍ آخر تستظلُّ بظلّه وخلعتني! وكم من مرّةٍ عَرَضتْ عليَّ أن أنتقل للعيش معها في الإسكندرية حيث تقطن هي وزوجها، وحينما أسألها عن السبب تتذرّع بحجّة الاشتياق وبأنّها تحبّني وبأنّي ابنتها الوحيدة،إلّا أنّني لم أوافقْ يومًا على مطلبها ذاك.

أذكرُ ذلك اليوم الذي أخبرتني فيه عن زواجها، حينها أقمتُ الحدادَ على ما كان بيننا وكانت هي أول من حضرَ العزاء! رضيّتْ بهذا، ورضيتُ أنا بواقع أن أعيشَ يتيمةَ الأحلام. هكذا عشتُ.. أو هكذا عاشت الحياة فيّ، طوالَ سنين عمري التي أحياها وأنا في نزالٍ قاسٍ مع الأوهام، تلك التي لونها سرابي باهت، أو ربّما فاقع! لا أدري. لم يكن صراعي مفهومًا يومًا، ظللت أبحث وأتعطّش للمزيد، عمَّ أبحث

ولِمَ أتعطّش؟ بقي هذا السؤال معلّقًا بلا إجابة.

أكرمني الله بالكثير من النّعم؛ كنت محظوظةً ماديًّا- أو هكذا يقال- لم أحسب يومًا حسابًا لما أنفقته أو سأنفقه، المال لم يشغل بالي يومًا، أبتاع ما أريدهُ وكأنّي أبتاع أحلامي المنسيّة لأُرضي طفولةً لم أنعم بها، ولكن لم تصل بي الحماقةَ يومًا أن أبتاع ما لا أحتاجه! وجود المال في حياتي هو بمثابة الذّكرى المتجدّدة التي تركها لي والدي ورحل عن هذه الدّنيا. لم أرد هذا الميراث البئيس إلّا أنّني اعتدته ومنذ نعومة أظفاري. كذلك لم يكن صراعي صراعًا روحيًّا، أحببتُ نفسي، أحببتُ جمالي وغروري العفوي ولكنّي لم أقبل يومًا اصطفاف الرّجال من حولي وهم جياع. ورثتُ من أبي مالهُ ومن أمّي جمالها التركي، أحيانًا أحبُّ وجهي لأنّهُ يشبهها وأكرههُ لأنّه لا يشبهها!

سمعتُ أحدهم يقول لصاحبهِ وأنا مارّةً بهم: "إيه ده؟ دي مملكة؟"

كم أكره من يبعثره جمال الوهلةِ الأولى، في اعتقادي هي ضربة مؤقتة على الرأس لا القلب، وكم هو سيء أن يعترض طريقي رجل "مؤقّت"! ولكن ما حدث رهيب، وبدائي جدًّا، فكيف له هو دون سواه أن يداعب فكري، أنا المصونة من الضربات العشقيّة الأولى حتى وإن كنت في يوم من الأيّام قد تمّت خطبتي لأحد الرجال، إلّا أنّني لم أفكّر بالعشق، ولكّن حدث أن عشت فترة خطوبة. أذكر تلك الأيّام جيّدًا، وهي منذ عامين، كنتُ قد بلغت التّاسعة عشرة، وكان العام الذي

أعلنتُ فيهِ تمرّدي أمام مرأى من الحياة. أذكر ذلك "النايف "ذا الوقار المُبهج المكسو بالدهاء. أذكر ملامحه المرسومة بإتقان، رائحة عودهِ الأخاذة، ذقنهُ شديدةَ الاستدارة، حاجبيه السميكين، وشعرهُ الأسود الذي تسابَقتْ إليه القليل من الشيبةِ باكرًا! عهدته ذلك الشاب الغريب الذي طلب الحبَّ معي منذ الوهلةِ الأولى، اقترب منّي يومها ودون أن أدري من هو، وقال بلهجةٍ خليجيّة ساحرة:

- "رقم الوالدة الله يسلمج."

وجدته يبحث عن بابي لكي يدخله ومعه ورود بيضاء، وأخرى حمراءُ داكنة! تفاجئتُ جدًّا لمطلبهِ ذاك إذ إنّها سابقة. سألتهُ كمن لا تعرف:

- الوالدة؟ لِمَ؟؟

فأجابني باسمًا:

- "بنتها دوّختني!!"

لم أدرِ ما الذي فعلتُهُ كي يدوخ، ابتسمتُ لهُ في حياء، ولم أنبس بكلمة، شيء ما بداخلي أحبَّ عفوية اللقاء وبراءة اللحظة، ولم أشعر بنفسي إلّا وأنا أملّيه رقم أمّي في الإسكندرية، ولا أدري لِمَ أعطيته رقمها. كان من المفترض أن أعطيهِ رقمَ جدّتي الوصيّة الأولى عليّ آنذاك، لكنَّ تمرّدي لم يسمح بذلك! أعطيتهُ رقمَ أمّي التي كانت تُحضّر لحفلِ خطبتها لأدهم سمير، أحد كبار رجال الأعمال في الإسكندرية!

***

أردتُ وبشدّة أن أرى ردَ فعلها حين يطلب أحد الرجال الزواج من ابنتها وهي غارقة في تحضيرات زواجها الخاص. كانت مسألةً تتعلّق بالأحقيّة في الزواج دون أن أرغب به فعليًا. أردتها أن تستيقظ وترعاني ولو متأخّرًا. رأيت في نايف سلاحًا أُفاجئُ به أمّي علّها تعودُ لي منفًى أستظلّ بظلّه. عدتُ حينها إلى المنزل ومعي أفكاري الجهنّميّة، سألتني جدّتي وقد وضَعتْ جهاز "الريموت كنترول "جانبًا وقد أخفَضتْ صوتهُ كلّيًّا.. قالت:

"خير يا طير؟ ما سرُّ هذه الابتسامة الجميلة يا ملاك؟ "

ملاك.. الاسم الذي أحبّتْ أن تناديني به جدّتي، أجبُتها مستاءة:

– رنا.. اسمي رنا!

فأجابتْ بنبرةٍ أعلى وكأنّها توبخني وديًّا:

– اسمُكِ رنا على الأوراق فقط، أمّا عندي، فاسمكِ ملاك شئتِ ذلك أم أبيتِ! هيّا أخبريني، ما سرُّ هذه الابتسامة ولا تتهرّبي من سؤالي!

أجبتُ بلؤم ملحوظ:

– لا، لن أُخبركِ. احزري أنتِ!!

فقالت بسرعة:

– " إيه جالك عريس؟ "

وضَحكَت الجدّة.

أجبتُ باستياء وأنا أضربُ كفًّا بكف:

- يا الله! كم أكرهُ العصفور الذي يخبركِ كلَّ شيء أوّلاً بأوّل!

ورُحتُ أُرقِصُ حاجبيّ لها قبل أن أدخلَ غرفتي، فما كان منها إلّا أن لَحِقَت بي بخُطىً متثاقلة ولكن سريعة. قالت:

- "لو طِلع ده هزار هعُقد عليكي وهفطّسك. أديني بقولك أهو!"

أجبتها ضاحكة:

- لستُ أمزح، اسمه نايف. كوتيي. وأعطيتهُ رقمَ أمّي!

وإذا بها تصيح:

- يا فرج الله! أخيرًا ستقر عيني وأرى الأبيض يغطيكِ.

صمَتتْ قليلاً قبل أن تصرخ:

- أعطيته رقمَ أمّك؟ لِمَ استعجلتِ؟ أمّك جدُّ مشغولة مع أدهم وتحضيرات الزواج!

اشتعلت غضبًا وإذا بي أقول لها:

- مشغولة؟ حين تعرف بالأمر لن تنشغل عنّي، لِمَ لا أنشغلُ أنا مع خطيبي؟ ستكون تجربة رائعة!

فنهرتني بحنان:

- "تجربة؟ ده جواز يا موكوسة."

كم أحبُّ مصطلحات جدّتي العجيبة. انفجرتُ ضاحكة وأنا أردد:

- "موكوسة؟!"

اقتربتُ منها وهمستُ لها وأنا أضمّها بقوّة:

- كم أحبّكِ!!

استيقظتُ في صباحِ اليوم التّالي على صياحها تدعوني لتناول طعامَ الإفطار معها، عهدتهِا دومًا نشيطة وكأنّها ابنةُ الثّلاثين. لم تكن تسمح بوجود خادمة في منزلنا الكبير المكوّن من خمس غرف، إلّا أنّها كانت تُكلّف زوجة حارس المبنى الذي نقطنُ فيه بغسل السجاجيد من فترةٍ لأخرى. وحين كنت أطلب منها مساعدتها، تنهرني بشدّة وتطلب منّي عدم الاستعجال على الشقاء. ولكنّي أذكرُ حين كنت في أرضي "لبنان" وقبل انتقالنا إلى القاهرة، وبوجود أمّي معنا أنّها كانت تسمح لي بمساعدتهما معًا، ولكن فورَ وصولنا إلى القاهرة وانتقال أمّي إلى مدينتها الإسكندرية، منعتني! وفي المرّة الوحيدة التي سألتها عن السبب وجدتها تبكي، فلم أعاود سؤالها مجددًا! لربّما أرادتْ جدّتي أن أشقى مع أمّي لا معها.

***

لم يكن حلمي أن ينتهي بي المطاف في القاهرة، وددتُ لو بقيت في البلد التي نسبها إليَّ والدي.. لبنان.. غاليتي، والتي عشتُ فيها مع أمّي بسلامٍ شككتُ في أمره مطوّلاً. ولكن ها أنا الآن أقضي عامي الثّالث على تراب القاهرة، وآهٍ كم أصبحتْ منّي! أحبُّ حين أتنفّسها في الصباح، وحينَ يغتالني نسيمُ الليل، وكم أعشقها في الشتاء، حين أرى عشاقها يحتلّون حديقة الأزهر وكورنيش النّيل وكورنيش المقطّم، أحبُّ أن

أراهم يسيرون في شوارعها متجاهلين بردَ الشتاء بدفءِ الهوى. لم يحدث أن زرت حديقةَ الأزهر، بعد! سأكون غريبةً عن عشقهم، سوف تستفزّهم وحدتي، وسوف تستتفزّني جميع الأيادي المتعانقة والأحلام الخضراء. لم يحدث أن شعرتُ بخُضر أحلامي مع نايف، أعلم بأنّه أحبّني حدّ الجنون، رأيتني أسكن فيه، إلَّا أنّه لم يسكن يومًا فيَّ!

اتّصلت بي أمّي في أحد الصّباحات وكانت تحادثني بنبرةٍ هادئة تكسوها الدّهشة:

- لقد حدّثني!!

أجبتها باستغرابٍ مفتعل:

- من؟؟!

- الشخص الذي أعطيته رقمي.. نايف صحيح؟

وجدتني فجأةً أتنبّهُ لفعلتي، شعرتُ بالحقيقة وبجديّة ما فعلتُ، حيّرني أمرُ الشاب الذي سأوّرّطه معي، رحتُ اسأل نفسي: "ما معنى أن أعطيه رقم أمّي؟"

ووسطَ حيرتي وجدتها تناديني:

- رنا؟ أنا أحادثك!!

- هه.. أسمعك، أسمعك.

قالت:

- الله المستعان. على العموم، أنا قادمة غدًا! سنتحدّث في الموضوع حينها.

أجبتها بثقة:

- أنا موافقة.

- موافقة؟ على ماذا تحديدًا؟

- على نواف!!

- تقصدين نايف؟؟!

أجبتها سريعًا:

- أجل، أجل. نايف

وصَمَتَ كلانا للحظات، ثمَّ قالت:

- بهذه السرعة؟ نحن لا ندري من هو، أم أنّك تريدين الزواج حقًّا؟؟ ما رأيكِ في أن نقيم حفل خطبتنا معًا؟

وتعالت ضحكاتها التي أحب.

- موافقة أيضًا!!

تنبّهتْ أمّي لنبرة صوتي الجادّة، قالت وقد تغيّر صوتها الضحوك:

- غدًا.. غدًا نتحدّث. بلّغي تحيّاتي للجدّة. سلام!

كان من شأن تلك المحادثة أن تزيد من مكر عنادي. خطرَ لي أنّه إن تمّت خطبتي معها بأنّها قد تعدلُ عن قرارها بالزواج، إذ إنّها تُلقي آذانًا للنّاس الذين سيعجبون من أمر زواجها ولديها ابنة على مشارف الزواج أيضًا. كنت أعلم أن نايف سيتورّط معي عشقيًّا! أتت بالفعل ذاكَ الصّباح محمّلةً بالهدايا كعادتها، أحببتُ رؤية الفرحة تتراقص في

عينيها وهي تُريني ما ابتاعته لي، وأحببتُ رؤية نفسي حينما أفرح معها.
أمّي تشبهني كثيرًا، حتّى في بعض التّصرّفات لدرجةٍ تجعل الكثيرين يعتقدوننا توأمًا. تزوّجَتْ أمّي في سنٍ صغيرة، وأنجبتني بعد ذلك بعام، تزوّجَتْ عن حبٍ عاصف، ذلك القاتلِ المحيي.. المدمّر.. المجنون، لكنّه انتهى وكم يذكّرني انتهائه بأحد سطور أحلام مستغانمي في رواية "فوضى الحواس":

"مأساة الحب الكبير، أنّه دائمًا يموتُ صغيرًا بسبب الأمر الذي نتوقّعه الأقل"

سألتها يومًا:

- أكان حبكما كبيرًا لهذه الدرجة؟

أجابتني باسمة:

- أكبرُ من لبنان والقاهرة معًا!!

كنتُ أبتسم لكلامها، ولا أتجرأ على الاقتراب من الوجه الأبشع لذلك الحب، كنت أكتفي بتلك الومضات الزمنية التي سجّلتها ذاكرتي، حين كانت غيرته الزّائدة عن حدّها تقتلنا معًا. إنّها أخرى لُعِنت بجمالها، جميلة لم يقبل بها الجميل من الحظ! أذكر حين كنت في الخامسة أو السادسة من عمري، حين كانت تحضنني ليلاً ودموعها تبلل عمري، حين كنت أستمع لدقات قلبها التي لا تدقُ إلّا خذلانًا وألمًا. كنتُ أسألها:

-" ماما، ليه بابا عم يضربك؟"

فكانت تجيبني دومًا:

- اسكتي! إنّه يحبّني، يحبّني!

كذبة موجعة صدّقَتها وأرادتني كذلك أن أُصدّقها، إلّا أن طفولتي آنذاك منعتني من تصديقها. أذكرُ أنّه في مرّةٍ أمسكَ بي بغضب وأخذ يحدّقُ بملامحي وكأنّه يتعرّف عليها للمرّةِ الأولى:

- "ابنةُ من أنت؟ لستِ ابنتي. إمّك السافلة من وين حبلَت فيكي؟"

كنتُ طفلةً لا تدرك معنى السفالة، أو ما هو "الحَبَل". لكن شيئًا نبّأني بظلم وبطلان اتهامه، شيئًا ما بداخلي راح ينفي اتهامه الذي لم أدرك معناه، أجبته وأنا أتوجّع من قبضة يديهِ التي أغلقها بإحكام حول ذراعيّ:

- أنا ابنتك. أمّي ليست بالسافلة!!

لم يدرِ أن لي عينيه، وغمزة خدّه اليمنى، استنكرَ ملامحي التّوّاقة لحنانه، لم يدرَ أن لي روحه ودماءه اللبنانيّة، وأنّني أنام بنفس الطريقة التي ينام بها، وأنّني أحبُّ السهر مثله، والحلوى. وأنّني- كنت- أحبّه!

لطمني بقوّةٍ على وجهي حتى سقَطتْ جثّتي على الأرض، وفي الثّانيّة نفسها هرعَ إليّ بقوّة ينتشلني ويأخذني بعنفٍ بين ذراعيه ويصيحُ باكيًا: سامحيني يارنا!! أنا مريض.. مريض.

صرختْ به جدّتي:

- حرامٌ على أبوّتك. حرامٌ على يديك!!

سمعتُ عويل أمّي من الغرفة المجاورة، لم تكن تستطيع نجدتي لكسورٍ في قدمها. قالت: هاتِها، هاتِها!

رحتُ أفكّر في كل هذا، وأمّي تُريني فستانًا أحمر ابتاعته لي، قالت:
- بِمَ تفكرين رنا؟
أجبتها وكأنّي أرجوها ألّا تسألني مجدداً:
- لا شيء. جميلٌ الفستان.
- لا، أخبريني ما الأمر؟
- معاذ!!
لفظتُها بسرعة وكأنّي أتخلّصُ من ثقلها على صدري، فتبعثرَتْ ملامحها، وراحت تلُفُّ خاتم أدهم على أصبعها وكأنّها تحاول إخفاءه عن روح أبي المشتعلة، بدت مرتبكة، ولكنّها ابتسمت، قالت:
- معاذ، فلْيسامحه الله ويرحمه!
ثمَّ وضعَتْ كف يدها اليسرى على يدها اليمنى وعادت تبتسم للحنين، قالت:
- ما الذي تذكّرته تحديدًا؟
قهرتني بسمة الحنين على شفتيها، كنتُ سأقول ما يزعجها إلّا أنّني قلت:
- تذكّرتُ حين كان يحملني على ظهره ويركضُ بي في أرجاء المنزل وأنتِ تلحقينَ خلفنا ضاحكة!!
وإذا بتلك البسمة تضيءُ وجهها القمري، قالت بشيءٍ من الأسف:
- فليغفر له الله ويدخله فسيح جناته.
دَعَتْ له بالجنّة وقد أحرقها بحبّه لأعوام!
رددتُ خلفها:

- آمين.

قاطعتنا جدّتي بأكواب الشاي وقطع "البسيسة " قائلة:

- على ماذا نويتم مع العريس؟ "عايزة تسيبيني وتتجوزي يا ملاك؟ يالهو بالي "

فرحتُ أغيظها:

- ربّما!!!

***

في قراري، أردتُ دومًا أن أتنفّس أعظم قصّة حب، ولكن لم يعنني أبدًا انتظارها. كنت دومًا على يقين أن تلك القصّة ستطرقُ قلبي وتغمرني بالجنون قائلة:

" هيّا، عيشيني أرجوك."

أذكرُ حديثَ صديقةٍ لي تحدّثتْ في حضوري عن الحب قائلة: "الحب نشتاقهُ إلى أن يأتي إلينا محمّلاً بالهدايا، حينها نأمن له فنعطيه مفاتيح كل شيء: أحلامنا، أيّامنا، وحتى مفاتيح سيّاراتنا وبيوتنا. وعلى حين سهوة، وفي اللحظة التي نتغاضى فيها عن أية توقّعاتٍ، كانت "بووم "ينتهي كل شيء وكأن الأمر لم يتعدَ نهاية فيلم أو قبلةً أخيرة." وقالت تترنّح ببيتِ شعرٍ لفاروق جويدة:

يأتي إلينا الحبُ لا ندري لماذا جاء قد يمضي ويتركنا رمادًا من حريق

فهمتُ بيت الشعر جيّدًا، ولكن للواقع وقعٌ خاص! أدركتُ أن الحب

هو حربٌ لا محالة، إمّا أن ينتصر العشاقُ فيها بعشقهم، أو أن يُهزَموا ويبقى الحصاد قلوبًا قد تعرّت من الحب. كان الحب حربي الأخيرة التي أردتُ شنّها، فكانت حروبي آنذاك لها مسميّات أخرى اكتشفتُ لاحقًا أنّها تدور أيضًا حول الحب بصورةٍ أو بأخرى: حرب والدي، وما بعد حرب والدي، افتقادي أُمّي، زواجها، ز.. و.. ا.. ج.. ي.. المرتقب، رحيلي من لبنان، حياتي في القاهرة، وعيون القاهرة! ولكن حدث أن خضت حربًا وطنيّة. لا علاقة لها ببلدي الأم، بل بالوطن الآخر الذي احتضنني وقد طُمِسَتْ بعض ملامح وطنيته.. مصر. "مصر التي في خاطري وفي دمي.. أُحبّها من كل روحي ودمي.. "

لم يحدث أن رأيتُ ثوّارًا أحرارًا من قبل، ربّما سمعتُ عنهم في كتب التّاريخ، أو شاهدتهم خلف الشاشات، ولكن شاءت الأقدار أن أشهدَ أعظم ثورة وطنيّة، فتصبح تلك القضيّة قضيّتي التي وقعتُ في غرامها فورًا! كنّا في الصباح، وكنتُ متوجّهةً إلى حيث أقطن أنا وجدّتي في الدقي وذلك قبل انتقالنا إلى القاهرة الجديدة. كانت شهوري الأولى في القاهرة، ولم أكن وقتها قد ابتعتُ سيّارةً بعد. فكنت أستقل المترو في محطّة البحوث أحيانًا كي اعتاد حشود المصريين. ولم أكن أدري أنّها اللحظة الفارقة بين عصرٍ مقموع وآخر سيشهد نور الحريّة، ونور السلام! رأيتهم يصرخون، يبكون ويهتفون بحناجر من حديد، فسَرَت في جسدي قشعريرة شعرتُ على أثرها أن الله يغيّر جلدي ودمائي،

سمعتُ شيخًا يصيح: "المصري صحي.. ليسقط الطاغية!!" وأخذَ يهرول رافعًا يده اليمنى والأخرى ساندًا بها على الجدار خشيةَ غدر جسده الواهن به.

بكيتُ، ليس خوفًا، ليس لحرقةِ الغاز المسيّل للدّموع، بل خشوعًا لذاك المجد الأعظم. ولدى سيري مضطربة ومندهشة، اقتربَ منّي شاب بملامحَ غاضبة، وأخذَ يتلفّت يمنةً ويسرة إلى أن اقتربَ منّي جدًّا، وإذا بهِ يُخرِج سلاحًا أبيض من جيبه ويشهرهُ في وجهي وقال:

"طلّعي اللي معاكي بسرعة."

أحاسيس غريبة شعرتُ بها للمرّة الأولى، كنت جد متفائلة من مشهد الأحرار، وجدتني أبتسم له، وأقول له وأنا أمدّه بحقيبتي وهاتفي المحمول:

- خُذ. ولكن عِدني يا صديقي أنّها ستكون الأخيرة، مصرر تتحرر، تحرر معها!!!

اتّسَعَتْ عيناهُ وهو يأخذ أشيائي منّي، سَرتْ بيننا لحظة صمت مريبة قبل أن ينصرف. سارَ حتى أصبحَ بيننا عدّة امتار، وإذا به يلفُّ باتّجاهي مجددًا باضطراب، وقف أمامي، وقال:

-"سامحيني بالله عليكِ."

قالها بعمرٍ من الأسف وفي عينيه دموعُ طهارة ومن ثم أمدّني بما "استعاره" منّي، وانصرف إلى أن اختفى أثره! عدت إلى المنزل بأعجوبة، خطفتني جدّتي بين ذراعيها وأخذتْ تحمد الله على رؤيتي

مجددًا، واتّصلت بي أمّي التي كانت في لبنان تلك الفترة، تنقل باقي حاجيّاتنا إلى شقّةٍ صغيرة في إحدى ضواحي بيروت.

أتى صوتها خائفًا على الهاتف:

- أنتِ بخيرٌ يا رنا؟

- الحمدلله.

بَكَت وأجهشتُ بدوري بالبكاء!!!!

***

لاحظتُ انجرافَ قلمي الآن، حتى وإن كان بطريقةٍ أو بأخرى سيقودني إليك، شيئًا بداخلي يا عزيزي، يرجوني وعلى هذه المساحات البيضاء أن أحكي لها كيف كانَ العمرُ قبلك، والقلب قبلك والقلم قبلك، حتى تشهد عليّ ذات المساحات البيضاء كيف أنّي أُصِبتُ بك على مرأى من الحب! ها أنا اعترف، وأقرّ، أنَّ للحياة لونًا بك، ولحنًا بك، لونًا ولحنًا يجعلني لا أميّز حياةً من قبلك، أو من بعدك، ولكن بين "القَبل" و "البعد"، مصائب سيدي، وأميالٌ من الحيرة، بينهما المد والجزر، بينهما الحرائق والعواصف والسّيول، بينهما النّسيم الهادئ وزهور الليلك وشجر البلوط، بينهما جسدي من قبلك، وقلبي من بعدك، وروحي العالقة بينهما!!

كان قبلك نايف، ورطتي العشقيّة المسالمة.

سألني وفي بدايتنا معًا:

- بِمَ تفكرين؟ "يا حظّه".

ابتسمتُ له نصف ابتسامة، وأجبتهُ قائلة:

- من؟

- هذا الذي تفكّرينَ به.

وراحَ يضحكُ في حياء.

أعجبتني ضحكته كثيرًا، وراحَ قلبي يغنّي:

- القلب يريد.. إسقاط الغرام.

لم أكن على ارتياحٍ تام، إذ بدا أنَّ التّوريط العشقي آتٍ لا محالة، إلّا أنّني شعرتُ بشيء منٍ الألفة والسّكينة، كنتُ أصغي بتأنٍ إلى ما يقولون، أسلوبه الرّائع وحياؤه المطلق في الحديث، انبهار أمّي به، واستجوابات جدّتي له وهي ترتدي نظّارتها دون أن تنظر حتى من خلالها، لتُهيىء له جو الاستخبارات المناسب!! كنت أجلس معهم وأشعرُ بأنّهم يتحدّثون في إجراءات خِطبة فتاة أخرى غيري، ووجدتني أسعدُ لها من كل قلبي!!

سألني باسمًا وهو يهمُّ بالرّحيل:

- أريدُ رقم هاتفكِ إذا سمحتِ.

أجبته:

- لديك رقم هاتف أمّي.

فعاد يبتسم في ارتباكٍ ملحوظ:

- أريدُ رقمكِ أنتِ.
قلت:
- سجّل.
فأخرجَ هاتفه المحمول، وأخذ يسجّل تلك الأرقام، فتعمّدتُ أن أصوّب نظري إلى تلك الشاشة، كي أرى بنفسي تحت أي اسم سجل اسمي: حبيبتي؟؟ حياتي؟؟ قدري؟؟ فكان الاسم: "الغالية".
ابتسمتُ لحنانه الأوّل، وقلتُ له بمكر: بل سجّل: "جدّة الغالية."
وإذا بأمّي وجدّتي تقهقهان عاليًا من غرفة المعيشة، سمعتُ الجدّة تقول:
- جدّة المجنونة تقصدين.
أجاب نايف وقد رفع صوته قليلاً حتى تسمع جدّتي:
- جدة الغالية، غالية!!!
احترمَ موقفي، واحترمتُ عدمَ إصراره!!
صادفتني أويقات كثيرة حلّلتُ فيها نايف هذا، وكيف غزا حياتي كحبيبي اللاموعود، أشعر بأنّي قد اقترفتُ ذنبًا لمجرّد كتابتي "حبيبي الآن". المنطقيّة، الرّزانة، السّلاسة، العقلانيّة، الرّشد جميعها مفردات ارتبطتْ ارتباطًا مطلقًا به، وجدتهُ محتضن ممتاز بمرتبة النّبل لمرّدي وجنوني، ويتعامل معي بكل حنان ورأفة وتفاهم، حتى أنّه حين اتّصل بجدّتي للمرّة الأولى طالبًا منها محادثتي، رفضتُ ذلك رفضًا مطلقًا لأنّنا لم نكن قد ارتبطنا رسميًّا بعد. رحت بأنانيّة اتّكئُ على التّقاليد،

قلتُ له إنّي لا أحب إهدارات المشاعر الصّوتية وأنّه لا بأس بالتّواصل عن طريق الرسائل النّصيّة أو الإنترنت من حينٍ لآخر، فوجدته أكثر من مرحّب لذلك!

وجدتني أحبّه احترامًا، لا أكثر ولا أقل!!!

هكذا كانت علاقتي به، رسائل خرساء من العشق، ومقابلات عندنا في المنزل لا تتجاوز غداءً أو عشاءً، نادرًا جدًّا ما خرجتُ برفقته. وجدتهُ حلمًا جميلاً، حلمًا لم أفكّر يومًا في أن أتبنّاه بين أضلعي الخالية من العشق آنذاك، لم يكن فيه عيب ملموس أو محسوس، استفزّتني مثاليته المطلقة وكيف ينصاع لجنوني دون جدلٍ أو نقاش! إنّه بمثابة "ماساج لعواطفي"، دلّلني كثيرًا، إلّا أنّي لم أتجاوب مع أساليبه يومًا.

وجدتُ ما بيننا عاديًّا، أو ربما ينقصهُ اتّقادُ العاشقين، أو تراهُ اتّقادي أنا؟ لم يقلْ لي تلك الحروف الأربعة بصوتٍ مسموع، انتظرتها منه ربّما، ولكن لم أنتظر أن تعني لي شيئًا على الإطلاق! كذلك لم يكن بارعًا في مغازلتي، بل اكتفى باختلاس النّظر كل حين وترديد "ما شاء الله" خلسةً أيضًا، لم يستغل الفرصة في كونه الأحقُّ بمغازلتي والانبهار بي.

عُجِبتُ لأمره كثيرًا، إلّا أنّها أيّام معهُ!

أيّامٌ بمجملها قد أحدثتْ في نفسي شعورا إلزاميًّا بالرّزانة، رزانة شعرتها تخُمِدُ تمرّدي المُعلَن منذُ بداية العام. وجدتني أتمهّل معه!!

***

وذات مساء.، زارتنا أمّي و" أدهمها "الذي كان لا يزال خطيبها آنذاك، أتى ليُبارك لي قُرب موعد خِطبتي أنا الأخرى، وكانت تلك المرّة الثّانيّة أو الثّالثة التي أراه فيها. بدا خمسينيّاً، أنيقاً كعادتهِ، شبّهته دومًا بحسين فهمي، ببياضه المشرَب حِمرة، وعينيه الزّجاجيّة وشعرهُ الفضيّ وحتى جسده البين بين. اعتاد حين رؤيتي، تقبيلي على خدي كما يفعل الفرنسيون، قبلتان أنيقتان على خدّيّ، كرهت ذلك كثيرًا وشعرتها إهانةً لأحلامي وبراءتي معًا!

كانت له وسامة طاغية. تلك التي تشهق لها حين رؤيتها، عجبتُ لأمر أمّي التي دومًا ما حذّرتني من الجمال حين يُرسَم بإتقان على وجوه الرجال.

أَتوا ذاك المساءُ محمّلين بالهدايا- هداياها المضرّجة بافتقادي لها، وهداياهُ السّاعية لكسبِ ودّي-وكم أحبُّ هدايا أمّي، لديها ذوق رفيع وحاسّة باريسيّة قي اقتناء الأزياء، تعلم جيّدًا ما يليق بي، تحفظ مقاساتي، وأكثر ما كنت أحبّه هو الأحذيّة ذات الكعوب العالية التي تبتاعها لي، إذ إنّها أحيانًا كانت تبتاع زوجين لكلينا ولكن بلونين مختلفين، فتقوم بإعطائي واحدة من كل زوج، ولها كذلك.

أمّا بالنسّبة لهدايا أدهم فكان أغلبها ينحصر في أحدث الأجهزة الإلكترونية، من هواتف ذكيّة إلى حواسيب محمولة. كل هداياهُ لم تعنني، كنت آخذها مجبرةً منه لإرضاء أمّي فقط.

إنّه سارق أمّي منّي. أمّي التي احتضنته مطوّلاً برحابة نسياني.

هل فعلاً أَحبّها؟ أم أحبَّ اقتنائها؟؟ كنتُ أُقهَر حينما أراهما معًا في حضرة الحب.

قال لي بصوته الفحولي: انظري ماذا ابتعتُ لكِ.

لا شكَّ في أنّني تفاجأتُ جدًّا لمطلبه، فهو لا يسأني أبدًا عن شيء كهذا، عادةً ما يضعُ هداياهُ على أي طاولة في المنزل، ولا يسألني حتى عن رأيي فيما بعد!! نهضتُ عن الكرسيّ المقابل له وأخذتُ علبةً مستطيلة لونها أزرق داكن، مرسومًا عليها زهور سوداء بارزة وعلى طرف العلبة شريط فضّي لامع. ومن ثم عدتُ إلى مقعدي المجاور لجدّتي. وإذا به ينهض من مقعده ليجلس إلى جواري. نظرتُ إلى أمّي بذهول فوجدتها تنظر إليّ بقلق خشيةَ أن تنفجر فظاظةً أكنّها له. راحت تشير لي بعينيها التي أحب، أن أفسح له مجالاً كي يجلس بارتياح. كان يراقبني بصمت، بحذر، بمكر، في حين اشتعالي! فتحتُ العلبة بعد أن فككتُ الشرائط بهدوءٍ مُفتَعل.

فستان!!!!!

وكان أجمل ما رأيت، ولكن..

فستان أبيض سكّري مطرّز بكريستالٍ يُذهِب الأبصار، قصير للغاية، ظهره نصف عار، أكمام طويلة وأناقة مفرطة لم أفهمها!!!

- "شو هيدا؟" لفظَ لساني.

بدا فستان زفاف جامح لعروسٍ جامحة.

- ستر تديه الشهر القادم.

- "ليه بقى إن شاء الله؟ "

لفظّ تمرّدي.

أذكر أنّها كانت المرّة الأولى التي أتحدّث بها باللهجة المصريّة. رحتُ أراقب وجهه وشفتيه، تفاجأ لرّدي السّاخر، وأجاب:

- زفافي أنا وناهد!!!

شعرتُ بأحلامي تشهق لقربِ فجيعتي. كان من المفترض أن تُقام حفلة خِطبة بسيطة، ومن ثمَّ يُقّام الزّفاف بعد ذلك بعام. ظلّتْ أمّي صامتةً تترقّب ردّة انكساري وجبينها يتصبّب ذنبًا!! نهضتُ وبيدي الفستان وقلت بتهكّم:

- مباركٌ يا عروس، أين سيقام الزّفاف؟

أجابني باسمًا وهو ينظر إليها:

- على متن باخرتي في الإسكندرية.

- مممممم.. جميل أيضًا. لن أرتدي الفستان!!

فأجابني وهو يشعل سيجارة:

- ستر تديه يا رنا.

- إنّه أبيض.

- إذن؟؟

أجبته كمن تدافع عن قضيّة خاسرة:

- الأبيض للعروس.

فقال مبتسمًا:

- وأنتِ أجمل عروس، سترتديه، لقد طلبتهُ خصيصًا لكِ من باريس!!
لقد طلبَ نَعشي خصيصًا من باريس. لا أكثر ولا أقل!!

***

كم يُصبحُ للسّعادةِ أثر يصعُبُ اقتفائه!! فلا يكون لنا بُدّ من أن نهيمَ على وجوهنا، وبنا عمر من الحسرة لِما تشهدهُ قلوبنا من "بين بين"، فيغدو من المستحيل أن نتواجد ولو ادعاءً في دقائق وجداننا، نصبح مُغيّبين، مُخدّرين، وكأنّنا ظلٌ لِما كان منّا وسرابٌ لِما سيكون!! أردتُها أن تسعد، ولو كذبًا على نفسها، وباركتُ لها زواجها القاتلي، وحينما أخبرتُ نايف بخبر زواجها، بدا مندهشًا لوهلة إلّا أنّه لم يُعقّب واكتفى بتمنياته لهما بالسّعادة، كذلك شعرتُ بحرجه الشّديد لطلبه إيّاي في الوقت غير المناسب. لذلك وبعد اقتراب موعد زواج أمّي، بدا من المستحيل أن أفكّر في تعجيل زواجي أنا الأخرى من نايف!

سألني:

- أهو لبناني أيضًا؟

- لا، مصري هذه المرّة!!

أجابني مستنكرًا:

- ولِمَ تقولينها هكذا؟؟ أكنتِ تفضّلينَهُ لبنانيًّا كوالدكِ يرحمه الله؟؟

والدي! وَيحَ عمري.

أجبته:

– لا.. لا، على الإطلاق.

– أتحبّين القاهرة؟

– أتعلّم حبّها.

قال ممازحًا:

– أثبتي لي هذا.

– لو لم أكن نصف مصريّة، لودّدتُ أن أكون نصف مصريّة.

ضحِكَ عاليًّا، وابتسمتُ له في خجل.

كم هو مسالم، وكم أنا مذنبة!!!

ولدى تفكيري بسؤاله ذاك الآن، أأحبُّ القاهرة؟؟

حبّها لم يكن الأصعب، شيء غريزي بداخلك يدعوكَ للوقوعِ في حبّها، أشياؤها الحميميّة التي من الاستحالةِ أن تجدها في أيِ بلدٍ عربيّ آخر. نكهة، لون، أو روح ربّما. تحب مصر بالرّغم من فوضاها العارمة، وحشودها المستحيلة، شيءٌ في شمسها، في نيلها، في شتائها! أذكر مشهدًا شاهدتهُ لأحمد حلمي في "عسل أسود" حين كان يؤدي دور المواطن المصري الأمريكي، وفي نهاية الفيلم وحين كان عائدًا إلى أمريكا بعد أن طفحَ به الكيل في القاهرة، صادفه أحد المسافرين، الذي راحَ يخبره عن حبّه لمصر وشعبها، كان المشهد مضحكًا ولكنّه

واقعي في الوقت نفسه، فلم يقل المسافر جملةً مفيدة، راحَ يبحث عن الأسباب مستخدمًا اللغة الجسديّة ولكن دون أن تلمس أحد تلك الأسباب شفهيًّا، إنّما حسّيًا! وهذا ما أشعرُ به بالتّحديد.

لمصريّتي علاقة بانبهاري بانتفاضة يناير، وهذا كبداية، ولكن.. .

أُحبّها كموطن أم، وأمقتها كبلدٍ مُحتَضِن!!

أصبحتُ أنا ومصر في قلبِ الأخرى، ولكن لا بدَّ لي من الاعتراف، هناك فئة معيّنة تحتاج إلى "فلترة" دمائها، وتغيير شرايينها بأخرى صالحة للاستهلاك، وتنقية أحبالها الصّوتيّة من بذاءة الأزمنة، فئةٌ تحتاج إلى نقلها لطوارئ مركز إعادة تأهيل حياتي وأخلاقي وعلمي، إلى غسل أدمغتها ذاتيًّا من ركام الجهل والعبثيّة!! وعلى الرّغم من كوني أقطن في أرقى مناطق القاهرة، إلّا أنّي أكرهُ واقع تلك العشوائيات المنسيّة والتي يعيشُ فيها أُناسٌ تحتَ خط القهر!!! لربّما وقعتْ انتفاضة إلّا أنّ ذيول الماضي لا تزال ومع كل أسف تلهو بالكثير من المصائر والإرادات، وكأنّها لعنة ما، أو وصمة. تحدّثني جدّتي كثيرًا عن مصر في أوجها، فأشعر بالمرارة.

وكم من مرّةٍ رأيتها تبكي قهرًا على ما آلت إليه أوضاع البلاد، تقول:

- أترين السماء ليلاً تلمعُ بنجومها؟؟ تلك مصر والنّجوم شعبها.

تنهّدت وقالت بحسرة:

- لم يكن التّعداد هائلاً إلى هذه الدّرجة، أمّا الآن فالبشر يتناسلون وكأن الإنسان كائن آخر سينقرض. حينها كان المصريون أقربُ إلى الملائكة

في تعاملاتهم وألفاظهم وحتى في مظاهرهم وإن كانوا بسطاء! ولأقول الحق، فقد أعيبُ على الزمن الجميل ضَعفَ الدّين.

أضافت باسمة:

– "بس برضو كانت ناس تعرف العيبة، فين احنا وفين النّاس دي؟ بلا نيلة."

قالت بشوق:

– أتدرين؟ سافرتُ وأمّي حين كنت في العاشرة من عمري إلى السّعودية، في عام ٥٤، وهو نفس العام الذي قام فيه الزّعيم عبدالناصر بأداء فريضة الحج.

شهقتُ قائلة:

– أرأيته؟؟

أجابت باسمة:

– بكيتُ من فرط سعادتي لرؤياه، إنّه ملاكٌ مثلكِ يا ملاك. حين رأته أمّي ركضتْ إليه وهي تجرّني معها، وقالت له بالحرف "سايق عليك النّبي مانتا ماشي من هنا ألا متديني حاجة من ريحتك!! "

سألتها بشوق:

– أأعطاها تذكارًا ما؟

– لم يكن معه آنذاك سوى منديل قماشيّ يمسحُ فيه جبينه من قطرات النّدى!! لازلتُ أحتفظُ فيه حتى يومنا هذا!!!

***

مضى الأسبوعان ما قبل زواج أمّي وكأنّهما يسابقان الزّمن لهزيمتي. رنَّ هاتفي ذاك الصّباح، كنتُ لا أزال مستلقيّةً على السرير، جثة مُغمضةَ العينين، والهاتف يدعوني أن أثور أو أبدأ الخسارة، فأدركتُ بأنّي خاسرة في كلتا الحالتين. أمسكتُ هاتفي، رُحتُ أتأمّل حروفها، أصغي بتأنٍّ موجع إلى الأغنية:

"ست الحبايب..

يا حبيبة

يا أغلى من روحي ودمّي

يا حنينة وكلّك طيبة..

يارب يخليكي يا أمّي

يا ست الحبايب

يا حبيبة "

أجبتها أخيرًا:

- ستكونين الأجمل.

انقضتْ لحظات قبل أن تجيب:

- ألا زلتِ نائمة؟؟

- لم أشأ أن أرى فستانكِ يوم ابتعتيه لأنّي أردتُ رؤيته هذا اليوم. أتدرين لماذا؟

- ستتأخرين يا رنا، أمامك طريقٌ طويلة!!

- أردتُ أن احتفظ بحق الانبهارِ بك.
- اعتقدتكِ لا تريدين الانخراط بمراسم ما قبل زواجي، ألهذا علاقة بأدهم؟؟
- كم هي الساعة الآن؟!

شعور بالفجيعة شعرتهُ يتسلل إلى أطرافي، فكم يمضي بنا الوقت، وتتساقط منّا الأقنعة وتصبحُ الفجيعةُ أمرًا عاديًّا تستقبله أفئدتنا برحابةِ قهر، لكنّي شعرتُ بفرحِ عقيم، فمن تتسنّى لها رؤية أمّها عروس؟؟ إنّه الكوب النّصف ممتلئٍ الذّي كنتُ أنظر إليه، رضيتُ أن أنظر إلى الوضعين قهرًا، نصف الكوب الفارغ ونصف الكوب الممتلئ! أخذت حمامًا دافئًا في محاولةٍ منّي لغسل دموعي لا أكثر، وبعدها وجدتُ رسالةً منها تذكّرني فيها بارتداء الفستان القاتل إيّاه. فتحتُ خزانتي وأخرجتُ الفستان وألقيتهُ على طرف السرير، جلست على كرسيّ مقابل وأخذتُ أحدّق به وأنا أقرضُ إصبعي!

القماشة المطرّزة أخذتْ تُغريني بارتدائها. كان عندي الكعب المناسب للفستان، والأكسسوارات التي ستزيده حلاوة وأناقة! كل الأشياء من حولي كانت تدعوني لارتدائه، إلّا أنا! دخلتْ جدّتي الغرفة، بدت جميلة جدًّا بالدّرع السّوري الأخضر، نظرَتْ إليّ، ثمَ ألقتْ نظرةً سريعة على الفستان. قالت:

- إنّه مناسب جدًّا لليلة الدّخلة، أو لفتاةِ قد باعتْ القضيّة.

فقلتُ بتذمّرٍ مصطنع:

- لكنّه جميل!!!
ردّتْ قائلة:
- أستبيعينَ القضيّة؟؟
فأجبتها وأنا أهزُّ رأسي نفيًّا:
- ماذا لو بعتُ القضيّة؟؟
فأجابتني وهي تهمُّ بالخروج من الغرفة:
- "ساعتها بقى ذنبك على جمبك.. أديني بقولِك أهو."
كم أحبُّها، هي محفورة في الرّوح!
طَلَبتْ منّي يومها ألّا أذهب إلى صالون التّجميل لكيلا -على حدّ قولها- "تصيبني العين"، وأن أتّصل بالكوافيرة كي تجمّلني في المنزل. إلّا أنّي وبالرّغم من إصرارها المميت، رفضتُ ذلك فالله خير حافظ. وانطلقتُ بسيّارتي إلى الصّالون. وفورَ وصولي إلى هناك، وصلتني الرّسالة الأغرب من نايف:
-ارتدي عباءة إذا كنتِ سترتدينَ فستانًا، واخلعيها إن شئتِ في الحفل. هل الزّفافُ مختلط؟
أضحكتني الرّسالة جدًّا، ورحتُ أتساءل عن غيرة ما بين السّطور، ولكنّي سرعان ما تنبّهتُ لأمرٍ آخر، تمتمتُ قائلة: نايف، لا تعشقني أرجوك.
فأجبتُ برسالةٍ:
- أجل مختلط، هل تغار؟

سؤالي لم يكن بدافع الفضول، شعرتهُ سؤالاً تهكميًّا لا أكثر!!
أجاب فورًا برسالةٍ أخرى:
- قبل أن أغار عليكِ، غاري أنتِ على جسدك. أراكِ بعد ساعة.
وجدتُ نفسي أمام أوّل توبيخ عاطفي أتلقّاه منه!! فشعرتُ بإحساس غريب، إذ لم يحدث أن وجِدَ رجل في حياتي يخبرني كيف أغار على جسدي، ويأمرني بارتداء عباءة، لبرهةٍ شعرتهُ أبي الذي لم يعش طويلاً ليصبح الآمر النّاهي، وبالرّغم من تسلّط الطلب، إلّا أنّي أحببتُ الانصياعَ له.
توجّهتُ إلى مركز تجاريّ مجاور لأبحث عن عباءة، أنا التي لم أرتد عباءةً يومًا!! ركبتُ سيّارة نايف الفارهة، وجدّتي جلَستْ في المقاعد الخلفيّة، نظرَ إلي راضيًا مرضيًّا، ثم همس:
- "ما شاء الله عليج! نوّرتي."
فابتسمتُ له.
وجدّتني ذلك اليوم أُحدّق به وهو يقود السيّارة، واسأل نفسي: هل تراني سأحبّه؟؟ سأحب صوته؟ ويديه تلك على المقود؟ بدا جميلاً جدًّا تلك اللحظة وهو يرتدي جلبابهُ النّاصع البيّاض وقُطرَته مُفرطة الكوي، بدا كالأمراء والشيوخ العرب، ولم أشعر بأنّي سأكون يومًا أميرته!
أخذتُ أحدّقُ في طريق القاهرة الإسكندرية وبي حزن شديد فشِلَتْ الزّينة في إخفائه، ولدى اقتراب أجلي قالها نايف:

– وصلنا.

شعرتُ بدقاتِ قلبي ترُجُّ صدري رجًّا، وشعرتُ بتخدّرٍ فعلي في أطرافي، أضاف على روحي المزيد من التّوتر اللازم لإفساد تصنّعي الفرحة. هل قلت فرحة؟ إنّه الإعدام المبكر لأحلامي. ووسطَ اضطرابي وضياعي، وُضِعَتْ يدٌ من سلام على كتفي من الخلف، قالت الجدّة:

–" لو بتحبّيها، افرحيلها."

لو؟؟

"من فرطِ حبّي لها، سأسلّمها له اليوم. "حدّثتُ نفسي.

***

لم تكن باخرة عاديّة، بل أقرب إلى التايتنك بعظمتها وبكبريائها. وجوهٌ كثيرة تكاد تفقدُ اتّزانك لتنوّعها، رجال أعمال، سيّدات مجتمع فراء ، سجائر، غليون، قهقهات عالية وأخرى لئيمة. انسحبَ نايف من بين الحضور، شعرتُ بعدم ارتياحه من ذاك الحفل الصّاخب، واختَفَتْ جدّتي أيضًا ووجدتُها لاحقًا أمام موائد الطّعام التي ليس لها أوّل من آخر وهي تضربُ كفًّا بكف وتحادث نفسها لربّما كانت تقول:

– "إيه الأكل ده كلّه؟ موائد رحمن دي ولا إيه يا خواتي؟ "

أو ربما قالت:

–" إيه الأكل الغريب ده؟ فين المحشي والحمام والرّز باللبن؟؟ "

أخذتُ أجوبُ الباخرة التي أعجبتني جدًّا، بالرّغم من عدم استعدادي

لاستقبال ذكرياتها لاحقًا مع الأيّام.

"لا بدَّ من أنّه تكلّف تحضير كل شيء بضعة ملايين فقط. "ضحكتُ لانجراف أفكاري، لكنّني سرعان ما أصِبتُ بالاختناق فهرعتُ إلى الحمام! خلعتُ عباءتي، وإذا بأعينهنَّ تلاحق تحرّكاتي، لا عجبَ في ذلك، فلقد بدوتُ رائعة ذاك المساء.

اقترَبتْ منّي إحداهن ورفيقتها، وقد اكتظّتْ وجوههن بالمكياج حتى اضطربَ بصري، قالت إحداهنّ متفاجئة:

- ناهد؟ ماذا تفعلين هنا؟؟

فأجبتُ انعكاسهنَّ في المرآة، وقلت ضاحكة:

- لا، لستُ ناهد.

أجابت الأخرى، التي بدَت سورية:

- أختها؟؟

فهززتُ رأسي نفيًّا دون أن أجيب.

فعادت الأخرى تسأل:

- إذن من أنتِ؟؟

"أنا ابنتها المحكومة بالإعدام قهرًا ":

- أنا من الضيّوف.

أجابتْ كمنْ ملّ السؤال:

- " آه يعني مين يعني؟ "

حينها التفتُّ إليهن ثمّ قلت:

- وما الاستفادة العظمى التي ستستفدنَها إن عرفتُنَ من أنا؟؟

نظرنَ إليّ من الأسفل إلى الأعلى، وقبل أن يخرجن سمعتُ إحداهنّ تقول لأخرى:

- "شبهها الخالق الناطق، بس مش (كلاس) خالص." وقهقهنَ عاليًا.

لم يزعجني أن يكرهني النّاس، وخصوصًا من لا أحب!!

حين خرجتُ من الحمام، قمتُ بالاتّصال بأمّي، ولكنّها لم تجبني كما توقّعت. عذرتُها، فهي العروس!! وما هي إلّا دقائق حتّى أرسلَ نايف رسالةً يسألني فيها عن مكاني، فأخذتُ تلقائيًّا أبحثُ عنهُ بين الحضور وقد افتقدتُ وجوده إلى جواري، وإذا بصوتٍ من خلفي يناديني:

- رنا.

التفتُّ فكانَ أدهم. يا ويلي كم بدا ساحرًا ذاك المساء. قلت:

- أهلاً وسهلاً.

فتفحّصني وقال معاتبًا:

- لم ترتدي الفستان يا محتالة!!

ثمَّ أخذ يدي وقبّلها. أجبتهُ:

- دَع الأبيض لعروس اليوم، واللون الأبيض حلالٌ عليها اليوم وحرامٌ على نساء الحفل.

ضحكَ عاليّا ثم قال:

- نصّابة.

وأردفَ قائلاً:

- إذا كان الأبيض حلالٌ على العروس وحرامٌ على نساء الحفل، فالأسود حلالٌ لك وحرامٌ على نساء العالم أجمع!!

لوهلةٍ شعرتُ ببعثرة داخليّة، ولكنّي قلت:

- تفضّل. أتمنّى أن يُعجبك.

أجابني كطفلٍ صغير:

- لي أنا؟

أخذَ العلبة ثمَّ وضع قبلتيهِ على خدّي.

ازدادَ اضطرابي، فاصطادني، إذ قال:

- أتخجلين؟

- مِمَّ؟

- لقد وشى بكِ خدّكِ احمرارًا.

كنت على وشك أن أنفجر في وجهه لولا مقاطعة نايف لنا. تبادلا التّحية، ولاحظتُ عيني نايف تقتحمانني، وفور انسحاب أدهم، قال نايف:

- أُقسمُ بالله، إن العباءة كانت أجمل عليك. الفستان ضيّق جدًّا.

- ألم يعجبك؟

أجاب متذمّرًا:

- إنّه جميل، ولكنّه ضيّقٌ للغاية. الجميع يحدّق بكِ. أنتِ درّة!

فأجبتهُ بدلال:

- ولكنّه جميييييل!!

فابتسمَ مغلوبًا على عشقهِ ثم قال:

- ولكن من ترتديهِ أجمل ألفَ مرّة.

وابتسمَ كلانا في خجلٍ.

❊ ❊ ❊

انطفأتْ الأنوار، وعمَّ السّكون حواسي.

جلستُ ونايف في المكان المخصص لنا، عند الطاولات الأماميّة، جدّتي كانت تجلس مع أختها وابنة خالتها، في انتظار الظهورِ الأول للعروس: أمّي!!

مشهدٌ ساحر شئتُ ذلك أم أبيت؛ "العريس "يقفُ على بُعد عدّة أمتار من البوابة الخشبيّة التي ستخرج منها العروس، في تلكَ اللحظة، لم يبدُ خمسينيًّا، بدا ثلاثينيًّا، لا بل عشرينيًّا.

رُحتُ أتساءل: أتراها فرح الحب؟ أم فرحة الامتلاك؟؟

خمس دقائق مضتْ، عشر، عشرون، والعروس لم تظهر بعد. وإذا بهِ يمسك بأحد الميكروفونات ويصيح:

- على نونة الخروج فورًا! على نونة الخروج فورًا!

وإذا بالجميع من حولنا ينفجرون ضاحكين. قال نايف ضاحكًا:

-" رَيل أمّج هذا مينون."

ضحكتُ لأنّي لم أفهم شيئًا مما قال. سألته:

- تحدّث بالعربيّة إذا سمحت.

فقال:

- "جوزا لإمّك هيدا مجنون."

وتابع ممازحًا:

- "جوز مامتك ده مجنون."

لفظها صحيحة باللبنانيّة والمصريّة ولكن بنغم خليجيّ بحت، ولكن وقع الكلمة "جوزا لأمّك "جعل من أحلامي رمادًا في انتظار ريحٍ عابرة! ضحكتُ له حتى لا أشعره بالإحراج، كان يحدّقُ في عينيّ، وعلى شفتيه كلام لا يُقال!

فُتِحَ الباب الملكي.. و..

ظهرَت أمّي..

"إنَّ هذا الحُسنَ كالماء الذي فيه للأنّفس رِيٌّ وشفاء

لا تـذودي بعضنا عن وردِه دون بعضٍ واعدلي بين الظّماء

وتجـّلي واجعلي قـومَ الهوى تحت عرشِ الشمس في الحكم سواء"[1]

بدتْ وكأنّها تتزوج للمرّة الأولى، رأيتُ فرحة العذارى في عينيها، وخجل الصّبا. شعرها الليلي غطّى ظهرها العاري، بياض بشرتها الحريريّة طغى على بياض الفستان، سُحِر الجميع بجمالها وهي تعانق

(١) إسماعيل صبري

الورود التي أرسلتُها إليها. حينها نهَضتْ جدّتي وقالت من خلفي:
-" إيه اللي أمّك عاملاه فنفسها ده؟ ده إيه أصله ده؟"
وعادتْ إلى مقعدها قبل أن أجيبها. فانفجرتُ ضاحكة وسط الحضور، ونايف يحدّقُ بي تمامًا. وعدتُ أنبهر بأمّي مجددًا، نهضتُ كي أسلّم عليها وأملأني بها، ونسيتُ تمامًا أن العريس هو الأحقُّ بها تلك اللحظة. فسبقني أدهم إليها وقبّلها "جدًّا".
فسمعتُ جدّتي تهمس:
-" صحيح اللي اختشوا ماتوا."
أُضيئتْ أنوار خفيفة جدًّا، وسُلطَ ضوءٌ عليهما، وراحا يرقصان كالبجع. كان سعيدًا بها، وكانتْ فرحة!! وإذا بها تتلفّت يمنةً ويسرة، كانت تبحث عنّي وهي تحيط الحبَّ بكتفيها، فوجدتهُ يهمس شيئًا في أذنها فنظرت خلفها فورًا حيث أجلس، وابتسمتْ لي فورَ رؤيتي، وكانت أجمل ابتسامة. وإذا بدموعي تحرقني، حينها شعرتُ بأنّها ابنتي، أغلى ابنة في العالم!
وحين انتهت الرّقصة، صفّقَ الحضور لهما تصفيقًا حارًّا، ثم جلسا سويّةً في "الكوشة". نهضتُ، ولمحتني، وإذا بها تشيرُ إلى فستاني وتخبطُ على خدّها باسمة. اقتربتُ منها واقتربَ هلاكي.
وجهها من على بعدٍ، أثارَ في قلبي كل المشاعر، وددتُ الابتسام، وددتُ البكاء ومن ثمَّ الانتهاء! فتحت ذراعيها لي، قالت:

" حبيبتي."

أخذتني بينَ ذراعيها، وراحت تقبّلني بشراسة. شعرتُ حينها ببرودة الموقف، لم أحضنها جدًّا، لم أُقبّلها فعلاً. سلّمتُ لها جسدي الهالك؛

"كفّنيني يا أمّي، كفّنيني."

انضمَّ إلينا نايف يبارك لها، صافحَتهُ ثمَّ وضعَتْ قُبلتيها على خدّيه، شعرَتْ باضطرابه فقالت له:

- أنتَ كأخي الصّغير تمامًا.

ابتسم لها، ونظرَ بعيدًا. فهمستُ له ضاحكة:

"مينونة ماما مينونة."

فضحكتْ لي عيناه.

وبينما أنا وهو منسجمان في الحديث، تدخّلَ أدهم بيننا وقال موجّهًا حديثه لنايف:

- سأسرقها منك للحظاتٍ راقصة. أتسمحُ لي؟

نظرتُ فورًا إلى نايف الذي أومأَ له برأسهِ باسمًا. لم يعجبني رد الفعل، وإذا بي أقول:

- لم تمضِ عشر دقائق على رقصتك مع أمّي يا رجل!!

لم يجبني، لكنّه سحبني من ذراعي إلى حلبة الرقص، انصعتُ للأمر حتى لا أثير استياء أمّي. عادت الأنوار تنطفئ، الجميع يحدّقون بنا، ويتهامسون فيما بينهم، لا عجب في ذلك، فأغلب الحضور لم يعرفوا

بأمر الابنة التي تعيش بعيدًا.
وضعَ يدًا على خاصرتي، لم أدرِ ما أفعل، فضحكَ عاليًا وقال:
- ضعيها على كتفي. أهي رقصتك الأولى؟
أجل كانت رقصتي الأولى، رقصةُ موصومةٌ به حدّ البكاء.
- لِمَ لا تنظرين في عينيّ؟ جبانة!!
- لستُ كذلك.
تنبّهتُ لنبرتي الحادّة وأنا أخترقُ كلتا عينيه الزّرقاوين. أجاب واثقًا:
- أعلمُ هذا، فهكذا تقول عيناكِ.
أجبتهُ ساخرة:
- نصيحة، لا تؤمن بلّغة العيون. إنّها خدّاعة!!
- تحدّثينَ أستاذًا في هذه اللغة.
- قد يخطئ الأستاذ أيضًا.
- لم تكرهينني؟
- لا أكرهك، أمستمتعٌ بالحفل؟
- مستمتعٌ بوجودكِ!! أنتِ الأجمل.
كنتُ أنظر إلى أمّي كل حين، وهي تضحك، وهي تتحدّث، وهي تشرُد بعيدًا عن الدّنيا. وبالرّغم من اشتياقي لها، إلّا أنّي أبيتُ أن تتلاقى أعيننا، خشيتهما. فوجئتُ بجدّتي تخبرني لاحقًا وبالحرف الوحد:
- كانت تنظرُ إليكِ كثيرًا.

أحقًّا؟؟ ألجمالِ فستاني؟؟ أم لاحتراقِ قلبي الذي ألَمَّ بها؟

***

المساحات الشاسعة بداخلي راحت تكبر أكبر من ذي قبل، وتزداد ضيقًا بي، أكثر قهراً من ذي قبل!! تَرَكتْ خلفها عمرًا يخلو من كلينا، تركتني "لما بعدها".

كنتٌ أبكي ليلاً، على وسادةٍ تبكي لبكائي.

مرضتُ، وأصابني الوهن، على مدى ثلاثة أسابيع، وجدّتي غارقة في تعبي، ولا تدري كيفيّة التّصرف، طلَبَتْ منّي أن تتّصل بها لأجلي، فرفضتُ ذلك، إذ كانت في شهر العسل في روما. انقطعتُ عن الجامعة، بالرّغم من اقتراب موعد امتحاناتي، أقفلتُ هاتفي، وتوقّفتْ شهيتي عن الحياة. ولثلاثة أسابيع، ظللتُ سجينة الفراش والتّفكير! ربّاه كم اشتقتها!! وكم كرهتُ ما فَعَلته بي، شعرتُ بذيول الغدر تشدّني إلى قيعان الخيبة.

"غريبٌ هو الغدر..

كيفَ يجرُّ الشموخَ فينا،

نحوَ ضوضاء الانكسار"

نهضتُ يومًا عن الفراش، شعرت برغبةٍ كبيرة في الهروب من جدران الفقد البائسة، ارتديتُ ملابسي سريعًا وهممتُ بالخروج. حاولتْ الجدّة جاهدة أن تمنعني، ولدى إصراري، استسلَمتْ آسفة، وتركتني

أواجه بعثرتي! خرجتُ بلا وجهة، شعورٌ بالغضب، والألم راح ينحرُ قلبي. ركبتُ سيّارتي، وأدرتُ المقود، وانطلقتُ مسرعةً نحو اللاشيء. ضاقتْ بي شوارع القاهرة، شيءٌ في الطقس كان يدعوني للبكاء، للنّحيب. كان الطريقُ مزدحمًا أمامي كمقلتيّ المزدحمة بالدّموع. وإذا بطيف نايف يلمع في مخيّلتي الهالكة، فوجدتني لا شعوريًّا اتّصل به وللمرّة الأولى. أجابَ مذهولاً:

- ألو.. رنا؟

أجبتهُ باكيّة.:

- إنّها المرّة الأولى التي اتّصل فيها بك، وها أنا اتّصل بك باكيّة، وأكشف لك الوجه الأكثر قهراً عندي، أرجوك اسمع ولا تتحدّث.

لم ينطق بحرف، انصاعَ لي فورًا، وراحَ صمتهُ ينتظر بؤسي:

- ترَكَتني، وترَكتْ المحيطات فارغة من حبّها. بالله! أهذا هو الحب؟ أن نترك أشياءنا خلفنا؟ قل لي بربّك ماذا أفعل؟؟ وأجهشتُ بالبكاء إلى أن سقط الهاتف من يدي، وظلَّ هو على الجهةِ الأخرى من الهاتف يستمع لنواحي بصمت. وبعدَ عدّة دقائق وحين هدأتُ تمامًا أنهى المكالمة وأرسل رسالةً نصّيّة سريعة وصريحة:

- أريدُ أن أراكِ.

فأجبته في رسالةٍ أيضًا. طلبتُ فيها أن نتقابل في مركزٍ تجاريّ مجاور. كانت مقابلتنا هي الأغرب؛ لم نتحدّث، جلسنا في مكانٍ هادئ، ظننتني

سأتحدّث وأبكي بلا توقّف، ولكنّي لم أفعل. كان ينظر إلي كل حين، وأحيانًا يُخرج هاتفه، يكتب شيئًا سريعًا ويدخلهُ في جيبه. وبدوري كنتُ أنظر إليه بين الفينة والآخر، ويصيبني الارتباك، ثمَّ أنظرُ بعيدًا.

لم يتحدّث سوى ثلاث؛ حين ألقى التّحيّة، وحين طلبَ لي كوبًا من العصير وقطعة "التشيز كيك"، وحين أوصلني إلى سيّارتي يستودعني! وقبل أن أنطلق بسيّارتي، أمدّني بمنديلٍ مطويّ، وأومأ برأسه باسمًا وانصرف.

فتحتُ المنديل، وشعرتُ بمرارةٍ أخرى تكتسح ما تبقى من فرح:

"لا تبكي. تعلّمي الفرح، سأملأُ تلك المحيطات عشقًا "

أعدتُ طيّها بسرعة، وكأنّه ذنبٌ يتّقد بين يدي، صاحتْ جوارحي:

- أحقًّا ستملؤها؟؟

ماذا تُراني فاعلةً بك؟ وماذا تُراك لن تفعلَ بي؟؟

عدتُ إلى المنزل متأخّرًا، وجدتُ جدّتي في انتظاري بعينين دامعتين وفي يُمناها مُصحف تقرؤه. قالت تعاتبني:

- أيهونُ عليكِ اشتعالي في حضرة القلق؟

لم أُجبها، هرعتُ لأحضانها السّبعينيّة أرجوها الحب والسّماح. جلسنا سويّة، ثمَّ نمتُ على فخذها دون أن أدري. وفي مساء اليوم التّالي أيقظتني جدّتي تخبرني أن نايف يدقُّ الباب، هرعتُ إلى غرفتي، أغيّر ثياب الأمس. لم أشأ أن يراني بذاك البؤس. جزء منّي أحب وجوده في حيّاتي، والجزء الآخر كان يُثقلني بالذّنب. استقبلتهُ وأنا سعيدةٌ برؤياه،

سألني:

- كيفَ أنتِ الآن؟

- بخير.

- تبدينَ مُجهدة، انظري إلى عينيكِ كم هي متورّمة!!

فأنكرتُ فورًا قائلة:

- لا.. لا.. سهرتُ البارحة مع جدّتي.

أجابتْ جدّتي:

-" إمتى ده؟؟ "

ونظرَتْ إلي فوجَدتُني أغمزُ لها بحذر.

فقالت سريعًا:

- أجل، أجل. سهرنا طويلاً!!

جلسنا سويّة، وراحتْ جدّتي تتحدّث في مختلف المواضيع، ولا أدري ما مناسبة حديثها عن جارتنا أم نعمة. قالت:

- تخاف من الحسد وعيناها تفلقان الصّخر. أرأيتم تناقضًا كهذا؟

نايف كان أكثر من مستمع لها ولمفرداتها العجيبة التي أضحكتنا كثيرًا. كنّا ننظرُ إلى بعضنا كل حين، وشيءٌ في حميميّة اللقاء، أمدّني بالسّكينة. وفجأة دقّ الباب، وقبل أن أهم بالنّهوض لفتح الباب، أمرتني جدّتي بالجلوس مع نايف وكأنّها تنتظر هذه الفرصة لتتركنا بمفردنا للحظات، فوجدتني أمامهُ في حضرة اللحظة، والصّمتُ ثالثنا!

عادت جدّتي توّلول قائلة:

– "جبنا سيرة الغراب.. قام دق ع الباب."

ولدى قولها غراب، رحتُ أفكّر في أدهم، وأبسمُ من المسمّى؛ "غراب"

وإذا بنايف يقول لها:

– "أي غراب الله يهديج؟؟"

وراح يقهقهُ في قلق، قالت:

– إنّها أم نعمة خزاها الله، تريد أن تسأل رنا عن درسٍ في مادة اللغة الإنجليزيّة لأنّها تدرّس حفيدها الأصغر.

فنهضتُ بنيّة أن أذهب إليها، فأمسكتْ الجدّة بيدي وهمستْ قائلة:

– "خمّسي فوشّها خمس مرات."

بالرّغم من إيمان جدّتي، ظلّت بعض عادات أمّها وجدّتها تتغلل فيها، أجبتها:

–" حاضر.. هقولها خمس خمسات."

قابلتُ الجارة، وحين عدتُ إليهم وجدتُ جدّتي تقول لنايف:

– فليستر علينا الله يا ولدي.

وفور أن جلستُ، سألتني:

– ماذا قالت لكِ؟

أجبتُها وأنا ابتسم لنايف:

– لا شيء، سألتني فقط إن كان عندنا ضيوف.

فقالت فزعة:

– وبماذا أجبتها؟

– أجبتها بنعم!!

فصاحتْ بي قائلة:

– "يا سنة سوخة.. عملتي كدة ليه؟"

– "دلوقتي هتشوفوا عنيها هتعمل إيه!! "

سادتْ خمس ثوان هادئة، ثمَّ قُطِعَتْ الكهرباء!!

لربّما كانت تلك من أكثر المواقف التي أضحك فيها، حتى نايف انفجر ضاحكًا في الظلام. ولم يتوقّف الأمر عند ذلك بل إنّي حين نهوضي لأجلبَ الشموع تعثّرتُ بالطاولة، فهرعَ إليّ نايف لنجدّتي لكنّه أمسكَ بإبريق الشاي السّاخن والذي انسكبَ على يديه وأحرقها، فهرعتُ بدوري لنجدته إذا كانت جدّتي مشغولةً بترديد الأذكار!

وسط الظلام، تمكّنتُ من العثور على هاتفي وأضأتُ به العتمة.

قلتُ لنايف ونحن في طريقنا إلى المطبخ لغسل يده بالماء:

– تؤلمك؟؟

فأجاب يُطمئنني:

– لا.. لا.. بسيطة!!

توجّهنا معًا إلى صنبور المياه، فتحتُ الصّنبور، وظل هو واقفًا بلا حراك، سألته:

– ما بك؟ تعال نغسل يدك ببعض الماء كي تهدأ.

اقتربَ منّي وقد بدا خجولاً بعض الشيء، وضع يده تحت المياه بعد أن أعطيته الهاتف كي ينير لي. أمسكتُ يده ورحتُ أصبُّ الماء عليها، شعرتُ بيده تنتفض بين يدي، وبعد عدّة ثوان وجدّته يضحك في محاولةٍ منه للتّخفيف من اشتعال يده في كفّ يدي، وقال:

– جدّتي لا تزال تُحسبن على المسكينة أم نعمة حتى هذه اللحظة.

أجبته:

– مسكينة؟؟ جواب نهائي.

فأجاب ضاحكًا:

– بصراحة؟ لا، ضربتنا عين قوية!!

عدنا إلى غرفة المعيشة حيث جدّتي والتي أخذتْ تعتذر لنايف كثيرا عمّا حدث، وحين عاد تيّار الكهرباء، استأذننا بالرّحيل. وبالرّغم من محاولاتنا لإبقائه لمدّةٍ أطول، إلّا أنّه اعتذر. لربّما خشي على عمره؟! لكنّه وقبل أن يخرج طلب منّي أن أقلّه صباح اليوم التّالي من الفندق الذي يتواجد فيه وذلك لتواجد سيّارته في الصّيانة ذلك اليوم. فوافقتُ على ذلك فورًا، إذ شعرتُ حيّاله بضرورة تنفيذ بعض حاجيّاته.

❋❋❋

الأحلام لا تنتظر أحدًا، عليكَ اللحاق بها وإلّا سيفوتكَ عمركَ فتصبحُ جسدا هالكًا وسط ضجيج النّكران! وجدتهُ يتقرّب إلى حدودي في محاولةٍ لاحتوائي، وبقيّ السؤال يطرح نفسه:

"هل أنا قابلة للاحتواء؟؟ "

كيف يحتويني ولم أشعرني أسيرةً لعينيه؟ كيف يحتويني ويداهُ العربيّة لم يشغلني يومًا أن أملأهما؟ أحيانًا كنتُ أكرهه لفرط شعوري بالذّنب القاتل اتّجاهه، لكن.. أأكره نايف؟ يا لي من قاسيّة معدمة الأحاسيس!!

نهضتُ ذاك الصّباح على صوتِ الجدّة تدعوني كعادتها لارتداء ملابس عاديّة وغير ملفتة حتى لا "تضربني" العين وخصوصاً أنّه لا توجد مناسبة تستدعي قيامي بالعكس. قالت:

-"ده مشوار عادي يعني بلاش بهرجة"

ابتسمتُ لمطلبها وأنا أُدركُ أنّي لن انصاعَ له.فنهضتُ لأرتدي أجمل ما عندي.عاتبتني عيناها وأخذتْ تُتمتم بكلمات لم اسمع منها سوى "دماغ أُمّك الناشفة دي". وتناولتُ فطورًا ضاحكاً معها وتوجّهتُ إلى فندق "سيتي ستارز انتركونتننتل "بمدينة نصر.

راسلتهُ ليخبرني بمكانه، فقال بأنّه يحضر حفلة في إحدى القاعات، وأنّه يريدني هناك لمدّة خمس دقائق! تعجّبتُ لمطلبه، فتوجّهتُ إلى القاعة. أمورٌ كثيرة شغلتني، بدا الجو مريبًا بما يكفي لقهر فضولي وإشعال الرّيبة عند مدخل صبري بيدَ أنّي لم أتخلَ عن اتّزاني حتى.... دخلتُ القاعة!!!

وجدتها مليئة بالبشر، جميعهم يحدّقون بي، معظمهم غرباء عنّي.

نايف يقف قرب الباب باسمًا لي، أشار إلى أقصى اليمين فوجدتُ أمّي

و"زوجها"، أردتُ أن أركض إليها لكنّ أدهم كان يخاصرها فتجمّدتُ مكاني. اقترب نايف منّي مبتسمًا وهو يرتدي وللمرّة الأولى قميصًا كحليًا أنيقًا، وبنطال جينز لا يقلُّ أناقة. همس باسمي، ثمَّ أخرج علبةً موقوتة، قال:

- حانتْ اللحظة غاليتي.

ملامحه بدتْ أجمل تلك اللحظة، في اللحظة التي شعرتُ فيها بأنّني أهوي من على جبلٍ اسمه نايف وبأنّي أغرق في محيطاته الشامخة واختنق من هوائهِ العليل!

"لم يكن هذا اتفاقنا"

سلّمته جثّة يدي، وألبسني الألماس.

نظرتُ إليه، ثمَّ إلى أمّي، وجدّتي، ثم إليه، ثم إلى أدهم الذي كان يراقبني بصمتٍ لم استوعبه!! جدّتي! لا أدري كيف استطاعوا اقناعها أن تشاركهم تلك المؤامرة..استطاعت مراوغتي لأرتدي أجمل ما عندي.وجدتني أضحكُ خفيةً وسطَ تلك البعثرة.

أمدّني بالخاتم الفضيّ كي ألبسهُ إيّاه.

آثار الحروق الخفيفة كانت لا تزال واضحة على يده، لِمَ لم يفهم أنّها إشارة من السماء تخبرهُ أنَّ حبّهُ لي لن يسبب سوى المزيد من الحرائق في قلبينا؟ ألبستهُ الخاتم، ونظرتُ إلى أمّي، وجدتُها تبكي بكاءها الهادئ وأدهم لا يزال يخاصرها! اقتربَتْ منّي وأخذتني بين جناحيها، وباركتْ

لي زواجًا قريبًا لا أريده. وزوجها كعادتهِ وضعَ قُبلتيه على خدّي لكنّه لم يتحدّث معي مطلقًا!! ووسطَ زغاريد جدّتي وقريباتها، سحبني نايف من ذراعي باتّجاه سيّدتين بدتا خليجيّتين وقال بصوتٍ طرب:

- أمّي، وأختي غرور!!

أعجبني اسم أخته لدرجة أنّي نسيت المصيبة الألماسيّة التي تلف إصبعي؛ "غرور" ياله من اسم رائع! وسرعان ما عُدتُ إلى الواقع مجددًا. كرهتُ تصنّعي الابتسامةً، تمنّيتُ لو اختفيتُ من أمامهم، لو هربتُ بلا رجعة. إذ بدا عهدًا جديدًا يُثقلُ الظّلال ووعدًا هو بمثابة ذنب أحفظه ويحفظني!

سألتني والدته- سعاد- عن مختلف الأمور، كنتُ أجيبها ولا ألقى تعليقًا لما قلت، وأحيانًا كانت تهز رأسها، وأحيانًا أخرى لا يهتزُّ لها طرف. لم أكن قادرة على قراءتها وذلك أمرٌ يرهقني كثيرًا، بماذا كانت تفكّر؟ ما هو انطباعها الأول؟ لِمَ تبدو غير راضيةٍ عنّي؟؟ ولِمَ يشغلُ هذا بالي من الأساس. وجدتُها عظيمةً بكبريائها، وصوتها لا يقل كبرياءً عنها. عيناها العسليّة أنطَقَتْ ملامحها السمراء، لها فمٌ جميل وأنفٌ عراقي، ابتساماتها نصفيّة بشكلٍ مزعج، لها شعرٌ ليليّ انساب من تحت حجاب عباءتها. أمّا غرور، فكانت تشبه أخاها كثيرًا؛ لها عيناه وضحكته وكأنّها نسختهُ الأنثويّة. أعجبني مقوّم أسنانها الفضيّ وعباءتها الملكيّة.

حين عاد الضّيوف إلى منازلهم أو فنادقهم، كان من المفترض أن

أُكمل باقي السهرة مع نايف وأمّي وجدّتي، أدهم كان قد انسحبَ باكرًا من بيننا، ولكنّي اعتذرتُ لهمبالإجهاد وبوجوب العودة إلى المنزل لأرتاح. تعجّبوا لأمري، وخصوصًا جدّتي التي أخبرتني لاحقًا أنّها ترغب في أن نذهب سويّة إلى الإسكندرية بمناسبة خطبتي، رفضتُ هذا ولم يجادلني أحد، سألتها:

- تريدين الذهاب؟

أجابت بعد تنهيدة:

- أردتُ أن أذهب معك لكنّكِ أبيت.

- اذهبي، كوني برفقتها.

- وأنتِ؟؟

- أنا ماذا؟؟ ليست المرّة الأولى، اعتدتُ أن تذهبي إليها كل حين، لا تقلقي.

عدتُ إلى المنزل وبي بؤس الدنّيا، إذ أدركتُ مدى تورّطي مع نايف أو بالأحرى تورّطهِ معي، البيتُ خالٍ من ظلال جدّتي ومن ظلالي، هكذا وجدتهُ.

استيقظتُ صباح اليوم التالي على رنين الموبايل فوجدتُ المتّصل وعلى غير العادة نايف، لربّما اعتقد بأنّه قد حانت اللحظة كي يهاتفني كالعشاق، لم أجبهُ، رفعتُ يدي اليمنى أمامي، أحدّق بالمشنقة الألماسيّة التي تلفُّ إصبعي، وما هي إلّا لحظات أرسلَ إليّ:

- نحن حبايب رسميًّا منذ الأمس، أجيبي على الهاتف ..

اتّصل مجددًا، لم أجبهُ!! فأرسلَ رسالةً أخرى يقول فيها:
- كما تشائين، أنا في الخارج سأصطحبك إلى الجامعة اليوم.
بدا هذا احتلالاً ما، اقتحامًا ما لعشقٍ فعليّ لا يشغلني أن أكون أحد طرفيه، نهضتُ بتكاسلٍ وتوجّهتُ إلى شرفتي، فوجدته ينتظرني في الأسفل. وسيم وأنيقٌ كما عهدته، حين لحظني ابتسم لي بحنان وابتسمتُ له قبل أن أدرك أن شعري "منكوش "وأنّي ارتدي "بيجامة "لفتاةٍ في الخامسة من عمرها، فهربتُ إلى الدّاخل!
ارتديتُ ثيابي ونظّاراتي الشمسيّة بسرعة وخرجت، قال مبتسمًا:
- "هلا والله."
وتصافحنا قبل أن ننطلق بسيّارته، لاحظتُ أن نظراته لي تزداد، وكأن خاتمه في إصبعي قد صرّحَ له بذلك!! سألني:
- كيف أنت؟؟
- بخير، والحمد لله.
كان ينظر إليّ دون أن أنظر إليه، عيناه كانت خطيئة لا أقدرُ على حملها، كنت أنظر إلى الطريق الطويلة أمامي، أفكرُ بالفرار وتارةً بالتّحليق. عاد يحاورني:
- أأعجبكِ الخاتم؟
أجبته سريعًا:
- جميل.

- يمكننا استبداله إن لم يعجبك!!

- لا داعي، إنّه جميل.

- متأكدة؟

- نعم.

وساد بيننا الصمت، فأسندتُ رأسي على النّافذة تمامًا وقد توقّف عقلي عن التّفكير، شعرتني ظالمة، كاذبة ومذنبة حتى النّخاع، أردت أن أتفّوه بلا حبّي، كنت أجبنُ في اللحظة الأخيرة فتحتلني الحيرة، والخيبة!

قال:

- ولِمَ اخترتِ كلّية الأدب بالذاّت؟

أعدلتُ من جلستي والتفتُّ إليهِ تدريجيًّا. وحين التفتَ إليّ، عدت أنظر للطريق أفرُّ إليها بعينيّ من عينيه، أجبته:

- اسأل أحلام مستغانمي، أحببتُ منها الأدب فاعتنقته!!

ضحك عاليًّا، أجاب:

- أحقًّا؟؟ أتنوين أن تصبحي مثلها؟

قلت:

- أتمنّى، ولكنّي اعتزلتُ الكتابة منذ فترة.

صاح:

- اعتزلتِ؟؟ لماذا؟

أجبته وأنا أستعد للخروج من السيّارة:

لا تقلق، لربّما هو اعتزالٌ مؤقّت. من الممكن جدًّا أن أعود، ولكن حين يأذن الخيال ويسمح القلم!

وجدتهُ كمن خابَ ظنّه، أو بالأحرى يريدني أن أعود إليها لأشعلَ في الأوراق إلهام قصّتنا، فأضفتُ حاسمة:

- حين أعود لكتاباتي، لن أعود عاشقة!!

قال منهزمًا:

- كما تشائين!!

عجبتُ لأمر انهزامه وعدم اكتساحه ساحات النّقاش. وقبل أن ينصرف قال:

- انبهرت بكِ غرور!!

- أحببتها جدًّا.

فعاد يبتسم لي، وانصرف.

***

كانت تلك سنتي الأولى في الجامعة كما في الحياة؛ أحببتُ حياتي الجامعية، رأيتُ في دراسة الآداب منفذًا لأحلامٍ بعيدة، حتى وإن كانت الكتابة لدي خارج نطاق الخدمة، شيء غريزيٍّ بداخلي كان ينبؤني دومًا بعودةٍ سأفاجئُ فيها نفسي وأوراقي المنسيّة، أدركتُ أنّها ستكون بدايتي الحتميّة، ونهايتي! استقبلني الجميع استقبالاً حارًّا، ظنّوا بأنّي قد عدتُ من لبنان للتّو، لم أُصحح المعلومة، وكيف أصحح الخيبة؟ كم افتقدتُها! كم أفتقدها!

اقتربتْ منّي هبة، تعاتبني لاختفائي المفاجيء وعدم سؤالي عنها وهروبي دومًا من الخروج برفقتها هي والشلة. شعوري بالإحراج كان أكبر من الذنب بكثير، ووسط حديثي معها اعتذرتْ فجأة لي وقالت إن والدها ينتظرها خارج الجامعة لأنّها نسيّتْ كتبها في سيّارته، فوجدتني لا شعوريًّا أسير ورائها كي أشهد أية لمحة أبويّة سُلِبَتْ منّي دون أن أدري. رأيتهُ يخرج لها من سيّارته مبتسمًا لها وعلى وجهه نور السماء، كم أحببتُ تجاعيد عينيهِ ورأسه المشتعل شيباً ، وانحناءة ظهره التّي تزيده عظمةً وعزّة. أمدّها بالكتب فانحنتْ تقبّل يده فورًا فرفع يده عاليًا يدعو لها الله.

كيف سيبدو والدي لو كان على قيد السلام؟! قلت لها حين التفتتْ إليّ:

– ربّما أخرج برفقتكِ بعد الامتحانات.

إنَّ الشعور بالفقد، يوّلد الحرمان. والحرمان شبحُ الإرادات!!

صادفتني أويقات كثيرة، شعرتُ فيها باشتياقٍ لظلّ من ظلال أبي. اشتياقٍ لوجوده فقط على هامش قلبي، لو كان لا يزال على قيد الحياة لقدتُ سيّارتي إلى حيث يسكن لأرى طيفَه من بعيد، لأشمَّ دخانه كغريبةٍ تمرُّ من حبيبٍ ألمَّ بها. كنتُ سأتّصل به يوميًّا كي يمتلئ جهازي السّمعي بصوته ودون أن أنبس بكلمة، سأكتفي بصمتي في حضرته!

من المؤلم حقًّا أن يتيتّم المرءُ في سنٍ صغيرة، ولكنّي لم أتيتّم فعليًّا في اللحظة التي مات فيها، بل في اللحظة التي أهان فيها أمّي وطفولتي بين

يديه. أحبّها حدَّ أن أهاننا معًا. ولحفظِ ما تبقّى من رماد، رحلنا. فظنَّ أن رحيلها هو إقرارٌ تام لخيانةٍ لم تكن لتشرع فيها! أذكر أنّه أجهشَ بالبكاء كطفلٍ ستضيعُ منه دميته.

أحيانًا، يصبحُ الطرف الأقل حظًّا في علاقة حبّ ما كدميّةٍ في يد الطرف الآخر، دميّة يعانقها ليلاً حين يخاف أو يتعثّر، لكنّه سيلقيها على الأرض حينما يتجبّر، فيصبح الحب والنّكران سيّان! أذكرُ ذلك المشهد الأخير الذي جمعني وإيّاه، وأمّي تهمُّ برحيلٍ أبديّ لا رجعةَ فيه. اذكرُ بكاءهُ أو بالأحرى نواحهُ وخوفهُ من حنينٍ وحرمانٍ آت، رأيته يرجوها ألّا ترحل لتتركه بلا هويّة ولا عنوان، رأيته يقبّل آثار ضربه لها؛ الخدوش على وجهها، عينها اليسرى المشوّهة بقبضته، والأخرى كي لا تغار من أختها، قبّلَ شفاهها الممزّقةِ حبًّا، صدرها الموجوع، يديها، ضلوعها شبه المهشّمة، ثم يعود لشفاهها من جديد يملؤها ندمًا!

كم صرخَ "سامحيني!" تلك الليلة. أمّي لم تكن سوى جثّة تقفُ على أعتاب الرحيل، لم تكن تبكي، كان وجهها مليئًا بدموعٍ تبكي لها. لم تمنعهُ من تقبيلها، بل قالت له بصوتٍ شبه مسموع:

- اكتفيتْ؟ اكتفيتَ قُبلاً؟! قبّل قبّل! لأنّها قُبلكَ الأخيرة!!

لَفَظَتها وهي تتحاشى النّظر في عينيه المُضرّجة بخذلانها. اقتربَ منّي وقد أدركَ النّهاية، حاولَ الابتسامَ جاهدًا ولم يقدر، حضنني، فهربتُ من ذراعيه إلى أحضان أمّي، ليتني لم أهرب من حضنه الأخير ذاك!

ليتني تركته يحضن.. يحضن لأنّه الحضن الأخير. مات بعد ذلك بأسبوعين إثرَ أزمةٍ قلبيّة، ولم يكن حينها يتجاوز الثّلاثين من العمر، لم يستطع العيش دونها، ومن يستطيع؟

***

وفورَ انتهائي من أداء امتحانات العام، فوجئتُ في أحد الأيّام بأدهم يطرق- بمفرده- بابي بكل أناقة مفرطة ووسامة غربيّة ساحقة. فتحتُ لهُ الباب، وأنا ألعنُ جمال عينيه الزّرقاء. ظللتُ أحدّق به ونصفي مختبئ خلف الباب، وكعادته، كان أوّل من كسر صمتي قائلاً:

-" هفضل واقف كتير؟ "

أشرتُ له بالدّخول دون أن أنطق بحرف. دخل، وخلع حذاءه وهو يحدّقُ في انعكاسي في المرآة، فهربتُ من الشبح الأزرق. سبقتُهُ إلى الصّالون وبقيتُ واقفة خلف الكرسيّ، أشعرُ بالرّاحة حين أختبئُ النّصف في حضوره، جلس مقابلاً لي:

- ألن تجلسي؟

- أين أمّي؟؟

أردتُ أن أقضي على أي جو ترحيبي قد يشعر به. فقال كمن يعلّمني آداب الضيافة:

- من الأفضل أن تسأليني عمّا إذا كنت أريد تناول مشروبٍ ما.. شاي؟ نسكافيه.. قهوة ربّما؟؟

- لا أُجيد إعداد أيّ منها!!

كذبتُ تمامًا، أجابني ضاحكًا:

- أحقًّا؟ يا ربّاه!!!

نهض ثم توجّه إلى البراد الصغير المتواجد في آخر الصّالون، قام بفتحه ثمَّ قال:

- يا ويلي! عندك من العصير ما يكفي لسقي الشارع. هيّا اختاري لي عصيرًا على ذوقك، إلّا إذا كنتِ لا تعرفين صب العصير!

وددتُ لو حملتُ البرّاد وألقيته على رأسه.

ومن بين عصير التفاح والمانجو والبرتقال والأفوكادو والفراولة والتوت والكوكتيل والجريب فروت، قدّمتُ له الجريب فروت. فقال وهو يأخذه منّي:

- "هو ده اللي ربّنا قدّرك عليه؟ وديني لشربوا."

وضحكَ عاليًّا وهو يفك أزرار قميصه. وجدته يرتدي الروليكس التي أهديته إيّاها يوم زواجه من.. ماما!

ظل يشرب العصير ولا يتحدّث، ضيفٌ ثقيل الظلال، وبقي على تلك الحال قرابة السّاعة، حتى أنّه قام بتشغيل جهاز التّلفاز، وكأنّه سيد البيت.

كم استفزّني تلك الليلة، سألته مجددًا:

- أينَ أمّي؟؟

أجابني وهو يقلّب قنوات التّلفاز:

- اتّصلي بها، اسأليها.

فأمسكت بهاتفي فورًا واتّصلتُ بها:

- ماما!!

- أهلاً غاليتي، أين أنتم الآن؟؟

- "في البيت، وين بدنا نكون يعني؟؟"

- يا إلهي، ستتأخّرون!!

أجبتها متعجّبة:

- عمَّ سنتأخّر تحديدًا؟؟

صاحت:

- ألم يقل لكِ أدهم؟؟

نظرتُ إليه:

- لم يقل شيئًا، إنّه يشاهد التّلفار حاليًّا "وعايش حيّاته"

فالتفتَ إليّ باسمًا، وأمّي على الجهة الأخرى من الهاتف تصرخ:

- بنت!!!

- ما المطلوب؟؟

- احزمي حقائبك، لقد مرَّ بكِ أدهم ليصطحبكِ إلينا وجدّتك.

بدتْ فكرةً رائعة جدًّا، فلقد قيل لي إن الإسكندرية رائعة بداية الصّيف، ولكن مع من؟؟ أدهم؟ أجبتُ بامتعاض:

- لا، في العام القادم ربّما.

- لقد قدِمَ خصيصًا ليصطحبك، وأصرَّ على ذلك اصرارًا تامًّا.

شهقتُ باستهزاء:

-" احلف!! "

- "وحياة أبو زحلف. "

- انسي.

فجاء صوتها معاتبًا:

- رنا، اشتقتكِ يا ظالمة، واشتاقت لكِ الجدّة. تعالي أرجوك.

أجبتُها مغلوبةً على اشتياقي:

- وما المقابل؟

- أهديكِ عمري.

"لا أريد عمركِ ماما، أريدُ ظلّك "

خرجتُ من غرفتي، أجرُّ حقيبتي، فنهضَ فورًا ليجرّها عنّي، شكرته، وقلت:

- سنذهب بسيّارتي!!

فقال متعجّبًا:

- وسيّارتي؟؟

- قُدها! اتركها! الأمر يعود إليك.

فقال مستاءً:

- لِمَ خياراتك قهريّة؟؟ لِمَ لا تقولين لي أن أرافقكِ بسّيارتك بمنتهى الشفافيّة.

أجبتهُ باستخفاف:

- كما قلت من البداية، سنذهب بسيّارتي!!
نسبة احترامي له لم تتجاوز "الحشرة" بالمئة.
جلسَ إلى جواري، أدرتُ مقود السّيّارة، وانطلقنا.
سألته وهو يشعل غليونه:
- كيف كان شهر العسل؟؟
فأجابني بسؤالٍ آخر لا يمت لسؤالي بصلة:
- ألا زلتِ غاضبة منّي؟؟
بدا سؤالاً مخادعًا:
- غاضبة؟
أجاب بحزم:
- أجل.
حينها أدرتُ وجهي إليه كي استشف شيئًا من ملامحه بنظرةٍ خاطفة، وحين شعرت بعينيه هي الأخرى تجتاحني، نظرتُ بعيدًا، قلت:
- ولماذا قد أغضب منك؟؟
أجاب سريعًا:
- لزواجي من نونة.
وجدتُها فرصتي بلفظ الخبايا، بإخراج القهر إلى النّور، فرصةً لأستردَّ بعض كبريائي الملقي على أعتابه الخمسينيّة. يا له من سؤال رائع، مدمّر، وحين آنتْ اللحظة، تشرّدتْ الإرادة:

- إنّه قرارها، وفيه سعادتها، وسعادتها هي سعادتي. لستُ غاضبة منك على الإطلاق!

أجاب بكل هدوء وهو ينفخ دخانهُ عاليًّا:

- كم أنتِ كاذبة!

أُصبتُ بذهولٍ شلَّ الحروف على طرف شفاهي. رُحتُ أحدّقُ به متجاهلةً الطريق أمامي، كان ينظر إليّ أيضًا، ثمَّ أنزلَ المرآة الأماميّة وأخذ ينظر إلى زين وجهه ويهذّب خِصلات شعره الرّمادية ويرفعها إلى الأعلى. لم أستطع الرّد، وكأنَّ جرأتي المعهودة قد تبخّرتْ، كرهتُ نفسي وصمتي وأخذتُ أعضُّ على شفتي السّفلى. لم نتحدّث بعد ذلك سوى في أمورٍ تخصُّ الطريق إلى الإسكندرية!

***

وجدتُ أمّي تنتظرني خارج بوابة الفيلا مرتديةً روبها الحريري، اقتربتُ منها، من رائحتها العطرة، لم يعانقها جسدي، بل روحي!

حوطّتها بذراعي، وأنا أتوقُ إلى ملامحها، همستْ لي:

- اشتقتُ لكِ.

ابتسمتُ إليها بملء قلبي، وقبّلتُها بقوّة على خدّها الذي أُحب، وسرعان ما انضمَّ إلينا عريس الغفلة وهو يجر حقيبتي، ابتسمَ لي وهو متوجّهٌ إليها، أخذها جهرةً بين ذراعيه وقبّلها في حين اشتعالي! نادى على أحد الخدم ليأخذ الحقيبة ويرشدني إلى غرفتي. الفيلا لم تختلف

كثيرًا عن أدهم. اتّجهتُ مع الخادم نحو السلالم حيث غرفتي العلويّة، لكن أدهم قال:

– استخدمي المصعد!!

لم أجبه، وصعدتُ السلالم.

الغرفة.. لا! أعتقد أن الكلمة "غرفة" لن تليق بمقام ما خُصّصَ لي، إنّها عبارة عن شقّة صغيرة أو جناح فاخر في أحد فنادق الخمس نجوم!

معظمها أسود؛ الأرضيّة، الجدران، الخزائن، السّرير وما عليه من أغطيّة. وكانت هناك زاوية بها أريكة أمريكيّة حمراء ساحرة لم تُخلَق للجلوس عليها، بل للنّظر إلى جمالها كل حين. بدا كل شيء مجهّزًا حديثًا، عرفتُ هذا من رائحة الطلاء على الجدران، ووجدتُ على أحد الجدران صورةً كبيرةً لي، التقطتها أمّي، ولم تكن ابتسامتي في تلك الصّورة مشوّهة بأدهم بعد!

عائلة واحدة، أُلفة منقوصة، إلّا أنّهما كانا سعيدين كعصفوري عشق. أخذ يتغزّل بها أمامي ويتطاول أحيانًا كثيرة، كانت تنهره، ثم تعود تضحك في خجل، سألتُ عن جدّتي فعلمتُ أنّها نائمة، فانسحبتُ عن طاولة العشاء بعد أن استأذنتهم، وصعدتُ مملكتي السوداء!

استلقيتُ على السرير بعد أن اضطررتُ حرفيًّا لأن أقفزَ عاليًّا حتى أتمكن من بلوغه لفرطِ ضخامته. لم أكن مرتاحة تمامًا فهو ليس سريري المعتاد، مرتفع، ذا رائحة فوّاحة تُحدث ضوضاء دماغيّة. أخذتُ أتقّلب

على الجهة اليمنى ثم على اليسرى، ثم أستلقي على ظهري، وسرعان ما أصابني النّعاس، لإرهاقي الشديد.

في ذاك الصّباح، شعرتُ بأحدهم يُقلق نومي المضطرب، فتحتُ عينًا، أمّي. وكم بدتْ جميلةً صباح ذلك اليوم! ما أجمل الإصطباحة بوجهها اللؤلؤي! قالت:

- رنا، غاليتي هيّا انهضي!!

لم أُجبها فهي تعلم قوانيني الصّباحيّة، صاحت:

- ويلي، كدتُ أنسى.

ثمَّ قفَزَتْ تستلقي بقربي وتأخذني بين ذراعيها الدّافئة، قالت وهي تلعب بخصلات شعري:

- "صباحك خير وسكّر، صباحك ورد معطّر."

ابتسمتُ وأنا مغمضة العينين وأشرتُ لها على خدّي، فقبّلتني بقوّة، همَسّتْ:

- كم أتمنّى أن تَبقي هنا بقربي!!

أجبت:

- إلى أين سنذهب اليوم؟؟

أجابتني وقد نهَضَتْ باتّجاه الخزانة، تغنّي:

- شط اسكندريّة.. يا شط الهوى

- لم أحضر ثيابًا مناسبة.

أجابتْ بدلال:

- وما وظيفتي أنا؟؟

- "عندك مايوه؟؟"

عادتْ تنظر إلي سريعًا، قالت:

- مايوه؟ منذ متى؟؟ تريدين؟ ها؟ تريدين؟؟

قلتُ ضاحكة:

- لا، أغار على جسدي.

تذكرتُ نايف، ورسائله، أمسكتُ هاتفي فوجدتُ رسالةً منه:

"أخبرتني الوالدة أنّكِ عندها، أتمنّى لكِ أوقاتًا رائعة، اعتني بنفسك!!

كم هو مسالم! لم يزعجه حتى عدم إخباري له هذا بنفسي.

وماهي إلّا لحظات حتى انضمّت إلينا جدّتي بوجهها البشوش:

- "الموكوسة جت؟؟"

فنهضتُ عن السرير بسرعة كي أملأني بها، وقبل أن أحضنها، قالت:

- وبعدين معاكي في اللبس الخفيف ده؟ بتقدري تنامي ازاي ونصّك عريان كدة؟؟

وعانقتني بحرارة.

وإذا بأدهم ينضم إلينا مخرّبًا جمعنا السعيد قائلاً:

- صباح الخير جميلاتي.

"فليكن صباحك زفتًا قطراناً"، أجبته وأنا أخبئ جسدي بغطاء السرير:

- "أهلين."

أخذتُ من أمّي فستانًا أزرق، وهربتُ إلى الحمام!

ارتديته، فستان صيفي مبهج، بلون البحر ليلاً، وبه ورود بيضاء، طويل، فرنسي التّفصيلة، عاري الكتفين، أحببته! تناولنا فطورًا صامتًا سويّة، وانطلقنا نحو أمواج البحر المشاكسة وأنا أرجوها سرًّا أن تشفي روحي! لبرهةٍ زالت هموم العالم، أنا بحضرة البحر والأحلام ثالثنا. وجدّتني أضحك بلا أسباب كطفلةٍ في الخامسة، تذكّرتُ شواطئ لبنان الغالية، رائحتها ورمالها. ولكن للأسكندريّة ملامح خاصّة بها دونًا عن مدن العالم! ركضتُ باتّجاه البحر، طارتْ منّي قبعتي فرُحتُ أركض خلفها ضاحكة، نظرتُ إليهم فوجدّتهم جميهم يضحكون أيضًا. وأدهم انسحب من بينهم ذاهبًا إلى عمله كما أخبرنا مسبقًا، فازدادتْ سعادتي الضّعفين. انضمّتْ إليّ أمّي باسمة، بدتْ جميلةً للغاية وأشعة الشمس تحيطها من كل جانب. أمسَكتْ يدي وأخذنا نمشي على امتداد البحر، دون أن نتحدّث، لم يُخلَق البحرُ لنتحدّث بحضرته، خُلِق البحر لكي نتنبّه لحاسّتنا التّأمليّة والفكريّة، وخُلِق أيضًا لغسل الخطايا والذنوب!

كان الجميع ينظر إلينا، والكثير منهم يتغزّل بنا، الغزل المصري فريدٌ في جنونه:

"أموت أنا وأعيد السنة"

"هو القمر بيطلع في النّهار ولا إيه يا جدعان"

"قلبي الصّغير لا يتحمل.. يا أحلى ضربتين على دماغي وقلبي"

كم ضحكنا ذلك اليوم، وحين عانقتْ الساعة حدود الخامسة عصرًا، وبدأتْ الشمس تُعلن انسحابها من السماء البرتقاليّة، كان من المفترض أن أعود معهم إلى الفيلا، لكنّي بقيتُ لمدّةٍ أطول بمفردي.

***

جلستُ بمفردي تحت المظلّة الشمسيّة الكبيرة، أقرأ حينًا، أتأمل البحر حينًا، وذوي الأيادي المتعانقة والأحلام الخضراء حينًا. كم أتعجّب من مجانين الحب! كيفَ يفقدون منطقهم، كبرياءهم، كيفَ يتخلّون عن أي شيءٍ في سبيل الوصول إلى ذلك الشعور القاتل المحيي؟! حين وضعتُ نفسي تحت بند العشاق، أقسمتُ ألّا أتخلّى عن كبريائي مهما حدث، فالحب هو الكبرياء، ولم أُمانع حدوث القليل من الجنون دامتْ الدراسات جاريّة وحقوق القلب محفوظة. كذلك أدركتُ بأنّي إن عشقتُ يومًا، فيجب على ذلك الخاتم أن يلُفَّ إصبعي، فوحدهُ دليل على صدق النّوايا وتحدّي الحياة، ولكن خاتم نايف، لم أشعر به ملاذًا، لم أشعر به مطافًا أخيرًا، شعرته ذلك العبث الهادئ، شعرتهُ ذنبًا كبيرًا يعيقُ سعادتي، فوجدّتني أسقطُ في بعثرةٍ فكريّة وأضيعُ في الضياع:

"تورّطنـــا عشــقيّــًا..

في سمـــاءاتٍ تشرّدتْ

والأحلام جرداءُ من الحلم

تشتعل.. تبكي..

خلفَ جدرانٍ قدريّة
وعيـــونٍ لا تألف السّكيــنة
قلوبُ فارغة.. نبضاتْ منسيّة
تحتَ بند اللاانتظار..
اللاحب.. اللاسلام.. اللااهتداء!! "

تأهّبتُ للعودة إلى الفيلا، ضممتُ خصلاتَ شعري الأماميّة بالنّظارة، حملتُ حقيبتي وحضنتُ الرواية التي كنتُ أقرؤها، (السراب للعظيم نجيب محفوظ.) ثُمَّ صعدتُ إلى السلالم الطويلة حيثُ سيّارتي.. و.. إنّها اللحظة التي لا نتوقّعها في الحياة، إنّها اللحظة الأجن.. الأجمل.. الأشقى.. "لم أكن على وعيّ تام بما حدث، إلّا أنّني كنتُ علي يقينٍ مُطلق بأنّه حدث." غريبٌ ينزلُ من السلالم باتّجاهي، عينان باردتانٍ في يوم صيفي، وسهامٌ هي أقرب إلى انتحاري، إلى بعثي إلى الحياة، شعرتُ بانهزامٍ قريب، انهزام ساحق. وحينما تشاركنا ذات السلّمة، شعرتُ بنبضاتٍ قلبي أقربُ إلى ضربِ الطبّول، لم أفهم أي شيء، ومن يفهم البدايات حين تجرّنا إلى الجنون؟؟

طويل جدًّا، جسمه نحيف بهيئة جذابة، بشرته بيضاء تميلُ قليلاً إلى الحنطيّة، شعره بنّي متألّق، وسيمٌ بشكلٍ فاضح، ولكن.. عيناه، عيناه مصيبتان.. ثلجيّتان!! هربتُ من صقيعهما ومن وجهه اللامبتسم الحديدي الصّاخب! ملامحه خَلَتْ من أي رد انبهار، لم تكن وسامتهُ

ما أرهقتني، بل البرودة السّاحقة في عينيه النّاعستين، ركبتُ سيّارتي في عُجالة، وددتُ لو عُدتُ إليه لأصيح في وجهه:

- ترجم نظراتكَ يا هذا، ودفّئها!!

أدرتُ المقود، وقبل أن أنطلق رأيتُ خاتم نايف يعاتبني!!! صحت:

- هذا الجنون لا يجوز!!

عدتُ إلى الفيلا منهكة المشاعر، بلا أسباب واضحة فعليّا، قد تمَّ استفزازي بلا شك. خرجتُ إلى الشّرفة وكأنّي لم أكتفِ من النّسيم الإسكندراني، شعرتُ بحاجةٍ ملّحةٍ لاستنشاق الأكسجين بسبب هذا الدّوار العاطفي الأوّل، وبعدَ دقائق، لمحتُ سيّارة سوداء تسير، ثمَّ تتوقّف فجأة قبل أن تدخل الحي، مريبٌ كان أمر وقوفها. استرقتُ النّظر، فوجدتهُ مجددًا بنظراته ذاتها اللامفهومة التي ولفرطِ غموضها شعرتُها جدُّ لئيمة. وإذا به يدخل منعطف حيّنا، رحتُ أوسوس:

"هل سيحدّثني؟؟ ماذا سأفعل لو فعل؟؟ أم أنّه سيتابع استراق النّظر بمكر؟"

لكنّه لم يفعل لا هذا ولا ذاك، بل إنّه دخلَ إلى جراج الفيلا المقابلة لنا، صحت:

- أيعيشُ هنا؟ يا حبيبي!

خرج من السّيارة، التفتَ إليّ للجزء الأحقر من الثانيّة، أقفل باب السّيارة، ثم دخلَ إلى الفيلا.

دخلتُ غرفتي مستاءة، وأقفلتُ باب الشّرفة، وأسدلتُ الستائر السوداء!

إلّا أنّي اقتربتُ منها مجددًا، وأخذتُ أختلس النّظر من وراء الستار.

شعرتُ بخطر يتربّص بي، أبيتُ على نفسي أن أعشقَ عشق النّوافذ، وهممتُ أُسدلَ الستائر، لكنّه ظهر مرةً أخرى فألصقتُ أنفي على الزّجاج، لا أدري لِمَ سعدتُ لرؤياه حتى وإن لم ينظر إلى حيث كنت أقف، أخرج شيئًا من سيّارته وعادَ إلى الداخل.

لعنتهُ وأسدلتُ الستائر تمامًا!!

أردتُ أن أشغلَ نفسي بأي شيء، فأمسكتُ هاتفي علّه يخدع فضولي المولود حديثًا، فوجدتُ -وكما جرتْ العادة- رسالةً من نايف، يخبرني فيها أنّه قادم إلينا في الغد بدعوةٍ من أمّي. رحتُ أبحث عنها فأخبرني أحد الخدم أنّها نائمة وأن الباشا قد عاد، انفجرتُ به قائلة:

- سألتكَ عن أمّي، ولم أسألك عن الباشا!

الويلُ لي ولفظاظتي، فما ذنب الخادم المسكين؟ وإذا بصوت الطاغية يناديني من الدور العلوي، نظرتُ إلى حيث يقف فوجدته يبتسم لي قائلاً:

- رنا، أخيرًا عُدتِ!

وجدته ينزل السلالم بخطواتٍ سريعة وهو يرتدي روبه الحريري، اقتربَ منّي وهمس:

- "وحشتيني."

كرهتها كلّيًا منه، شعرتها إهانة أخرى لي ولمسامعي، لم أجبه ولم يعلّق على صمتي، بل أخرجَ علبة سوداء مخمليّة من جيب البيجامة، وقال آمرًا إيّاي:

– افتحيها!!
لم ألمسها، فتذمرَ قائلاً:
– يا لكِ من مشاكسة!!
وأضافَ قائلاً:
– سأعقد معكِ اتفاقًا، سأسألكِ سؤالاً، وإن أجبته بصدق سأفتح العلبة وأُلبِسَكِ ما فيها، وإن استطعتي الكذب، فلتفعلي بالعلبة ما تشائين!
بدا الكذب أمرًا سأحبّه في حضرته، أجبتهُ ساخرة:
– هات ما عندك.
قال:
– ما أخبار حبيبك نايف؟
أجبته ودون تفكير:
– نايف، ليس بحبيبي.
غدرَ بي لساني، وكرهتُ تعجرفي، وما إن قلتُ له هذا حتى قهقه عاليًّا وقام بفتح العلبة ليخرجَ سوارًا ماسيًّا قاتلاً، أمسكَ يدي اليمنى ليصبح ظهر يدي في قلب كفّه، وقال وهو يتحسس شرايين يدي بإبهامه:
– سيبرز جمال شرايين يدك.
سحبتُ يدي من مخالبه لكنّه أحكمَ إغلاق قبضته، ألبسني السّوار، وأفلتَ يدي. نظرتُ إلى معصمي، وجدتُ أن جمال السّوار طغى على جمال خاتم نايف بمقدار " أدهمين " بل ثلاثة " أداهم " قاطع أفكاري

قائلاً:

– يعجبك؟

– لا أدري ما المناسبة.

– وهل يجب أن تكون هناك مناسبة كي أُحضرَ لكِ تذكارًا ما؟؟

– تذكاركَ يساوي عشرات الآلاف.

– وأنت عندي بالدّنيا وما فيها.

– لا تبالغ، أرجوك.

– لِمَ تكرهينني هكذا؟

– لا أكرهك.

– بلى! لا تكذبي.

– لستُ أفعل، ولا تدعوني بالكاذبة!

– أنتِ متعبة!! اذهبي لغرفتك، نامي قليلاً.

لم أذهبْ إلى الغرفة، رأيتُ في ذلك طاعة ليست في محلّها، هربتُ إلى الحديقة، وما إن جلستُ على الأرجوحة حتى رحتُ في نومٍ عميق، بعد أن خلعتُ السوار!

* * *

"لا أنفكُّ لا أشعرُ به..

ذاك الحنين..

حنينٌ يقتلهُ القيد..

قيدكَ أنت!!

ما بها هذي الحكاية؟

حكاية بلا معالم..

لا تسمع فيروز أرجوك..

أغانيها لم تُخلَق لنا. "

انضمَّ إلينا نايف في صباح اليوم التّالي برفقة أمّه وأخته غرور، استقبلتهم أمّي وجدّتي، أما أدهم فلم يكن موجودًا معنا حينها. لبرهةٍ ولشدّة شعوري بالذنب القاتل تجاه نايف، كنتُ أنغمس في مراسمَ عشقيّة لن تكون لنا، وطوال فترة معرفتي به أو اغتيالي له، كنتُ أستشعرُ نهايةً مؤسفةً على أثرها سأقسمه نصفين.

سألتني جدّتي وهم عندنا:

- أتحبّينه؟

فرحتُ أنظرُ إليه، إلى سلام وجهه وجمال طلّته العربيّة، وأخذتُ أبحث عن أدلّة عشق ما أو حبّ ما سينبض في فؤادي، فعلمتُ أن جريمة هذا الحب، بلا أدلّة. لم أجبها، وابتسمت، لربّما اعتقدتْ أن الابتسامة أيضًا "علامة رضا "ولكنّي ابتسمتُ لشقائي، وللشقاء ابتسامة أيضًا!

سألتني غرور عن عمري، أجبتها:

- في طريقي إلى العشرين عامًا.

قالت وهي تضع ذراعًا على كتفي:

- إذن، أخي أكبرَ منك بست سنوات.
- أعلم هذا.

"لم أكن أعلم بهذا مطلقًا"، وفي تلك اللحظة أخذتُ أفكّرُ لا منطقيًّا "بفتى الإسكندرية" وقد نسبتُ المدينة بأكملها إليه، ترى ما عمر فتى الإسكندرية؟؟ أعتقد أنّه يبلغ من العمر أربعة وعشرين عامًا، بل أربعة وعشرين مكعبَ ثلج!

انسحبتُ من بينهم لعدّة دقائق، وصعدتُ بسرعة إلى غرفتي، وفتحتُ الستائر. أحيانًا لا نشعر برغبةٍ في استقبال حبٍ قد دخلَ من الباب، فنتّجه فورًا بحثًا عن حبٍ آخر من أقرب نافذة. كل ما أردتهُ هو جرعة جنون من النّافذة تبهجني لبضعة ساعات، فشعرتُ بإدمانٍ مبكر أخون به نايف، فأغلقتُ الستائر بسرعة! لم أُبادله يومًا الحب، لكنّني صنته، عدتُ إليهم وقد تملّكني الغضب.

أحيانًا أغضبُ من الأيّام غضبًا قد يكون لا معنى له أو يكون، فأظلُّ قابعةً وسط الرّماديّة، أغضبُ حدَّ الاختناق، حدَّ الدموع القهريّة، تلك التي لا تخفّف عبئًا أو تغسل أحزانًا. أظلُّ أسيرةً لحروف الشرط والتّمني. تصادفني لحظات أكرهُ فيها تمرّدي المُعلَن على الحياة، لكنّي لا أكره بدايتها أبدًا، فكلُّ بداية لكل ما هو حولنا قد يُعَد لحنًا جميلاً نعرفه ولا يتكرر، بداية جنون، بداية عشق.. بداية حلم.. بداية وعد! هذه هي حياتي؛ بدايات لأشياءٍ عبثيّة سرعان ما تنطفئ أو تموت،

لتخبو ذكراها. يصيبني نوع من خدر الأحاسيس بالرّغم من سخطي على أغلب أمور حياتي ونوع من الاستسلام اللااستسلامي، كم أكرهُ اغتيالَ الأفعال وعكسها، حياة اللاحياة حياتي.

يقولون:

– فتاة جميلة ومحظوظة!

وأقول:

– فتاة تترنّح من يأس الأوهام.

لا يفهمون ولن يفهموا..

إنّه يأسي الذي يجيب بحروف النّهي والنّفي، وقد يتكلّم باسمي أحيانًا، ويحيا عنّي! اليّأس هو محرقة الأيّام التي تتوالى إنكار السّعادات وأي شرود ذهنٍ قد يكون حصاده بسمة، أو خيوط رفيعة جدًّا لأي أملٍ كان، فتحوّلَ صيفي إلى صيفٍ بئيسٍ مليءٍ بالأقنعة، شعرتُ برهبة الورطة التي وضعتُ نفسي فيها وكلّما أردتُ الانتهاء، ردّني سلامُ عينيه.

وفي ليلة من ليالي الصّيف، وجدته يتفق معي على إجراءاتٍ تخصُّ كهف الزّوجيّة، فأخذتُ أجاريه بصمتي، بلا ملامح واضحة على وجهي، كم قهرتني فرحتهُ واشتياقهُ لعمرٍ يجمعنا وعهدٍ يحفظنا، أحبّني جدًّا لكنّي لم أفهم لمَ أحبّني إلى هذه الدرجة وما الذي أحّبه فيَّ؟ فكانَ لا بدَّ لي من استجوابه، من معرفة أي شيء تنطقُ بهِ شفاهه الخجول؛ فسألته فجأةً ونحن جالسين في حديقة الفيلا:

- لمَ تحبّني نايف؟
وكأن هذا السؤال سيكون خلاصي من شباك حبّه، ومن ذنبي المتّقد، وجّهتُ كل كياني إليه وكأنّي أحفظه في ذاكرتي لنهايةٍ حتميّةٍ قادمة. بدا متفاجئًا لسؤالي، وراحَ يضحك وهو ينظر إلى كوب القهوة في يديه، رفعَ ناظرهُ إليّ وابتسَمتْ عيناه، قال:
- علّمني حبّكِ أن أسعد، وأنا محتاجٌ منذ عصور لحبّ يجعلني أسعد!!
استعان بقبّاني وأصابني في مقتل، أضافَ "أسعد" بدلاً من "أحزن"، إنّي أجعلهُ يسعد، وتلك مصيبتي.
من بين الجروح الغائرة، هناك جروحٌ تنبضُ فينا وأخرى تتمكّنُ منّا.
لا أدري ما هو نايف من الجرحين؟ الأوّل أم الثّاني، أو تراهُ كلاهما؟ آلمني جدًّا أن أراه يتعلّق بكل ظلالي، وألّا أُبدله الشوق. لربّما أردتُ وبشدّة أن أحرره منّي، إلّا أنّي علمتُ أن يوم تحريره هو حتمًا يوم هلاكه، ياله من رجل رائع لا أريد، وحلم بديع أودُّ الاستغناء عنه. قضيتهُ معي خاسرة ولقد علمتُ ذلك من اليوم الأوّل؛ في البداية، لم أكره أنانيتي، تجاهلتها، وسرعانَ ما أدركتُ ما جناهُ تمرّدي، فشعرتُ بالأسف ولكنّي والله.. ما أردتُ كسره. فليس أكثر قهراً من الحب حين يكسرنا!
مضتْ الإجازة الصّيفيّة سريعًا ما بين ذنبٍ متّقد وحب يجعله يسعد. كيفَ له أن يتّخذ من كلماتي القليلة قوتًا يقتاتُ به فتهنأ كل أساريره؟

كيفَ له أن يستقبل تمرّدي دون أن يُشهرَ أيَّ كبرياءٍ في وجهي؟ وكأنّني أردته أن يحاربني أكثر ويساومني أقل! غريبات الأطوار نحن النّواعم دومًا وأبدًا، نلحقُ خلف الشقاء خالعاتٍ أنفسنا من الجنّة نحوَ جحيم اللاسلام "اللا نايف".

عدتُ إلى مقاعد الدراسة وبي نهمٌ غير معتاد لالتهام الأدب حرفًا حرفًا، ولكنّي لم أجرؤ أبدًا على الاقتراب من سطورٍ فارغة وقلم يدعوني إلى الجنون. أردتُ أن أتريّث، أن أضعَ حروفي تحت قيد الانتظار وأخرى تحت قيد الاشتعال. وكم من مرّةٍ دعاني فيها أساتذتي للدّخول في معارك أدبيّة أكون فيها الغالبة والمغلوبة، فقد أعجبتهم كتاباتي الخاصّة بالمنهاج، ولكنّي أبيتُ أن أشنَّ أي حرب، أو أن أشنَّ أي حرف، واكتفيتُ بانتظار سبب مشرّفٍ أعودُ على أثره لأية مفكّرة فارغة أراها أمامي لأنهالَ عليها حرفًا لأكتشف لاحقًا بأنّها من انهالت عليَّ حبًّا.

وبينما كنتُ في أحدى محاضرات اللغة العربيّة صاح بي أستاذي المفضّل قائلاً:

- رنا، عرّفي الأدب!!

سألني عن أحبّ الأشياء إلى قلبي، ولم أدرِ ما هي الإجابة المثاليّة لذلك السؤال المخادع، وأخذتُ أرتّب الكلمات في ذهني وأتبعثرُ فيها، وحينما استشعرتُ أنَّ صبره سينفذ، قلت:

- أحلام مستغانمي.

فانفجرَ المدرّج ضحكًا، والتفّتْ الرؤوس باتّجاهي، وأعجبتْ كما أظن إجابتي أستاذي فأشار لي باسمًا بالجلوس، فوجّه السؤال ذاته لزملائي، فراحَ زملائي يقلّدون فعلتي؛ محمود درويش.. طه حسين.. سعاد الصباح.. نزار قباني.. غادة سمّان!!

وبعد أن طرِبَتْ أذنا الأستاذ ببضعة جبالٍ أدبيّة صاح بنا قائلاً:

- "هي رنا جننتكم عليَّ ولا إيه؟"

الأدب هو إلهامٌ يتسرّب من قلوبنا نحو أصابعنا فينقشُ القلمُ أفئدةً حبريّة لا تتكرر!

كم سَعدتُ بجنون زملائي ذاك.

عدتُ إلى المنزل، وفورَ عودتي وجدتُ رسالةً من نايف يخبرني فيها أن أقابله في أحد النّوادي لكي نتحدّث في أمورٍ تخصُّ(نا)، فشعرتُ بضيقٍ لا يوصف واسودّتْ أمامي أنوارُ الحياة إذ حيّرني قلبه العظيم، بدلتُ ثيابي على عجلٍ وقبّلتُ جبينَ الجدّة وقبل أن أخرج وجدتها تقول:

- ملاك، ارأفي به!!

نظرتُ إليها باستغرابٍ وأخذتْ أفكاري تجوبُ بي يمنةً ويسرة، ودّعتُها وانطلقت. وحين وصلتُ إلى النّادي وجدتهُ يتّصل بي، لبرهةٍ أردتُ أن أجيبه وأن أسمحَ له باجتياح أذني ولكنّي لم أفعل وتركتُ الهاتف يهذي، وبعدها بدقائق أرسل إليّ رسالةً يقول فيها:

"رأيتك، أنا على أقصى يمينك"

وجدتُ ظلاله الجميلة تبسمُ لي بسلام، اقتربتُ منه وسلّمته يداً مذنبة، فنهضَ يصافحني بوقار، وجلسنا سويّة. سألني عن حالي ولم أكن سوى جثّةٍ تتحدّث، وحين لحظ اضطرابي، قال:

- ما بكِ؟

وأردفَ قائلاً:

- أثمّة أمرٌ يزعجك؟

همستُ له في يأس:

- لا.

لم يصدّقني إذ قال:

- عيناكِ ملأى بالكلام، عهدتكِ جريئة!!

- جريئة؟ لقد تابتْ جرأتي على يديك، وامتنعَ الجنون عن الجنون.

وجدتُه يُهيئ لي جوًّا مريحًا بالرّغم من ملامحه القلقة، قال:

- لا عليكِ، كُلّي آذانٌ صاغيّة.

نظرتُ بعيدًا إلى وجوه النّاس، أستنجدُ بهم، أتمنّى لو أُصبحُ شخصًا منهم لديه أزمات أقل حدّة، عدتُ أنظرُ إلى وجهه المضطرب، قلت بصوتٍ خافت:

- لن أستطيع!!

أجابَ مستغربًا:

- لن تستطيعي ماذا؟

شعرتُ بنبضات قلبي ترجّني رجًّا:

– لن أستطيع ارتكابَ المزيد منالمجازر، لن أستطيع أن أشرع في حبّك، ليسَ يمقدوري أن تصبحَ حلمًا من أحلامي فأنتَ أجملُ الأحلام!

ضاع من اعترافي الأخير، وضِعتُ في الألم الذي طغى على وجهه الجميل، انهزمتْ عيناه وهزمتني ابتسامته البائسة، انتظرته أن يتحدّث لكن شفاهه لم تنطق بحرف! فاستجمعتُ صوتي وقلت:

– صدّقني حاولت، لكنّي لستُ على استعدادٍ لاعتناق هذا العهد القادم بيننا، لستُ على استعدادٍ لهذا السلام بعد، أو ربّما أكون على استعداد ولكن ليس تحت ظلالك، قد أكون المغفلة الكبرى والخاسرة الكبرى لعمرٍ لن أقضيه معك ولكنّها قضيتي التي أحبُّ خسارتها إن كان في مفادها أن تحيا أنت!

أضفتُ بحسم:

– فلنكتفي بهذا القدر من التّورّط العشقي!!

قاطعني قائلاً:

– حين تبتسمين لي وأرى غمزة خدّك اليمنى، أؤمنُ أنّكِ لي، فأكذّب إحساسي وأشعر أنّك تبادلينني.. ..

صحتُ وكأنّي غارقة تستنجدُ بقشّة قي محيط الخذلان:

– إذن شعرتَ بي، ما هو إحساسك الذي كذّبته؟

أجابني مقتولاً:

- لن يفيد أن تعرفي هذا الآن!!

وجدتهُ يخُط السّطر الأخير في كتاب بدأته أنا وينهي كل الأشياء ولا يدع مجالاً لأية ذكرى قد تطوف يومًا في سماء حنين وحرمان. وجدته ينثر رماد الأمنيّات الأخيرة على ما تبقى من أيّام.

تابعَ، وقد بدأتْ نبرتهُ الدّافئة تفصحُ قهرًا عن الألم بداخله:

- أهناكَ شخصٌ آخر؟؟

أخذتُ أنظرُ في عينيه العربيّة، وأضيعُ أنا الأخرى من استجوابه القهري. لم تسعفني كلمات الدّنيا، انقرضتْ حروف اللغة ولم يبقَ سوى الصّمتُ على شفة الميزان!

فأعاد السؤال مرّة أخرى ولكن تلك المرّة بصوتٍ متلاشٍ:

- قولي بربّك رنا، أهناكَ شخصٌ آخر؟؟؟

كانت تلك الفترة الأطول التي أقضيها في عينيه، وما بين النّظر الثّاقب ودمع يتوقُ لمعانقة الخدّين، أجبتهُ أخيرًا:

- لاً، ولكن ربّما في القريب أو في البعيد. لا أدري!!

فاجابني معلنًا انهزامًا آخر:

- كعادتك، إجاباتكِ التي لا تُسمن ولا تغني من جوع!

أجبته:

- لا يوجد شخصٌ آخر، لكنّه بالطبع موجود، يسرحُ في هذه الدّنيا ويجوب، قد يكونُ قريبًا منّي أو بعيدًا، قد نكون قد التقينا مسبقًا أو لم

نلتقِ بعد!
فأضاءت وجهه ابتسامةٌ لم أفهمها، قال:
- لا أدري إن كان محظوظًا هذا الذي تنتظرين، ولكنّي أعلمُ بأنّي سأحسده، بل إنّي أحسدهُ بالفعل منذ الآن!
صحتُ به:
- علامَ تحسدهُ؟؟ أنتَ أعظم وأكرم منه.
أجابني هازئًا:
- وكيف تعرفين هذا وأنتِ لم تلتقي به بعد؟
أجبته واثقة:
- أنا لا أعرف، أنا على يقين.
أجاب وهو يهمُّ بالنّهوض:
- سأظلُ أعجبُ من أمركِ إلى يوم الدّين!
صافحني وهو يلفظُ السّطر الأخير:
- "عسى يحفظج ربّي.. يا غالية."
وهكذا انتهينا وانتهى العشقُ منّا، أجهشتُ في بكاءٍ مدوٍ، وسط قهريّة الموقف وحماقة النّهايات! رأيتهُ يبتعد عنّي ويبتعد عنّي بدورهِ آخرَ سلام.

***

"أنا ونايف لن نكون، تركته، نقطة انتهينا"
كان هذا هو نص الرّسالة التي أرسلتها إلى أمّي وجدّتي يوم تحررَ نايف

منّي، وفي اللحظة الأخيرة ولا أدري ما السبب، أرسلتها لأدهم أيضًا.
لم يتوقّف هاتفي عن الرّنين، سواء من أمّي أو من الجدّة، لم أجبهم، كنتُ غارقة في حزني، ووحدها رسالة أدهم هي من استفزّتني:
"أخيرًا"
اتّصلتُ به فورًا، ولم يجبني فعاودتُ الاتّصال به مرارًا وتكرارًا دون فائدة!
ركبتُ سيّارتي وأدرتُ مشغّل الأغاني عاليًّا، خلعتُ الخاتم ووضعته جانبًا، وبدأتُ أوائل النّواح، بكيتُ كما لم أبكِ من قبل وبعد انقضاء ساعة تقريبًا وجدتُ أدهم يتّصل بي، صرخت به:
- لمَ لا تجيب على هاتفك يا أدهم؟
كانت تلك المرّة الاولى التي ألفظُ فيها اسمه، شعرتُ بمرارتها في فؤادي، أجابني قائلاً:
- أينَ أنتِ الآن؟
- ميدان لبنان.
- سأكون عندك بعد ساعة ونصف الساعة!!
أجبته متعجّبة:
- أأنتَ بالقاهرة؟
- على طريق الإسكندرية القاهرة.
ذُهلتُ لسرعة استجابتهِ لنداء الإغاثة الذي لم أُعلن، وحين وصلَ، رأيتُ ملامحه ملائمة لوضعي الانهياري، فتح باب سيّارتي من جهتي، قال:

- سأتولى القيّادة.

هممتُ بالخروج وإذا به يخطفني بين ذراعيه، لبرهةٍ لم يتحرّك لي ساكن، ولدى عودتي على أرض الواقع، حاربتُ ذراعيه، لكنّه أطبقهما خلف ظهري بقوّة وهمس:

"خلّيكي كمان شوية"

شعرتني سمكة تنتفض من بين ذراعيه، وحين قالها بأسلوبه الأبوي ذاك، توقّفتُ عن مقاومته، واطمأنَ جسدي، ووجدتني لا حسّيًّا أضعُ يدًا على منتصف ظهره كي أغرق في ذلك الحنان اللحظي وارتوي منه لعلّني أتذكّر طيف والدي.

جلستُ إلى جواره، سألني:

- كيفَ أنتِ الآن؟

أجبته ودون النّظر إليه:

- بخير.. جدًّا.

كنتُ أبعدُ ما يكون عن كلمة "بخير"، كنتُ مفصولة مؤقتًا عن الدّنيا!

لم نتحدّث بعد ذلك إلى أن وصلنا إلى المنزل، وجدتُ جدّتي في انتظاري عند باب الشقة وبيدها اليمنى عكّازها الذي قلّما تستخدمه، أجهدتُها يومها لدرجة أن خذلتها قدماها، وقفتُ أُطالعها وأنتظر منها أن تنهرني، لكنّها اقتربتْ مني ووضعت يدها الأخرى على كتفي وقالت بصوتٍ خافت:

"خشّي يا بنتي"

وحين دخلتْ قالت معاتبة:

- أرأفتِ به؟

لقد كانت تعلم إذن!! شعرَتْ بي وبقلبي لذلك طلَبتْ منّي نهاية رؤوفةً به! انضمَّ إلينا أدهم وكان قد أنهى لتوّه محادثة أمّي هاتفيًّا وقام بطمئنتها، لم تطلب منه محادثتي فعلمتُ أنّها مستاءةٌ منّي. تناولنا عشاءً سريعًا وحينما همَّ أدهم بالرّحيل، طلبتُ منه قضاء الليلة معنا لتأخّر الوقت، لا شكَّ في تفاجئه لطلبي،، قال:

- إن كان هذا حلمًا، فاصفعيني صفعتين!!

أجبته باسمة:

- ليس حلمًا، تأخّر الوقت. أتّود البقاء؟!

صاح بي:

- أأود؟؟ طبعًا أريد هذا، أتمزحين؟

هيأتُ له الأريكة كي ينام عليها، وبعدها ذهبتُ إلى غرفتي، ولكنَّ أمرًا بداخلي دعاني لمراقبته من بعيد، أطفأتُ أنوار غرفتي، وفتحتُ الباب قليلاً لأجده يشاهد التّلفاز وأطفأَ بدوره أنوارَ غرفة الجلوس، وغطّى قدميه بالغطاء الذي وضعتهُ له وهو يدخّن سيجارته المئة، أخذتُ أراقبه لبضعة دقائق وأتخيّل كيف سيبدوأبي لو كان مكانه.

وجدتهُ فجأةً يقول:

"هو انتي مجلكيش نوم انتي كمان؟"

اعتقدته يحادث جدّتي، لكنّني تذكّرتُ لاحقًا أنّها قد نامت مبكرًا، ومن المستحيل أيضًا أن يخاطبني أنا والباب شبه مقفول والأنوار مُطفئة كليًّا!

تابعتُ مراقبته وقد قطعتُ أنفاسي فرأيتهُ ينظر باتّجاه بابي في خبث، فرجعتُ إلى الوراء بحركةٍ سريعة وأنا اسأل نفسي: أرآني؟؟ أرآني؟

"شايفك يا نصّابة!"

فضحكتُ خفيةً من خلف الباب، ووددتُ لو أنضم إليه في سهرةٍ غريبةٍ من الطّراز الأوّل، وكما هو معتاد لم أفعل! فصاح بي من الصالون كالمجنون:

- ألن تسهري معي؟ ولو قليلاً؟

لم أجبه، وبعدها بدقائق، قال:

- أقّلها تمنّي لي ليلةً سعيدة!!؟

لم أجبه كذلك بالرّغم من انحشار "تصبح على خير" بين النّور والكبرياء، اخترتُ الكبرياء ونمتُ بلا أحلام!

***

قاطعتني أمّي لأسابيع شعرتها سنيناً قاحلة، اعتقدتُ أن دعوتي لأدهم بالبقاء عندي ستشفعُ لي عندها، محاولة أخرى ضائعة! لم أكن أخرج سوى من وإلى الجامعة، لربّما كنتُ أعاقب نفسي على هزم نايف، اللهم عوّضه خيرًا أينما كان!

تهيأت ليومٍ جامعيّ جديد، بلا شوق.

أنهيتُ محاضراتي وتوجّهتُ إلى كافيتيريا الجامعة، حيث اتّفقتُ مع هبة أن أقابلها هناك، وقد وعدتها قبيل الإجازة الصّيفيّة بأن أخرج معها، ويعود الفضل لقبلةٍ رأيتها تطبعها على يد والدها! بدا وقتًا مناسبًا لقضاء الدّين! ظللتُ أنتظرها وسط الضّجة الشبابية والقهقهات الجنونيّة والأعين الإباحيّة، وأفكّرُ بنايف وبصوت أمّي الذي أفتقد، كنتُ أنهزم مع كل خاطرة.. إلى أن..

وجدتني أمامَ صدفةٍ هي خيرٌ من ألف حياة!!!

لمحة واحدة فقط، لمحة لا أكثر ولا أقل تجعلني أسعد مخلوقات الله، حتّى وإن سرقتْ بعضًا من كبريائي، حتى وإن كانت بمثابة صفعة على وجهي، لربّما هي أغرب وأجمل صفعة في حياتي، أخذَ قلبي يغنّي:

"أنّه هنا!! معي في الجامعة.. كيف ؟ متى؟"

إنّها ليست مصادفة فقط، إنّه فخ، فخٌ تضعه الأيّام أمامي على أطباقٍ من صدفة. فتى الإسكندرية وحوله الرّفاق يرحّبون به، وعلى شفاهه شبه ابتسامة، لم تكن الأجمل، إلّا أنّها أصابتني في مقتل. نهضتُ مبتعدة عن الطاولة، وتعمّدتُ المرور من أمامه، وكان من الممكن أن أقصد طريقًا مختلفة، أردتهُ أن يهنأ برؤية أجمل الصّدف!

لا أدري إن كان قد لمحني أم لا!!

وحين وصلتُ إلى سيّارتي، قامت هبة بالإتّصال بي،كانت بدورها قد وصلتْ إلى الكافيتيريا. وصولها هو السّبب المشرّف الأوّل الذي

يدعوني للعودة لأراه مجددًا، ولكنّي لم أفعل.

طلبَتْ منّي النّزول، لكنّي لم أفعل، فطلبتْ منّي انتظارها لأنّها تسلّم على بعض زملائها، فانتظرتها في سيّارتي. وبعدها بحوالي ربع ساعة، وجدتُها قادمةً باتّجاهي. تصافحنا وهمّتْ تقبّلني، ثم جاءتها مكالمة هاتفيّة..

"أنا نزلالك بس بسلّم على وحدة صحبتي"

ثمَّ أردفَتْ قائلة:

- إذن أين أنتَ الآن؟

وراحتْ تنظر صوبَ الباب، قالت:

- لقد رأيتك، أنا هنا عند أقصى يمينك، عند السيّارة المرسيدس!

ذُهلتُ من برودها، انتظرتها لمدّة ساعة ونصف الساعة، ولم تأت في الموعد وحين أتتْ، انشغلتْ في مكالمتها الهاتفيّة، ودعتْ أيًّا كان من سيأتي أن يأتي! نظرتُ إليها باستياء ثمَّ إلى ذلك القادم نحونا، ثمَّ عدتُ أنظرُ إليها مجددًا وكم وددتُ لو أخذتُها بين ذراعيَّ وأغرقها بالقبلات حتّى تختنق!

إنّه.. هو.. هو.. فتى الإسكندرية.. اختبأتُ خلف باب السّيارة، صافحها وقال لها:

- كيفَ أنتِ؟

لفظها من بين شفاهه، فأصابني الطرب ودخلتُ في حالة سُكرٍ ذاتي وعربدة لا إراديّة. تبًّا لما حدث حولي من جنون!!

غفرتُ لها بأن أخذها الحديث معه ونسيتني، لكنّه وأثناء محادثته لها نظرَ إليّ لثانيّة واحدة وعاد ينظرُ إليها، ثمَّ عاد ينظر إليّ بسرعة وفي لمحةٍ مباغتة، وسرعان ما عاد ينظر إليها مجددًا. رنَّ هاتفي، لم ألتفت إليه، تركته يحرق جيبَ معطفي، إلى أن التفتَ كلاهما لوجودي.

صاحت هبة:

– كم أنا آسفة! نسيتكِ تمامًا، سامحيني!

لم أجبها إذ أخرستني عيناه المحدّقة بي، ووجهه اللامبالي، قالت:

– أُعرّفكِ بأيمن، زميلنا في كلّية إعلام.

ثمَّ وجّهت حديثها إليه:

– رنا، زميلتي في الدّفعة.. لبنانيّة!

قلتُ:

– أهلين.

لم يجبني، لم ينطق بكلمة، ولم يبتسم حتى، ظلّ يحدّق بي لا حميميًّا مشهرًا في وجهي صقيعَ صمته، فكان لا بدَّ لي من الانسحاب:

– هبة، يجب عليّ أن أعود إلى المنزل الآن، تأّخّر الوقت. سلام!

سمعتها تردُّ السّلام، وظلَّ هو جامدًا لم يرد السلام حتى.

قدتُ سيّارتي بسرعة البرق، وكأنّني أهربُ من عينيه، مشاعر شتى انتابتني، السعادة بهنائها والغضب بحرائقه. ولكن لم الغضب ولم السعادة من الأساس ومعرفتي به لم تتجاوز بضع نبضات؟؟

لِمَ حقَّ له دون سواه أن يشرخ أوائل جدران كبريائي؟

عُدتُ إلى المنزل أجوبه على ضيقه، لم تكن جدّتي موجودة، ألصَقتْ لي ملحوظةً على الحائط تخبرني فيها بأنّها عند السّت. لم تذهب جدّتي إلى هناك لأسبابٍ إمعيّة، بل لأنّها تحب الرجوع إلى الزّمن الذي يذكّرها بأمّها وجدّتها اللّتين كانتا تصطحبانها إلى هناك.

انقضتْ أيّـام، وجدّتني أتحوّل لستين طيفٍ وطيف، وأتّحد مع التّعرجات الأجمل للحياة، لبرهةٍ أحببتُ كل شيء من حولي بالرّغم من أي انتهاكاتٍ قلبيّة تعرّضتُ لها!

نسيتُ الكونَ والأحلام، لم يشغلني سوى فتى الإسكندرية.. . أيمن هذا، أفكّرُ به حدَّ الجنون وألعنه بعد ذلك ألف مرّة.

من المدهش حقًّا أن أراه في الجامعة!!

***

فوجئتُ بأمّي تتصل بي بعد قطيعةٍ دامتْ لعدّة أسابيع عِجاف، وتطلب منّي وبقوّة أن أنتقل للعيش معها في الإسكندرية وبالرّغم من حميميّة الطلب، إلّا أنّي رفضتُ ذلك وبشدّة، سألتني عن السبب، فانهلتُ عليها بالأسباب:

- اعتدتُ القاهرة وضوضاءها القاهريّة، وكما تعلمين فجدّتي ستظلُّ بمفردها وأنا لن أقبل بهذا، كما أن صحتها لن تسمح لها أن تزورنا كل حين!

وتابعتُ قائلة:

- ولا تنسي دراستي الجامعيّة، بقيّ عامان ونصف العام بالإضافة إلى

الدراسات العليا، كما أنّي لا أتقبّل فعليًّا فكرة التّعايش مع أدهم!
تنبّهتُ لفظاظة السبب الأخير، فقلتُ لها بسرعة:
- لم أعتد عليه بعد.
صمتْتُ لبرهةٍ في محاولةٍ للبحث عن المزيد من الأسباب، فَلاحَ في أفقي طيفٌ من أطياف فتى الإسكندرية أيمن، وكأنّي أودُّ البقاء في القاهرة أيضًا لاكتشافه!
قطعتْ أمّي تورّدات أفكاري قائلة:
"أتبحثين عن أيّ أسباب أخرى؟
أجبتها بحسم:
- لا، فهذه أسبابٌ كافيّة. أمّي، ظننتنا انتهينا من هذا الموضوع!!!
صاحت بي قائلة:
- لا، لم ننته منه. ظننتكِ تعقّلتِ، لكنّك أثبتتِ أنّكِ لا تزالين طفلة مدللة.
وتابعتْ بنبرةٍ أعلى:
- لقد وضعتني في موقفٍ حرج مع سعاد ونايف، أتدرينَ أن أمّه وبّختني؟؟ وما أدراكِ ما توبيخة الكويتيات!!
صُعقتُ لما قالته، لم أكن أعلم هذا، أجبتُ:
- عنجد؟ ماذا قالت لك الست سعاد؟ كنت أشعر أنّها أم أربعة وأربعين.
فعادتْ تصيحُ بي قائلة:
- أريتِ كيف أنّكِ طفلة مدللة، ينقصها الحياء أيضًا؟

لم أجد كلامًا يقال، إذ شعرته تصريحًا قاسيًا وتأنيبًا موجعًا، وفي كلتا الحالتين، كنتُ أستحقّه، وأستحق أكثر من هذا. وما جزاء الإساءة إلّا الإساءة؟ أسأتُ إلى نايف وإلى قلبه، ووجبَ أن أُحاكم، ولكن ما لم أقدر على استيعابه، هو أن تتم محاكمتي عن طريق أمّي، أمّي التي لم تفهم يومًا تمرّدي الثائر الأعمى والذي لم يكن سوى نتيجة للشعور بالفقد والحنين تجاهها، اعتنقتُ الصمت، أصواتها الغاضبة تتعالى في أذني:

– لقد كان هذا من أكثر المواقف المحرجة التي تعرّضتُ لها في حياتي، وضعتني في أسوأ المواقف، ولا زلتُ حتى الآن لا أدري ما سبب انفصالك المفاجئ عنه، الرجل طيب ومن أسرة طيبة، وأنتِ من أصرّ عليه منذ البداية بعنادٍ عجيب وكأنّكِ عانس أو عاشقة. أأحببته؟

–. . . . .

– هيّا أجيبي لن يفيد صمتكِ الآن!!

–. . . . .

– موقفي وأنا أُعيدُ له الهدايا التي رفضَ رفضًا قاطعًا استرجاعها لولا إصراري كان مخزيًا، حاولتُ أن أفهم منه الذي حدث بينكما لكنّه لم يكن سوى النّبيل الأخرس، أتدرين ما الذي قاله فقط لي؟

شعرتها ستقتلني بما ستقوله على لسانه، لم أنبس بكلمة، بل كنت أنتظر أن تزيد من تضييق حبال الذنب على رقبتي، قالت:

– قال بأنّكِ ستظلّين زهرةَ عمره إلى أن يموت!!!

وأنهتْ المكالمة.

كنتُ أبكي كطفلة سرقوا منها طفولتها وألعابها وأحلامها، شعرتُ بجدّتي تنتشلني من الدموع بأحضانها الطاهرة، وتقرأ سورة الإخلاص والفلق والناس، وتكررها عشرات المرّات وهي تمرر يدها على رأسي وصدري، إلى أن هدأتُ تمامًا، رفعتُ وجهي المتعب إليها، فقالت وهي تمسح دموعي:

- أتريدينني أن أموت؟ دموعكِ هذه تقتلني وتزهق روحي ببطءٍ شديد!!

فحضتنتها بقوّة، حتى قالت:

- "بشويش يا بنتي.. العظم علقد!!"

-" ما أنا موكوسة يا مديحة."

ضحكنا سويّة، فصمتُّ قليلاً، وقلت لها بأسف:

- لم أقصد قتل نايف يا جدّتي، والله لم أشأ أن أظلمه!!

قالت باسمة:

- والله أدري هذا!

وأردفتْ قائلة:

- لله حكمة في كل شيء وهو علّام الغيوب، "وأنتي متعرفيش الخير ليكي أو ليه فين"، لا تورّطي نفسك أبدًا مع قلبٍ لن يسعكِ الحبُّ فيه، أمّا بالنسبة لنايف فالوقتُ سيشفيه كما سيشفيك، وناهد فدعي أمرها لي ولا تقلقي.

ثمَّ قالت وهي تستعد للخروج من الغرفة، لإعداد الحليب بالبابونج لي كعادتي حين أبكي:
- "نصيبك هيجيلك لحد عندك، حتو لو استخبيتي بين أربع حيطان، ممكن دلوقتي.. بكرة، بعد شهر.. بعد سنة.. مش مهم بنوتتنا قمر وأخلاقها عالية، ومين عارف النّصيب فين وجاي امتى؟ "
ورنَّ هاتفي، هبة تتّصل بك.
ارتجف قلبي، وشعرتُ بأن الأقدار على وشك أن تدعوني لجنونٍ ما:
- آلو.
- أهلاً يا رنا، كيف أنتِ؟
- بخير، والحمدلله. وأنتِ؟
- الحمدلله. أأنتِ مشغولة؟
- لا، ليس حقًّا!!
- إذن تعالي وانضمّي إلينا نحن في المقهى المعتاد مع الشلّة!
- صدقًا، لا أدري.
- يا الله!! ما بكِ يا فتاة؟ هيّا تعالي، زملاؤنا سينضمّون إلينا، كذلك بعض الرّفاق من كلّية إعلام.
حينَ لَفَظتْ "كلّية إعلام "أصابني خدرُ الحواس، واضطرب اتّزاني
-.. .. ..!! !
- أتذكرين ذاك الشاب الذي الذي مرَّ بنا منذ أسبوعين قرب سيّارتك؟

شعرتُ بنبضات قلبي تتسارع وترجُ جسدي بأكمله، ارتعشتْ يدي الممسكة بالهاتف، وتثلّجتْ قدماي، شعرتها تنوي إعدامي، أجبتها:

- لا أظن!!

- "يا بنتي أيمن كلّية إعلام.. الواد الحليوة الطويل ده؟؟ "

- " ما بتذكّر. "

- لا يهم. سينضم إلينا. أتأتين؟

- سأحاول، يجب أن أنهي المكالمة الآن. سأحادثك فيما بعد!!

هرعتُ إلى خزانتي.. .. ..

تهيأتُ لذلك اليوم بكامل العشقأأصبحتْ كل الأشياء حولي أجمل وأروع، وحتى انعكاسي في المرآة، بدا أشهى من ذي قبل، وكأن القادم هو العيد بعظمة ألوانه وسعادة طقوسه.

لم أدرِ لمَ كلّ هذا الجنون، فأنا لم أرهُ سوى مرتين حتى إنّي لم أعلم أصله من فصله، لونه المفضل، لمن يسمع، لمن يقرأ، أو كيف هو صوته على الهاتف. مجهول أنيق يقتحم حياتي، يثلّجها ولا يرحل كشتاءٍ سيظلُّ طوال العام، كشتاءٍ يطغى على باقي الفصول مُعلنًا أحقّيته في البقاء، ففي الشتاء كبرياء وغموض يختلف عن باقي الفصول!

ارتدتني ملابسي بفرحة، وتعطّرتْ بي عطوري وتزيّنتْ بي كل الزّين، بدوت جميلةً للغاية ذلك اليوم.

قالوا: نبدو أجمل حين نحب. هل قلتُ نحب؟ فقدتُ عقلي بلا شك!!

حلّقتُ بسيارتي إلى حيث المقهى المتّفق عليه، مقهى بسيط يجمع جميع أسراب البشر؛ الغجر، أصحاب الضحكات العالية، باحثي الكيف، المجانين، مدمني القهوة، وغرباء الدار الباحثين عن اللاشيء!!
لا أدري لأي سربٍ أنتمي، لربّما لي تصنيف خاص، مجنونة عابرة، تأتي لتراه.. فتسعد، ثمَّ ترحل؟؟
جلستُ حيث الرّفاق، وتحديدًا بالقرب من هبة وبعض الزّميلات اللاتي أعرفهنّ، وباقي الزملاء لم أعرف معظمهم، فعرّفتني هبة بهم فردًا فردًا، والحقُّ أنّي لم أسمع حرفًا مما تقول فالاسمُ "أيمن "يرجُ ذاكرتي ويمنعها من تمييز الأشياء. ظللتُ أنتظر قدومه وأحدّقُ بالباب باستمرار، وبالوجوه الدّاخلة والخارجة.. والباردة! علمتُ بأنّه اكتساحٌ لسكينتي، ومع ذلك كنتُ أكثر من مرحّبة!
الرفاق يتحدّثون ولا أسمع من حديثهم حرفًا، مضتْ ساعة على تلك الحال، لم أستطع أن أسأل عنه، ظللتُ أشتعل صمتًا وانتظارًا، وبدأ الشوق يخبو، مرّت نصف ساعة أخرى، عندها تناول الرّفاق الغداء، واكتفيتُ أنا بالتّحديق في كوب العصير النّصف ممتلئ.
سمعتُ أحدهم يقول:
- ألن يأتي أيمن فريد؟
لم أكن واثقة إن كان أيمن فريد هذا هو ذاته أيمن الإسكندرية أم لا، فأخذتُ أنظرُ إلى كل الجالسين معنا لعلَّ أحدهم يجيب عن سؤاله أو

بالأحرى عن سؤالي، "أسيأتي رجل الثلج أم لا؟ بربّكم أجيبوا!! "
لكنّ أحدًا لم يُجب وكأن الطعام سيطير من أمامهم إن أجابوا!!!
أيمن فريد.. .
أخذتُ أتمتم اسمه في سرّي، فشعرتُ وبقوّة أنّه اسمه، أيمن فريد.
نظرتُ في ساعتي، ساعتان تذهبان سدىً، قررتُ الانسحاب فانسحبتُ أجرُّ ذيول الانهزام! عجِبتْ لأمري هبة والزّملاء وكيف أنّي لم أنبس بكلمة طوال مدّة بقائي، ودّعتهم سريعًا دون أن أتذكّر اسم أحدٌ منهم.
ولدى خروجي، صادفني شاب كان قد وصلَ للتّوه، بدا أنّه يعرفني إذ قال:

– يا إلهي! أستعودون أدراجكم؟

أجبته وكأنّي أعرفه:

– لا.. لا.. لا يزال الوقت باكرًا، أنا فقط سأذهب.

قال مستاءً:

– لمَ هذا؟

– مشغولة بعض الشيء.

– حسنًا.. مرّة أخرى إن شاء الله.. "سؤال بس. "

– اسأل..

– أتذكرين اسمي أم نسيتِه مجددًا؟؟

فابتسمتُ له آسفة وأومأتُ برأسي نفيًا، فقال ضاحكًا:

– اسمي أيمن محمود "تالتة أداب "

لم أشعر بشيء ممّا يدور حولي سوى باسمه الأجمل.. اسمه كاسم..
ابتسمتُ له من كل قلبي، ومددتُ يدي أصافحهُ بحرارة، قلتُ:
- لن أنسى هذا الاسم ما حييت!!!
كانت هذه الجملة الأكثر اتّقادًا ذلك المساء، لا أزال أذكرُ اندهاشه من رد فعلي، وكيف تفاجأ ليقظتي المفاجئة.
عادَ للرفاق، فصحتُ له من بعيد:
- رافقتك السلامة أيمن!!
فالتفتَ إليّ وقد تيقّن بأنّي "مجنونة رسمي "ولربّما دعا لي بالشفاء!!
شعرتُ بحاجةٍ مُلحّةٍ للفظ الاسم "أيمن "تلك الأمسيّة، وكأنّها ستغني عن عدم حضوره. وكأنّها ستطفئ حرائقي العاطفيّة جرّاءَ انتظارٍ ضائع وشوقٍ مهدور!
عدتُ إلى المنزل.
نظرتُ صدفةً لانعكاسي المُيتّم.. انطفأ الجمال الخارق وأصبحَتْ ملامحي حدادًا واضحًا، خلعتني ملابسي، وتجرّدتْ منّي عطوري وانسحبتْ منّي كلّ الزّينة، فاحتلتني الفصول الثّلاث التي لا أحب، الرّبيع بهدوئه العقيم، والصّيف بحرائقه، والخريف بأشواقه المتساقطة!

❊❊❊

عادتْ الأيّام لمرارتها الأولى.
سمحتُ للتّفكير أن يرهنَ وجودي عنده، وكان الحصادُ عهدًا اتّخذتهُ

على نفسي، أو ثلاثة عهود بمعنى أصح.
أوّلها- ألّا أنصاعَ دومًا لجنوني فقد يُهان كبريائي.
وثانيها- ألّا أكون الفتاة المُنتظِرة بل المُنتظَرة.
وثالثها- أن أدع الحياة وحدها تفاجئني دون أن أتهيأ لشيء.
فما أجملها تلك المفاجآت التي تأتي إلينا محمّلةً بالعنصر:
"آه.. لم أكن لأتوقّع هذا أبدًا!!"
((عندما نراجع حياتنا نجد أن أجمل ما حدث لنا كان مصادفة، وأنَّ الخيبات الكبرى تأتي دومًا على سجاد فاخر فرشناه لاستقبال السعادة))[1]
وضعتُ هذه الجملة/ الحكمة في منشورٍ على الفيس بوك خاصّتي ذات يوم، وتوجّهتُ إلى المكتبة المجاورة للجامعة في محاولة منّي لإنفاق الوقت فيما يحبّه قلبي ويرضاه، إذ سمعتُ أن مستغانمي قد أصدرتْ مصيبة أدبيّة جديدة بعنوان "الأسود يليقُ بكِ". عنوان الرّواية جعلني أتلهّف لجرعةٍ "مستغانميّة". لديها أسلوب رائع في جعل مصيبة العشاق مصيبتي، وقضية الأدب قضيتي.
أرفف كاملة تحملُ اسمها فيخشع قلبي وتتلّهف أناملي لمعانقة الأغلفة.
لمحتُ أحدهم يقفُ إلى جواري ويتفحّصني كليًّا، لم أنظر إليه، فعقلي كلّه أحلام:
"الإعجاب هو التوأم الوسيم للحب."

(١) أحلام مستغانمي

هكذا بدأتْ أحلام روايتها، فعلمتُ بأنَّ قبري الأجمل بين يدي! ووسطَ صراعاتي، قال ذلك الواقف إلى جواري:

- أنصحكِ بقراءة "عابر سرير."

وكأنّي لم أقرأها بعد! إنّها إحدى ثلاثيتها الشهيرة. لم أنظر إليه!! أضاف:

- أو اقرأي "الكتابة في لحظة عُري."

تنبّهتُ لخياراته الفاضحة؛ "سرير" و"عُري"، فأشعلتُ فيه صمتي، ولكنّي أخذتُ أفكّر في شراء اقتراحه الأخير، بقي واقفًا لعدّة دقائق، ثمَّ أخذَ نسخة من نفس الرواية التي أقرؤها وانصرف. نظرتُ إليه من خلفه، وسرعانَ ما ضعتُ في القراءة! وحينَ توجّهتُ إلى البائع وجدتُ ذات الشاب واقفًا عندهُ يحادثه، بدتْ ملامح البائع سعيدةً بوجوده وجدُّ مرحّبة، وبعد أن طال انتظاري، تزحزحتُ قليلاً إلى اليسار كي يلحظني البائع وقلت:

- "لو سمحت صارلي ساعة واقفي، دخيلك بدي فِل وبعدين خلّص حكي مع رفيقك أو اصطِفل"

أجابني البائع:

- "قوي قوي يا فندم، آسفين حضرتك"

وإذا بالشاب الواقف يقول:

- استثنني من الأسف، لم أرها تقفُ خلفي حتى أعتذر لها!!

ذُهلتُ من هذه الوقاحة، ووددتُ لو أضربه على رأسه من الخلف بكفّ يدي، ولكنّني آثرتُ ألّا أُعلّق على ما قاله، أفسحَ لي طريقًا ووضع كتابه على طاولة المحاسب وأخذَ يتصفّحهُ، رأيتُ ذلك من طرف عيني وأنا واقفة إلى جواره. أعطيتُ البائع ورقة نقديّة فئة ٥٠٠ جنيه فطلبَ منّي الانتظار حتى يأتي لي بالباقي وهرعَ مسرعًا إلى الخارج.

كان الصمتُ موحشًا، فأخذتُ أحدّقُ في غلاف الرواية وتصميمها الذي أعجبني، وأقرأ الإهداء، وإذا بالواقف بقربي يقول:

- "الإعجاب هو التوأم الوسيم للحب."

بدأ بقراءة الرواية وكأنّه يقرؤها لي، أضاف:

- ما رأيكِ بهذه الجملة؟ أهذا صحيح؟؟

في البداية أردتُ وبشدّة ألّا أُجيب عليه، ولكن حين استعان بأحلام كي ينحر صمتي، أجبتْ:

- هذا صحيح جدًّا، ولكن هذا لا يعني أن الحب هو التوأم القبيح له، لربّما هو التوأم المشاكس للإعجاب فهو وقوع "الراس "في "الفاس".

-" أخيراً قفشتك!!! "

فالتفتُّ إليه لأجد أجمل الابتلاءات أمامي وصدفةٍ تجمعنا للمرّة الرّابعة على التّوالي! توقّعته سيبتسم أو أقّلها سيرحب بي، لكنّه لم ينطق بحرف ولم يسعد لالتفاتي إليه أخيرًا، وكأنّه ينتقم منّي لتجاهلي إيّاه في البداية، لكنَّ صوته بدا سعيدًا حين قال "أخيرًا قفشتك ".

تبًّا له ولمعادلاته الصعبة! أومأ لي برأسه وانصرف!!!!
صدفي معه، أحبّها في بدايتها وأمقتها في نهايتها أو ما قبل نهايتها بقليل.
ثمَّ أعود أشتاق له من جديد، ولصدفهِ الغريبة.
خرجتُ من المكتبة وقد نسيت (أين وضعني الله) وأخذتُ أبحث عن سيّارتي وسط السيّارات، وإذا بالبائع يركض خلفي، قائلاً:
- "الفلوس يا فندم"
نسيتُ أمر البائع والنّقود والرواية.
وجدتُ السيّارة أخيرًا، ووجدتُ ورقة صغيرة موضوعةً خلف ماسح الزجاج الأمامي. فتحتها لأجد فيها:
- "جميلٌ ما قلتِ، لكنّني أخالفكِ الرأي!"
طويتُ الورقة سريعًا، وأخذتُ أبحث عنه يمنةً ويسرة كي يوضّح لي كيف له أن يخالفني الرأي دون أن يعطني حق المواجهة وحق الرّد!!
قدأعلن النّزال بيننا تاركًا وراءه وابلاً من علامات التّعجب!!!!!!!!!!!!!!
كنتُ أستشيطُ غضبًا وفرحًا وشوقًا، وأدعو الأيّام أن تكون رؤوفةً بي وبقلبي. اجتاحني كما يجتاح المحتل جنّةً لم تكن له. عدتُ إلى المنزل مذهولةً من تلك الدقائق الخاطفة وأنا لا أصّدق ماجرى حقًّا، وعلى عكس ما هو متوقّع، وجدتُ أمّي في انتظاري، عوّدتني أن تخبرني مسبقًا قبل زياراتها، فرحتُ لرؤياها كثيرًا، قلتُ مازحة:
- أتيتِ لأسامحك أليس كذلك؟؟ خلص سامحتك.. سامحتك.

ابتسمتْ لي وهي تشيرُ بدلال لخدّها الذي أُحب، قفزتُ إلى أحضانها وأنا أحيطها بذراعيّ، وأخذتُ أقبّلها بقوّة، أمسكتني من يدي وقالت بحنان:

- تعالي لأُريكِ ما الذي جلبته لك!!

أتتْ محمّلةً بالكثير الكثير من الملابس الشتويّة، سألتها:

- لما كل هذه الملابس الشتوية؟ الشتاء ليس قارصًا إلى هذه الدرجة؟؟

قالت:

- ومن قال لكِ أنّها لشتاء هنا؟

- لشتاء أين إذن؟؟

- "لبيروت.. لقلبي سلامٌ لبيروت..

وقُبُلاً للبحر والبيوت.. .. "(١)

قفزتُ من على الأريكة مجددًا باتّجاهها، أحضنها وأقبّلها وهي تضحك قائلة:

- "طب خلّيني أكمل الأغنيّة والنّبي صوتي حلو "

آه من كلمات جوزيف عطية وصوت الفيروز!!

سألتها فجأة:

- أسيأتي أدهم معنا؟

أجابت بنبرةٍ معاتبة:

- لا، لن يأتي!!

فاستراحَ فؤادي، فأنا الأحقُّ بها.

(١) من أغنية "لبيروت" للسيدة فيروز

أخذتُ أتفرّج على الملابس التي ابتاعتها لي، معاطف شتويّة فاخرة، فراء، وأشياء جميلة ستناسب ثلوج لبنان!

وإذا بها تقول:

- "يلا"

انطفأتْ فرحتي وقلت لها:

- لا يزال الوقتُ باكرًا على رحيلك! ابقي قليلاً.

قالت باسمة:

- لن أذهب إلى أي مكان، اذهبي وهاتي حقائب السفر، ستغادر الطيارة بعد بضع ساعات!!

فعُدتُ أقفزُ مجددًا أمامها، توقّفتُ قليلاً ثمَّ صحت:

- وجدّتي؟؟ لن أستطيع تركها بمفردها.

سمعتُ صوتها من غرفةٍ مجاورة:

- "أنا مش عارفة عايزين تاخدوني معاكو ليه في الجو الساقعة البرد ده؟؟ "

انقضت عدّة ثوان صامتة قبل أن أعود لقفزي إيّاه!!!

* * *

جاءتني رحلة بيروت تلك من السماء، شعرته وقتًا مناسبًا لكي أُفرِغَ عقلي من شيءٍ اسمه أيمن ومّما أحدثه في كبريائي وغروري. أخذتُ أجوب لبنان شبرًا شبرًا، أردتُ أن أنسى بدايةً لم أدخلها، لكن النسيم أعادني إليه، كيف لظلاله أن تلاحقني في أرضٍ لم يطأها غروره؟؟.

أردتُ خلعه من ذاكرتي، ولكن..
ظلّتْ الأشواق تحملني إليه والأحلام تزفّني لعينيه الثّلجية، فأعود أبتسم في ارتباكٍ مُعلنةً الانهزام.
الانهزام.. . كلمة لم أُضفها يومًا لقاموس حياتي، فكيفَ لها أن تخرق حواجزي الأنثويّة دون حتى أن نكتب اتّفاقًا أوّقّعُ فيه شروطي ويوّقّع فيه شروطه؟ دون حتى أن نتشارك في رهان بيننا نتّفقُ فيه على مخاسر ومكاسب كلّ منّا؟
وفي لحظة عابرة، شعرتُ برغبةٍ في معانقة الثلج، كي أذكر برودةَ عينيه، ارتديتُ معطفًا أزرق مع شالٍ أنيق وكوفيّة رماديّة، لم أتزيّن فالكلُّ جميلٌ في الثلج!!! أحبُّ كيف تأتي حمرة الخدود تلقائيًّا، وكيف تكون الألوان زاهيّة ودقيقة في هذا الفصل بالذّات، وكيف تصبح الرؤية واضحة جدًّا، وكأن الحياة قد أصبحتْ بتقنية HD.
ليتَ عينيه كانتا بهذا الوضوح والعفويّة، ملأتُ قبضة يدي بالثلج، أخذتُ أراقبه وهو يثلّج أناملي، ويذوب في يدي بانهزام إلى أن يعودَ خلقَهُ الأوّل، أخذتُ أتمتم:
- ليتَ عينيه تذوبان في حضرتي كما يذوب هذا الثلج بين أصابعي!
عدتُ إلى شقّتنا الصغيرة، حيث أمّي وجدّتي وقد أعدّتا لي صياديّة السمك التي أحب. قالت أمّي:
- أنا جدُّ سعيدة لوجودنا مع بعضنا هذا الأسبوع.

– وأنا كذلك، غاليتي.

قالت:

– لا أدري لِمَ لمْ نفعلها حتى الآن.

فأجبتها بنبرةٍ ساخرة:

– قد شغلَ أدهم جميع دقائق حياتك.

أجابت بغضب:

– أدهم.. أدهم.. أدهم.. لِمَ أنتِ ظالمة هكذا؟

تابعت غضبها قائلة:

– إن أدهم الذي تكرهين هو من طرح فكرة سفرنا إلى هنا، وهو من تكفّل بحجز التّذاكر ودفع قيمتها، ولقد طلب منّي أن نقيمَ في فندقٍ فخم خلال أسبوعنا هنا، ولكنّي أخبرته أن هذه الشقة موجودة.

أضافت:

– إن أعطيتهِ فرصة، ستحبّينهُ كما أحبّه أنا وأكثر.

بدتْ واثقة وهي تقول هذا، هي ومع كل أسف تعتقد أن كل ما أعنيه هو عقدة زوج أم، لكنّها لم تدري أن ما أعانيه هو أزمة فراغ أمومي، واشتياقٌ لظلالها، وحنان يديها، وسلام أنفاسها.

– لطفًا من غريب الدار أن يقترح عليكِ وجودنا هنا، ولطفًا منكِ تنفيذ اقتراحه.

دخلتُ غرفتي، لم أبكِ، فالدموع دائمًا تصبح كقلّتها!!

وبعدها بلحظات، وكما توقّعت لحقتني الجدّة، قالت:

- يا ابنتي، كفاكِ شقاء. لن أتواجد معك دومًا كي ترعاكِ كلماتي، ويدي هذه.
ورفعتْ يدها اليمنى، وقالت:
"إيدي دي مش هتبقالك على طول تقرا عليكي وتخفف عنك "
قالت كلماتها تلك وقد نهشتْ قلبي، فمن عادتها دومًا أن تُهدّئ من روعي بأطيب الكلمات، نهضتُ إليها وأخذتُ يديها إلى قلبي:
- أطالَ الله عمرك وعمر يديك، لمَ كل هذا الكلام؟
- اسعدي يا ملاك، اسعدي فالعمر يومان.. أو أقل!! ماما بتحبّك.. وده الأهم.
همستُ خلفها مرددة:
- تحبّني.. نعم!
قاطعتْ بعثرتي قائلة:
- اقرأتي الرواية أم لا؟
صحتُ:
- آخ.. الرواية.. نسيتها تمامًا.
أجابت بحنان:
- هيا اقرأيها حتى أقرأها من بعدكِ ولا تغضب علينا ابنة مستغانمي!!
استطاعت أن تسحب منّي ضحكاتي وسط آلامي.
وجدتُ في قراءة الرواية منفذًا جميلاً يسرقني من العالم أجمع!
أمسكتُ الرواية، استعنتُ بالله، وبدأتُ اقرأ:
- "الإعجاب هو التوأم الوسيم للحب "

أعادني الكتاب إليه، صحتُ كالمجانين:

"يا ريت الله ما خلقك"

وبينما كنت أتابع جاهدةً القراءة، سمعتُ هاتفي يرن، أمسكتُهُ وأنا آكلُ كعكًا محلّى، رقمًا قاهريًّا يتّصل بي، مرّتْ ثلاثون ثانيّة قبل أن أجيب:

- "مرحبااا"

وإذا بالخط ينقطع، وما هي إلّا ثانيّة واحدة حتى عاد يتصل من جديد، أجبتُ بنبرةٍ غاضبة:

-" مرحبا؟؟ "

- إنّها بالفعل أنتِ.

((عرفتهُ من اللحظة الأولى لكن عقلي أبى أن يصدّق))

- من أنت؟

- أنتِ في بيروت صحيح؟

- أجب عن سؤالي، من أنت؟

- رجل الثلج!!!

شعرتُ بأطرافي تتحلل، كيفَ له أن يعرف أنّي أُطلق عليه هذا اللقب؟؟

وقبل أن أفقد عقلي، قال:

- رأيتُ صوركِ على الفيس بوك وبقربك رجل الثلج!!

حتى صوتهُ على الهاتف قارص! ما قاله كفيلٌ بكسر الثلج بيننا لكنني لم أشعر بودّ مرحبٍ لي، قلت:

– أأنت زميل هبة؟

– ألا تعرفين اسمي؟

– بلى.

– إذن ناديني به.

– كيفَ أنت؟

– ما هو اسمي؟

– أيمن أو غيره!!

فانفجرَ ضاحكًا، فضحكتُ خجلاً على الجهة الأخرى من الهاتف، حتى أفقتُ فجأة، سألته:

– أنّى لك برقمي؟

أجاب بسرعة:

– إن طلبتِ منّي عدم الاتصال بك مجددًا لن أفعل، لكنّهما وشتا بك.

– وشتا؟؟

– عينــاكِ!!!!

جلستُ على الكرسي، في إعياء اللحظة إذ جاءني مخاض الصدمة، قلتُ مستنكرة:

– عيناي وشتا بي؟ لن تفعلا هذا حتى لو سمحتُ لهما بذلك.

أجاب بثقة:

– بل فعلتا، تريدين حربًا وحربكِ عندي. "وإنتي عاملة إيه؟"

جُمل خبريّة وأخرى استفهامية أخذ يحاصرني بها.

"وأنتي عاملة إيه؟ "وكأنّه لم يشعل فتيل حربٍ بيننا بعد، نظرتُ إلى وجهي في المرآة فوجدتهُ يتصبب عرقًا، لديه مقدرة عجيبة على التحكم في درجة حرارة جسدي، أجبته:

- لم تجبني يا شاطر، أنّى لكَ برقمي هذا؟

صَمتَ قليلاً ثم قال:

- يا لكِ من فضولية، سأحادثكِ فيما بعد!!!

وأنهى المكالمة، فألقيتُ الهاتف على الأرض، وتوجّهتُ إلى المدفأة أُلقي الحطب فيها بغضب، إذ عادت برودة لبنان إلى أطرافي، أو تراها برودة أيمن؟!

لم تزعجني نهاية تلك المحادثة، لم أشأ أن أُرخي له الحبل حتى لا ينتهي بي المطاف وهو يلفّه حول قلبي وينتصر!

ولكن...

كم أحببتُ صوته...

***

مضى أسبوع بيروت سريعًا، ووجدتُ أدهم في انتظارنا في مطار االقاهرة، ركضتْ إليه أمّي وأخذته بين أحضانها وهي تصرخ: حبيبي!!! مشهدهما معًا، جدُّ مستفز! وهما يتبادلان أطراف الحب، فسبقتهما إلى السيّارة. جلستُ في الخلف مع جدّتي، توقّعتُ أمّي أن تجلس إلى جوار أدهمها،

لكنّها فاجأتني كلّيًّا حين لم تفعل، جلستْ إلى جواري طوال الرّحلة وهي تمسكُ بيدي حينًا، وتضعُ ذراعها حول كتفي حينًا! لم تتكلّم، ظلّتْ تبتسم لي بحنانٍ كلَّ حين، شعرتها تملؤني بها قبل أن ترجع إلى الإسكندرية برفقة زوجها، فملأتْني بها الضّعفين ونمتُ على فخذيها، فأخذتْ تمسح على جبيني، وتلعب بشعري، وتهمس:

– سامحيني، لم أقصد إيذاءكِ في بيروت.. زعلانة؟؟

فأخذتُ يدها وقبّلتُها بقوّة ولم أنطق بحرف، رحتُ أحدّقُ في ملامحها وأنا مستلقيّة على فخذيها، ذقنها الصغير، شفاهها الشهيّة، أنفها الجميل، وعظمتي خدّيها الرائعتين، إلى عينيها الساحرة، جفونها، رموشها الطويلة شديدة السّواد وشعرها الليلي الطويل، سبحان الله كم أبدعَ في خلقها!

عدتُ إلى المنزل وجدّتي، وأنا خاوية تمامًا من أمّي. وما إن بدلتُ ملابسي حتى أرسلتْ لي رسالةً نصيّة تقول فيها:

– سأشتاقكِ.

فدمعتْ مقلتاي، وما إن شعرتُ بخُطى الجدّة حتى مسحتُ دموعي بحركة سريعة، خشيتُ عليها أن تحزن، قلتُ لها:

– أهلاً وسهلاً.

قالت باسمة:

– "عليّا برضو؟؟"

ضحكتُ باضطراب، أجبتها:

- عمَّ تتحدّثين؟

قالت:

- إن مسحتِ دموع عينيك فباستطاعتي رؤية دموع قلبك!

أجبتها:

- أشتاقها، لا أكثر!!

فابتسمتْ في انهزام، قائلة:

- عسى أن يجمعكما الله جميعًا.

- آمـــين!!

اقتربت منّي وجلستْ إلى جواري، قالت ضاحكة:

- "مفيش جديد يا موكوسة؟؟"

التفتُ إليها في ذات الثّانيّة التي وضعتْ فيها يدها على ظهري، فوجدتها تُرقِصُ حاجبيها لي، وعلى وجهها ابتسامة ماكرة.

أجبتُها باضطرابٍ ملحوظ:

- ماذا تقصدين؟

لم تجبني، بل نهضتْ باتّجاه الباب، قالت:

- فليجعلهُ الله لكِ ومن نصيبك، إن هو يستحقك!!

وخرجتْ من الغرفة، فصحتُ بها ضاحكة:

- عمّن تتحدّثين؟؟

أجابتني قائلة:

- "لما تقوليلي الأوّل هبقى أقولك!!"

فضربتُ كفًّا على كف وأنا أضحكُ من كل قلبي، من بين كل البشر، كانت أوّل من شعرَ بي، فرحتُ أفكّرُ به مجددًا وأدعوهُ ليحتل أوردتي، والفص الأيمن والأيسر من دماغي.

تذكّرتُ أمرًا قالهُ لي في مكالمتنا تلك.

لقد علِمَ بوجودي في بيروت من صور الفيس بوك خاصّتي، على الرّغم من أنّه ليس في قائمة أصدقائي، فأخذتُ اسأل نفسي وأجيبها في آنٍ واحد: "لقد بحث عني في الفيس بوك ليرى أين أرضي، صحيح؟ إذا هو مهتمٌ بسمائي!! لا.. لا.. ولكنّه انزعج منّي في نهاية المكالمة وأنهاها بجفاء، لا بدَّ من أنّه يكرهني لمحادثتي له بتلك الطريقة، ولكنّه كذلك حدّثني ببرودة؟؟ ولكن.. ألم يكن هو من اتّصل بي؟ لا بدَّ من أنّه مهتمٌ بي! مهلاً.. ماذا يقصد ب "حربكِ عندي؟ ".. لقد أعلن الحرب.. حريٌّ بي أن أستعد!! "

نهضتُ بسرعة عن السرير، لأفتح جهاز الحاسوب كي أتصفّح هذا الأيمن قبل أن أنام، دخلتُ على حسابي على الفيس بوك لأبحثَ عنه، فكتبتُ في خانة البحث: "أيمن فريد "، فوجدتُ العشرات ممّن يحملون هذا الاسم، أخذتُ أبحث مطوّلاً إلى أن لعنت الفيس بوك ومن اخترعه. رحتُ أقرضُ أصابعي وأنا أخبطُ بقدمي على الأرض كلَّ

حين! إلى أن تذكّرتُ أنّه من الممكن أن يكون في قائمة أصدقاء هبة، وبالفعل وجدتهُ عندها، شعورٌ غريب داهمني لدى ظهور اسمه أمامي وصورته القاتلة تلك، شعرته ينظر إليّ ويخترق قلبي مباشرة، شعرتُ برهبة غريبة وتوتر ملحوظ إلى أن شعرتُني سأصاب بجلطة أو سكتة ما، أموت على أثرها بعد أن أفقد عقلي.

أنزلتُ شاشة الحاسوب لمجرد أن ظهرَ أمامي فجأة، ورحتُ أسيرُ في أرجاء غرفتي وأنا لا أزالُ أقرضُ أصابعي بغضب، نظرتُ إلى الحاسوب مطوّلاً وكأنّي أنظرُ إلى الشقاء والغضب والجنون عينه، وسرعان ماعدتُ إليه وقد استجمعتُ قواي فجأة، دخلتُ صفحته الخاصة، لم أجد ما يشفي فضولي، فقلّما كتبَ شيئًا على حائطه، وإن فعل فأغلبها منشورات لصفحات أخرى، ولكن صوره كانت كثيرة، كم هو واثق من نفسه! ووجدتُ كذلك أن معظم أصدقائه من الجنس الناعم، توقّعتُ ذلك جدًّا، ومع ذلك وجدتني أنزعج قليلاً ولا أدري ما السبب!

استيقظتُ متأخّرًا في اليوم التالي، وعجبتُ كيف لجدّتي ألّا توقظني كعادتها، ذهبتُ لغرفتها فلم أجدها هناك، وجدتها لاحقًا في غرفة الجلوس نائمة على الكرسي ورأسها مُتكئٌ على يدها. لم أكن لأوقظها لولا شعوري بعدم ارتياحها من تلك الجلسة، فأيقظتها. انتفضَ جسدها وأنا أناديها، فأنّبتُ نفسي، وقلتُ لها:

– سامحيني حبيبتي، انهضي كي تنامي في غرفتك، ستؤلمكِ يداك!

ابتسمتْ لي وقد أومأت لي برأسها، همّت بالنهوض وتوجّهتُ بدوري إلى الحمام، وما هي إلّا ثوان حتى سمعتُ ارتطامًا سريعا، التفتُّ إلى حيث تقف، فوجدتها قد سقطتْ على الأرض، شعرتُ بقلبي يُلفَظ من بين أضلعي، هرعتُ إليها وأنا أناديها، كنتُ أبكي قهرًا وخوفًا، صرختُ باسمها وأنا أُمسِكُ بها، أجابتني باسمة:

- ملاك، لا تخافي أنا بخير، زَلّتْ قدمي فقط!!

صحتُ بها باكية:

- إلى المشفى!!!

أجابتْ ضاحكة:

- أي مشفى هداكِ الله، أنا بخير، أجلسيني على الكرسي وسأكون بخير!

أجلستها على الكرسي، وأخذتُ أبكي تحت قدميها وهي تنهرني:

- بكاؤكِ هذا سيقرّب أجلي، لا تبكي يا ملاك! أنا بخير كما ترين، نظرتُ إلى وجهها فوجدتهُ مُصفرًّا وشفتيها لا لونَ لهما، هرعتُ بسرعة إلى المطبخ وأعددتُ لها عصير الليمون. عدتُ إليها راكضة وأسقيتها إيّاه، قالت بعد رشفتين أو ثلاث:

- "الله! لمون يشرح القلب."

أجبتها بغضب:

- هيّا بنا إلى المشفى، أو أتّصل بالإسعاف.

فوجدتها تقهقه عاليًا:

- يا ملاك، يا حبيبتي، ليس بي شيء. دوار بسيط وقد انتهى!
كرهتُ عنادها، قلت:
- ليس لي عمرٌ من بعدكِ ولا مأوى.
أجابت باسمة وكأنّها تُرضيني:
- بل لك عمراً مديداً بإذن الله، ومأواكِ أمّكِ ناهد.
دفنتُ رأسي بين أحضانها، كنتُ كطائرٍ ضائع يرتجفُ في كنفها، دعوتُ لها الله بطول العمر والعافية، وهمستُ لها:
- "إنتي كويسة؟"
أجابت كعادتها تُطمئنني:
- "وأحسن منك كمان!"

***

وعكة بسيطة مرّتْ بها جدّتي وعادتْ أنشط من السابق وأجمل من ذي قبل، فاطمأنّتْ هواجسي وارتاحَ بعضٌ من فؤادي، ووجدتها لاحقًا تدفعني إلى الذهاب إلى الجامعة بإلحاح. فرضختُ لطلبها وذهبتُ إلى الجامعة.
استقبلتني هبة والزّملاء استقبالاً حارًا، وأخذتْ تعتب عليّ كعادتها عدم سؤالي عنها فلم أستطع التّهرب من دعوتها لي على الغداء في منزلها. فذهبتُ بصحبتها إلى هناك بعد انتهاء محاضراتنا.
وجدتُ والدها في انتظارنا، وسُعدتُ جدًّا لرؤيتهما. سألتني أمّها:

– أيّهما تحبين أكثر، هنا أم لبنان؟

أجبتها باسمة:

– كلاهما في دمي!

فأجابتْ ضاحكة:

– "آه يا نصّابة"

ولدى اقتراب موعد تناول الغذاء، سألتني هبة:

– أتريدين تناول الغداء الآن أم حين يأتي الرّفاق؟

قلتُ متعجبة:

– الرّفاق قادمون؟

– ألم أُخبركِ بهذا؟

أجبتها نفيًا، وانتظرتُ قدومهم!

وأتى الرفاق، لم أبحث عن أيمن أو حتى أُفكّر به إذ حفظتُ عهودي الثلاث! كنتُ كعادتي؛ من تحدّث الأقل واستمع وضحك الأكثر، جميلةٌ هي دومًا الصحبة المصرية، إذ لها إيقاع ونغم خاص يُبعدُ عنك الهمَّ والأحزان! قضيتُ معهم بضع ساعات، ثمَّ استأذنتهم بالرّحيل إذ أردتُ العودة إلى المنزل للاطمئنان على جدّتي. ودّعتهم وانصرفت.

ولدى ركوبي للسيّارة.. .. ..

وجدتهُ يسير باتّجاه منزل هبة ويلمحني للثانيّة الأحقر، ثمَّ يُديرُ بوجههِ عني ويطير نحو السلالم دون أن يبتسم لي وكأنّه لا يعرفني!

ضربتُ بيدي على المقود حتى كدتُ أكسرُ معصمي! صرختُ بأعلى صوتي: عليك اللعنة ألف مرّة يا أيمن فريد.

أدرتُ المقود، وعدتُ أدراجي أشتعل غضبًا!!

أهنتُ عهودي الثّلاث، فرحتُ أفكّر بأي شيء قد يملأ وقتي، أُكمِلُ الرواية؟ شعرتها ستعيدني إليه لا محالة، فاعتزلتها مؤقتًا، وطلبتُ في سِرّي الغفران من الكاتبة إذ أنّها جريمة لم أرتكبها من قبل. فقمتُ أشاهد التلفاز وأقلّبُ القنوات حتى مللتُ منها، فقررتُ المذاكرة، فشعرتُ بحروف الكتب تتراقص أمام عيني ولا يبقى منها سوى أربعة أحرف: أ.. ي.. م.. ن!! فألقيتُ بالكتب بعيدًا، حقًّا نرى نحن، مدمني الحبر والأوراق، ما لا تراهُ العين المجرّدة من الأدب!

فانضممتُ إلى جدّتي في غرفة الجلوس فوجدتها تشاهد مسرحية "مدرسة المشاغبين" وعينها تدمعُ لشدّة الضحك، فلم أشأ أن أقاطعَ استمتاعها، فهممتُ أن أعود إلى غرفتي وإذا بها تناديني:

- تعالي يا ملاك!

فجلستُ باسمة إلى جوارها، قالت باسمة:

- ها.. أتريدين الاعتراف الآن؟

- الاعتراف بماذا يا ست النّاس؟

ضحكتْ لقولي، ودومًا حين تضحك يهتز جسدها بالكامل، فتسعد الروح لذلك، قالت:

- عيناكِ اعترفتا قبلك!

ابتسمتُ لها بانهزام، وقد بدا أنّه من المقدر أن يعيدني شيءٌ ما إليه، قلت:

- ألهذه الدرجة؟

أجابت بعينين تبسمان لي:

- واضحٌ هذا وضوح الشمس!!

أجبتها متعجبة:

- لكن شيئًا لم يحدث بعد، وأنا لا أعرفه حق المعرفة، ولم نتحادث سوى لدقائق! فكيف لعينيّ أن تفضحاني هكذا؟

- لا تقلقي، لن ترسو أحلامك في قلبٍ ليس لها!

أضافت تنصحني:

- أحبّيه بعقلكِ وقلبكِ معًا، فإن أحببته بقلبك فقط، فقد لا تتحكمي في مشاعرك نحوه، فتشعرين بأنّكِ لا تأخذين بقدر ما تعطين! وإن أحببته بعقلك فقط، فستتحوّل حياتك إلى معادلة رياضيّة ضنكة وسينطفئ الحب بينكما إلى أن تتساوى كل الأشياء ولن تجدي أعواد الثقاب الكافية لإعادة إشعال الحب، وقد أوصانا رسولنا الكريم بالوسطيّة، حتى بالحب!

ابتسمتُ لقولها، ووضعتُ نصائحها نصبَ عيني.

سألتها:

- كيف كان جدّي كعاشق؟

أضاءَ وجهها، ولمعت عيناها على ذكر حبيبها، قالت باسمة:

– ياسين.. . سبحانَ من جمّعني بهذا اللبناني!

أضافت:

– كان عاشقًا من الزمن الجميل.. كَبرتُ على يديه، أطعمني الحب والكرم، وسقاني الصبر والكبرياء، تعلمتُ منه الحياة يا ملاك! هذا هو العشق بحق، العشق الذي يعلّمنا الحياة ويملؤنا دروسًا لا ننساها. أتدرين؟ والله حين رأيته أوّل مرّة، ما اعتقدتهُ لبنانيًّا، "كان لابس زي الناس الأبهة عندنا في مصر، بدلة سودا وطربوش أحمر، باشا وابن باشا!" قام بخطبتي بعدها بأسبوع من أبي عبد المنعم صالح، "ووافقتُ أنا على طول."

***

وفي أحد الأيّام أُقيمتْ في الجامعة ندوة أدبيّة حضرَ فيها أحد الأدباء المشهورين وكاتب في صحيفة معروفة، وكنت أنتظر تلك النّدوة بفارغ الصبر، فأنا أحب الإضافات التي ستعود على حياتي الأدبيّة بالنّفع. امتلأتْ القاعة بالطلاب والضيوف، كان المشهد مثيرًا للبهجة، وإن كنت لا أحب الأماكن المزدحمة أبدًا. جلستُ في أحد المقاعد، في الصّف الأوسط بقرب هبة وآخرين من زملائي. أخرجتُ مفكرة صغيرة وقلمًا أسود، وأخذتُ أتهيأ لذاك الضيف، وما إن دخل القاعة حتى صفّقَ الحضور تصفيقًا حارًا له.

حدّثنا الضيف عن الأحلام، وأخذ يسأل بعضنا عن أحلامه ويستمع إلينا بتأنٍ، ولاحظتُ أنّه يقوم بالتعليق فقط على من تبهره إجابته، أي لغة عربية سليمة ومفردات مُختارة بعناية من صحيفة الذاكرة.

في البداية لم أشأ أن أشارك معهم، إذ إنّي لا أُحب صوتي على الميكروفون، ولا أحب ايضًا أن تتوجّه الأعين إليّ وقد كانوا بالمئات. لكنّه وحين قام بأخذ ذلك المنعطف العاطفي وتحدّث عن الحب، أثارَ صمتي وسكينتي، قال:

- لا يمكن أبدًا أن تُطلق على نفسك لقب أديب إن لم تكتب عن الحب، فالحبُّ أدب، والأدبُ حب!!

وأضاف:

- ولكنّنا الآن في زمن العجائب، في زمنٍ يُهانُ فيه الحب ولا يُكرّم بنا! الحب وليد اللحظة وليس وليد النزوة، وهو ليس أعمى كما يعتقد البعض، إنّه مُبصِر بصير وذلك إن أردتم!

إذن، الحب وليد اللحظة. أي لحظةٍ قصدها الأديب؟ وكيفَ يكون الحب مُبصرًا ونحنُ نحبّه أعمى؟ راحت التّساؤلات تحاصرني من كل اتجاه. قال:

- حدّثوني عن الحب كما ترونَهُ أنتم.

تحركتْ ذراعي نيابةً عن قلبي وحلّقت عاليًا، كنت الأسرعُ والأجرأ في الاستجابة، لحظني الأديب فورًا إذ قال:

- أعطوا الميكروفون لذات الرّداء الأزرق.

كانت لحظةً مزدحمةً بالقلق والأدرينالين، أمدّني أحدهم بالميكروفون، وسادَ صمتٌ صاخب في القاعة، وحدّقتْ بي الأعين في انتظار أن تتحرّك شفاهي المضطربة:

- رنا معاذ، كليّة آداب.

- أهلاً بك. كلّنا آذانٌ صاغية. تفضّلي.

كانت ضرباتُ قلبي تنبئني بخطورة ما أفعل، وتأمرني بالانسحاب، أو بالسقوط مغشيًّا عليّ. شعرت بجسدي يتعرّق وبارتجافِ أطرافي:

- الحبُّ جنون.

وصمتْتُ قليلاً قبل أن أقول:

الحبُّ هو أن أهوي من على الجبال المرتفعة، هو أن أعشق السقوط والارتطام سهوة في كل الأشياء من حولي. أُفضّلُ الحبَّ أعمىً، سيّدي، فإن أحببتهُ مبصرًا فسأتعلّق بالمنطق، ولا منطق في الحب. تحدث أجمل قصص العشق حين يتفق الطرفان على الجنون واللامنطقيّة. كان يعلم عنتر أنّه لمن المنطق أن يعشق امرأة أخرى غير عبلة، امرأة توافقهُ الرّتابة في كل شيء، امرأة لا تثير من حولهُ قلق من يحبّون أن يحكموا بالإعدام على العشاق، لكنّه آثرَ اللامنطقيّة في الحب وأحبَّ الثريّة البيضاء الجميلة، على عكسه تمامًا، هو البسيط، أسمرَ البشرة، وبسيطَ الأحلام والذي أطلقَ عليه ضُعاف العزائم وعُماة القلوب بالعبد ابن

العبدة! أُفضّلُ الحب الأعمى المُبصِر بعيني وقلبي، سيدي!
كان الضيف يستمع إليّ دون حراكٍ في البداية، إلى أن أخذ يجوب المسرح بخطىً متفكّرة وهو مُمسكٌ بالميكروفون خاصّته بصمت. كانت نبرتي هادئة وأنا أتحدّث وإن كنت بداخلي كعصفورة تجرّب التحليق للمرّة الأولى. لكن صوتي ارتفعَ فجأةً حين كنت أقول:
- "أُفضّل الحب الأعمى المُبصِر بعيني وقلبي، سيدي"
وكأنّي أُدافعُ عن عمى الحب الذي أحب، شعرتني في محكمة لا في قاعة. انقضتْ لحظات وإذا بالحضور جميعهم يصفقون لي ويصفّرون ويصيحون بجنون. كنتُ لا أزال هادئة، متماسكة، أُحدّقُ بالضيّف بوقفتهِ المُهيبة تلك، بعينيه الصامتة، كنتُ أشتعل في انتظار أن ينطق إلى أن قال:
- تعالي.
ازداد اضطرابي، وازدادتْ نبضات قلبي المتسارعة حتى ظننتني سأفقدُ وعيي حقًّا، قلتُ بصوتٍ خافت، ولكن مسموع:
- إلى أين؟
- إلى حيثُ أقف.
أجاب بثقة!!
أمسكتْ هبة طرف ردائي وقالت هامسة:
- "يلّا روحي.. مستنّية إيه؟؟"

مشيتُ بخطواتٍ قلقة في اتّجاهه وكانت هذهِ الأمتار القصيرة بمثابة أميال وأميال من الخوف. صعدتُ إلى المسرح، صافحني على عكس ما توقّعتُ. قال:

- رنا، اسمحي لي أن أتبنّى لا منطقيتكِ في الحب!! صفّقوا لها مرّةً أخرى!!

فاشتعلتْ القاعة تصفيقًا، وشعرتُ بخجلٍ شديد وأنا أقف وكل من في القاعة ينظرون إليّ، كذلك شعرتُ بسعادة غامرة.

كانت مشاركتي تلك قبيل فترة الاستراحة، توجّهتُ إلى الحمام كي أُجدّد هيئتي، ولدى سيري بين الصّفوف الثّلاث الطويلة، وجدتُ أيمن فريد قادمًا باتّجاهي، ولا أدري ما الذي حدث بي آنذاك ولكنّي سُعدتُ برؤياه وإن لم أُظهر له ذلك.

إذن، فلقد كان بين الحضور مختبئًا، رحتُ أخبطُ على خدّي وقد تذكّرتُ أنّه قد استمع إلى مشاركتي وحديثي الأغرب عن الحب. لو كنتُ أعلم أنّه موجودٌ بيننا لما فعلتها أبدًا أو إن فعلتها لسقطتُ مغشيًّا عليّ فجأة، كم أخشى عينيه! وفي اللحظة التي اقتربتْ فيها نسائمنا، رفعتُ ناظري إليه كي أرى وجهه القارص، لأجدهُ يبتسم ما يشابه الابتسام، نصف ابتسامة جميلة ولئيمة على شفتيه الصغيرة. وما إن تلاقتْ أعيننا حتى نظرتُ إلى الأسفل بسرعة إذ كدتُ أُصاب بالحب، وليدَ تلك اللحظة. كما بدا جميلاً تلك الأمسيّة، بشعره المصفف بعناية وأناقته القاتلة!

وصلتُ إلى مرآة الحمام، شعرتني زهرةً قد تفتّحتْ أوراقها وفاحَ

عبيرها في الأرجاء، شعرتني أجمل به! وضعتُ قليلاً من أحمر الشفاه، وهذّبتُ خصلات شعري، وحينَ عدتُ إلى النّدوة وجدتُ الجميع قد عادوا إلى أماكنهم، ولذكائي الخارق نسيتُ أين مقعدي وأضعتُ هبة والأصدقاء، وحينَ اتّصلتُ بها لم تجبني لتغييرها وضعيّة هاتفها إلى الصامت، وأُطفئتْ الأنوار!

فأخذتُ أمشي كاللصوص بحثًا عن أي مقعد، فوجدتُ مقعدين: أحدهما في الصف الأوسط ولكنّه في الواجهة على عكس ما أحب، والآخر في الصف الأيمن، وبطبيعة الجنون، توجّهتُ إلى الجانب "الأيمن".

اقتربتُ من ذلك الصف، فوجدت أن هنالك مقعدين فارغين كنتُ على وشك أن أجلسَ في أحدهما، وسبقني إلى أحدهما شاب وجلس.

نظرتُ إليه بتأنٍ فوجدته هو.. .. رجل الثلج!

وربّي، كنتُ سأشهق ثمَّ يُغمى عليّ، ولا أدري كيفَ قوّاني الله!

رفعَ ناظرهُ إليّ وبدا متفاجئًا لرؤياي كذلك، قلت:

– لم أكن أعلم أنّ هذا هو مقعدك!

أجاب:

– ليس مقعدي، نسيتُ مكان مقعدي الأوّل!

وأضاف:

– اجلسي.

لم يكن طلبًا بالنّسبةِ له، قدر كونها أمنية مجنونة بالنّسبة لي، فجلستُ مدهوشة.

واستكملَ الضيفَ حديثه مجددًا، وحاولتُ قدرَ المستطاع أن أنتبه لحديثه وأن أستمع كما كنتُ أفعل قبيل الاستراحة، لكنّي لم أقدر، فأخرجتُ ذات المفكّرة في محاولة لترجّي الانتباه أن ينتبه لي، وعلى حين جنون، أخذَ القلم من يدي، وكتبَ أعلى المفكّرة:

- "من بين كل المقاعد.. .. ..

الصّدفة رقم ٦ "

كتبها ولم ينظر إليّ حتى، كتبها وأسندَ ظهره على المقعد بكل جاذبيّة وقد شابكَ ذراعه على الأخرى، ابتسمتُ له دون أن يراني، مذهولة.. خجولة.. فرحة.. قلقة. وبعد انتهاء النّدوة، هممتُ أُلُم حاجياتي، ولاحظت كم هو يحدّقُ بي، قال:

- "حمد الله بالسلامة! "

أجبتُ وأنا أُعيد المفكّرة إلى حقيبتي:

- الله يسلمك.

قال:

- ومتى رجعت من بيروت؟

أجبتُ سريعًا:

- منذ عشرة أيّام.

أجابني باستنكار:

- ولمَ لمْ تخبريني؟

سؤاله ذاك كان بمثابة القنبلة الموقوتة التي جمّلتْ مسائي، صحيح..
لِمَ لم أُخبرهُ؟ قلت:

- ولِمَ عليَّ أن أُخبرك؟؟

ابتسمَ قائلاً:

- لنخرج من هنا!!

سرتُ إلى جواره ظلاً بظل وسطَ الحشود، إلى أن وصلتُ وإيّاه عند بوابة الجامعة، سألني:

- أين هي سيارتك؟

فأشرتُ له إلى مكانها، فقال كالإنسان الآلي:

- غدًا.. في الساعة الخامسة مساء.. هنا.. سأنتظرك.

وأردفَ قائلاً:

- جميلٌ ما قلتِ عن الحب، لكنّي أخالفكِ الرأي!!

وانصرف.

كنتُ في حالة ذهول أطبقتْ على صوتي وجسدي، أكانت تلك هي دعوة للقاء؟ أم أنّها دعوةٌ للحرب وقد خالفني الرأي للمرة الثّانيّة دون أن يوضّح لي أسبابه، وانصرف؟ لقد أطاحني شوقًا بكلماته القليلة، وتمنّيتُ لو عدتُ للدقيقة الأولى التي لمحتهُ فيها، كي أحياها مجددًا لأسعد في شقائي.

تعال يا غد..

وحين تراه..

ضعني في أحدِ جيوبه،

ولا تسأل عني!!!

وأتى أجملُ الصباحات...

لم أنم ليلتها إذ ملأ الانتظار مقلتيّ، فبقيتُ على موعدٍ مع عقارب الساعة، أرجوها أن تعانق حدود الخامسة لأنهي صراعي الوقتي. نهضتُ كي أُحضّر ثيابي في الساعة الثالثة، فاخترتُ أجملَ ما عندي. أردتُ أن أتجمّلَ للحب أكثر من تجمّلي له، ارتديتُ ثيابي وتجهّزتُ كلّيًّا وسدلتُ شعري الطويل على امتداد ظهري، وحين عانقت الساعة الرابعة عصراً، وجدتهُ وقتًا ملائمًا للخروج كي أصل في الوقت المحدد. رحتُ أبحث عن مفاتيح السيّارة، وجدتها، وهممتُ بالخروجِ من الغرفة، لكن شيئًا أوقفني، لمحتُ المفكّرة التي كتبَ أعلاها شيئًا من جنونه.

"من بين كل المقاعد.. . . . . .

الصّدفة رقم ٦ "

لا شكَّ أن صدفي وإيّاه هي الأجمل، فما هذا القادمُ إذن؟ إنّه لقاءٌ مدروس، لهُ موعدٌ ومكان.

سينتظرني بشوق، ذات الشوق الذي سيحملني إليه، سنجلس على كرسيين وطاولة حقيرة، وسنتبادل أشلاء الحديث وسرعان ما سينتهي كل شيء، إلى أن تتكرر اللقاءات ذاتها أو الحماقات ذاتها، فينطفئ الشوق جرّاء خذلاننا إيّاه.

انتفض جسدي بأكمله لمجرد الفكرة، وخشيتُ أن أُهين لقاءاتنا اللامدروسة، فخلعتُ ملابسي بسرعة وغسلتُ وجهي من الزّينة وضممتُ

شعري إلى الأعلى، وجلستُ أُراقب الساعة تغادر الخامسة بانهزام!

قضيتُ باقي اليوم في حالة صمت، أو ربّما في حالة دهشة جرّاءَ حماقةٍ كنتُ على وشك اقترافها وجرّاء قوّةٍ لم أكن لأعلم أنّها بداخلي، إذ إن انسحابي من ذلك الموعد الذي أحببته، حتى وإن ضاع منّا، هو انتصارٌ لي بلا شك.

ولكن. . .

ليتني ملكتُ الجرأة الكافيّة للإتّصال به وإخباره بذلك، لكنّي شعرتُ بـأنَّ سماعي لصوته سيفقدني عزيمتي، ويملؤني بذنب عشرة أعوام!

فأمسكتُ هاتفي، ورحت أُرسل له الرسالة الأغرب:

- "اترُكها للصّدف.. هي المدبّر الأقوى والأجمل الذي سيجمعنا.. ودَعْكَ من سخافات اللقاءات التي نعرف زمانها ومكانها!!! "

وضعتُ الهاتف جانبًا في انتظار ردّه أو اتّصاله، لكنّه أشعلَ في انتظاري لهيب صمته، ولم يفعل شيئًا. ولم أدرِ إن كان صمتهُ راضيًا عنّي أم غاضبًا، أم أنّه صمتُ الكبرياء الذي انتُهِك أو صمتُ ما قبل الحرب.

وحينَ حرقَ الصمتُ أوراقَ صبري، قررتُ الاتّصال به.

الرّنة الأولى، كانت الأجمل إذ ذكرتُ صوته الذي أُحب.

الرّنة الثانية، سحبتْ الأكسجين من رئتيّ.

والثالثة، أطلقتْ في خواطري قنابل مُسيّلة للشكوك.

والرّابعة، خدشتْ كبريائي.

فلم أدعْ مجالاً للخامسة أن يحل جهنّمها علي، فأنهيتُ المكالمة! كيفَ يمكن لجهاز الهاتف أن يُتلف بعضًا من كبريائنا؟ لربّما اخترعوه لهتك الصبر والكبرياء؟! فلعنتُ جراهام بيل وصاحب نظرية الاختراع أنطونيو موتشي!!!!

طيفُ هذا الحب يُصيبني بالدّوار..

"رنا مغرومي.. رنا وقعت ومحدش سمّى عليها"

لم يكن هذا اتفاقنا يا حياة، أحببتُ مصر لكنّي لم أكن لأعتقد أني سأحب الموت فيها. شخص واحد من بين التّسعين مليون يذيبُ تمرّدي، فيبدأ غيابي وإذا بي أعشق ترابها وكأنّها بلدي، لا بل إنّها بلدي بالفعل منذُ عرفته، كم أحببتُ دمائي المصرية على يديه.

الحب.. قد يأتي إعصارًا همجيًّا ينثرنا، فلا يعود السلامُ سلامًا، ولا تعود الحياة حياة.

إنّه كبرياؤنا الذي أحبَّ الانهزام وجنوننا الذي قبِلَ التّرويض، أنّه انسحابنا من الضّياع واجتياحنا لضياعٍ آخر أشهى وأجن. ربّاهُ، أنت تعلم كيف حالي.

تغيب...

ويغيب عنّي كل شيء من حولي،

فلا أفقهُ سوى غيـابــك

لغيابك أبعادٌ تُرهق كل الموجودات

ودموعٌ شتّى تسفكُ أحلامي..

أتشعر بكل هذا؟؟

غاب عنّي ولم أجد لطيفهِ عنوانًا، واعتقدتُ برهةً أنّه يعاقبني، وأنّه تحالف مع الصّدف ضدي ومنعها من أن تجمعنا.

كيفَ له أن يكون بتلك القسوة؟ وجبَ عليه أن يفهمني، من بين الجميع، وجبَ عليه أن يفهم. لم أشأ أن أجعلَ ما بيننا عاديًّا. عُدتُ لصراعي الأوّل وعادت الأشياء من حولي تسير على نفس الوتيرة الهادئة، العاديّة، والمنطقيّة. مضى قرّابة الشهر ولم أعرف عنه شيئًا، كم أردتُ أن أحادثه وأن أطمئنَّ على أحواله، لكنّي عجزتُ عن هذا، إذ لم أشأ أن أعرّض كبريائي لصقيع كلماته، واكتفيتُ بذكرياتٍ دافئة جمعتني به بحضرة الصّدف.

***

وفي أحد الأيّام، زارتني هبة في المنزل، وبدا وقتًا لطيفًا بين صديقتين، كنّا نتحدّث في مختلف الأمور ولا نملُّ من الكلام، أحبُّ فيها تلقائيتها وعنفوانها في الحديث. ساعدتني في إعداد الغداء وقامت أيضًا بمساعدة جدّتي وإيّاي في تنظيف المطبخ، أحبُ تواضعها جدًّا حين تقول لي حين أشكرها: "اسكتي.. انتي زي اختي."

قالت فجأة:

- لمَ حظّي عاثر في الحب؟

- أنتِ من تجعلينهُ عاثرًا، ما أخبار "الموكوس "؟
- لا جديد يُذكَر ولا قديم يُعاد!! الحال لا يتغيّر، يا الله كم يقهرني حين لا يسأل عنّي! كم اشتاق لبداياتنا معًا!!
- هبلة.. هبة الهبلة.
وضعتْ يدًا على خصرها، وقالت باستنكار:
- " آه هبلة يا بتاعت عنتر وهبلة انتي."
فانفجرتُ ضاحكة، وأنا أقول لها:
- عبلة.. اسمها عبلة يا هبلة!!
أجابت باستياء:
- ماذا أفعل معه خالد هذا؟
- تعلّمي فن الانتظار، "يا عبيطة "
- ما بكِ تشتمينني كثيرًا اليوم؟ انصحيني نصيحةً أفهمها لوجه الله!
- أنا أفعل يا "موكوسة "!!
- لن أفهم ما دُمتِ تجرحينني يا رورو.
أجبتها ضاحكة، وقلت كي أزيدَ مضايقتها:
- ومنذ متى تفهمين يا "هبوش "؟
واسترسلتُ في ضحكاتي، فألقتْ بحقيبتها في وجهي، وإذا بهاتفها يرن في الحقيبة. فقفزتْ إلى حجري لترد على الهاتف فأخذتهُ منها على عجل، قلت:

- بنت اهدأي.. إن كان هو لا تجيبيه الآن، دعيه يجرّب اشتياقك هذه المرّة!! اهدأي.

صاحت:

- من المتّصل؟ من المتّصل؟؟ هه.. هه؟

نظرتُ في شاشة الهاتف فوجدتُ:

" لودي حبيبي وقلبي " يتّصل بك.

فالتفتُّ إليها، وقلت:

- "لودي حبيبي وقلبي "؟؟؟ أأنتِ جادّة؟ بربّكِ ما هذا الاسم؟؟ وتسأليني ماذا تفعلين معه؟

صرخت:

- "هاتي التلفون يا باردة "

وخطفته مني، وما أن أخذتهُ حتى انتهت المكالمة، قالت مستاءة:

- يا الله!!

- علّميه أن يحبك ويشتاقك كما يجب وكما تستحقين، أثيري حبّه ولا تخمديه بحبّك الزائد عن الحب والحد، إيّاكِ وأن تصِلي لمرحلة الحب الفائض، ستعجزينَ عن لملمة الحب لاحقًا، وهل يُلَم العسل بعد إراقته على الأرض هدرًا أو خطأً؟؟

نظرتْ إليّ، وقد تنهّدتْ بحسرة، وقالت وقد أمالت ظهرها على الأريكة بانهزام:

- كم أنتِ محقّة، ولكنّي اشتاقه!

- وما المانع؟ اشتاقيهِ كما تشائين، ولكن عن بُعد. وحتى يُدرك مرارة ابتعادكِ فجأة.

- وكيف أبتعد وكل الأشياء تقودني إليه؟

كان سؤالاً صاعقًا بالنّسبة لي، إذ أرهقتني الإجابة التي لم أجدها، قلت:

- حاولي...

وسرحتُ في تساؤلاتي.

خفتُ أن أصل إلى تلك المرحلة التي ستقودني فيها كل الأشياء إليه فانضمَّ إلى هبة وإلى طائفة العاشقات الحمقاوات.

أخذنا بعد ذلك نتحدّث عن أمورٍ أخرى تخص دراساتنا والأساتذة والامتحانات، قبل أن تصيح:

-سمـيرة!!

قلت بتعجّب:

- ما بها؟

قالت وهي تبحث عن حقيبتها، وكأنّها سترحل:

- إنّها تنتظرني في رمسيس منذ ساعة، وقد أخبرتني أن أهاتفها لانتهاء رصيدها!

- وما الذي تفعله سميرة في رمسيس؟

- أين حذائي؟

- لِمَ هي هناك؟
قالت وقد ارتدتْ حذائها على عجل:
- سنذهب لزيارة زميل مريض لنا مع الشلّة.
- من؟
- أيمن فريد لو تذكرينه!
"لو؟؟؟ إنّه محفورٌ في فؤادي، قلت ودون سابق تفكير:
- سآتي معكم، سأبدّل ملابسي.
صاحت:
- لا أستطيع الانتظار، تعالي بمفردك. أنتِ تتأخرينَ عادةً حين تستعدين للنزول. "باي" سأرسلُ لكِ العنوان في رسالة.
وأقفلتْ الباب خلفها..
صحت:
- نذلة!! تذهبين من دوني.
انقضت دقائق قبل أن ترسل لي العنوان، نظرتُ إلى الساعة فوجدتها الثالثة، فتذكّرتُ موعدنا الضائع وابتسمتُ للذكرى. ارتديتُ فستانًا أسود قصيرًا فرنسي التّفصيلة، كانت قد ابتاعته أمّي لي في رحلتها الأخيرة إلى دبي، وارتديتُ جاكيتًا صوفيًا قصيرًا رمادي اللون، فأدركتُ أن هذا الاختيار سيبدو جميلاً مع "بوطٍ" شتوي طويل، صحت:
"ما عندي بوط جديد!!"

فارتديتُ صندلاً صيفيًا في الشتاء كالمجانين، ووضعتُ القليل من أحمر الشفاه والخدود، وانطلقتُ إلى المول التجاري المجاور. اخترتُ بوطًا أسود اللون، وارتديتهُ على الفور وتوجّهتُ إلى المحاسب ووضعتُ الصندل على المنضدة، وقلتُ وأنا أشير إلى الصندل:

- سآخذ هذا من فضلك.

نظرَ البائع إلى الصندل، ثمَّ إليّ، ثم إلى الصندل، وبعد لحظات انفجرتُ ضاحكة وقد أدركتُ غبائي، قلت:

- اعذرني أرجوك، سأبتاع البوط الذي أرتديه الآن!

وأضفتُ سريعًا وكأنّي أسترُ على إحراجي، قائلة:

- لم أنم البارحة.

وبحركةٍ سريعة، أمسكتُ الصندل وأدخلتهُ في حقيبتي، فوجدت المحاسب ينفجر ضاحكًا، فأخرجَ كيسًا وأمدّني به قائلاً:

- "حطّي الصندل هنا حضرتك، أحسن ما تبهدلي شنطتك يا فندم."

أخذتُ منه الكيس على خجل وقد ضحكتُ بانهزام، فوجدته يقول:

- يبدو أنّك لم تنامي منذ شهر!

فابتسمتُ باضطراب وأنا أوافقه الرأي كليًّا.

***

توجّهتُ إلى محل يبيع الورود، سألتُ عن ورد الليلك، فوجدته عندهم بألوانه الثلاث: الأبيض، والأرجواني، والقرنفلي. فأخذتُ باقةً كبيرةً

تجمع الألوان الثلاث. وقبل أن أهمَّ بالمغادرة، دخلتُ إلى محلٍ يبيع الفطائر المحلّاة، فابتعتُ له فطائر القرفة بالسكر.
أخذتُ أجوب الشوارع بحثًا عن منزله، واسألُ المارّة، إلى أن دخلتُ إلى الحي الموعود، والشارع الموعود، إلى أن لمحت المسجد المجاور لمنزله كما قرأتُ في الرسالة.
المكان هادئ مثله، لم أشأ أن أُتابع القيّادة، أردتُ أن أعانق الحي شبرًا شبرًا.. دارًا دارًا.. زنقة زنقة! وصلتُ إلى المبنى "الأخضر الطويل "كما وصفته هبة. مبنى جميل، كان يسكن في الدور الرابع شقة رقم ١٢.
وجدتُ المصعد، ولكنّي فضلتُ السلالم كي آخذ من الهواء ما أشاء قبل أن أختنق به لاحقًا. وحين وصلت إلى الطابق الرابع، تمنّيتُ لو استخدمت المصعد كي أتحقق من هيئتي في المرآة.
وجدتُ الباب شبه مفتوح.
فتحته أكثر بهدوء، دخلت وتركته كما كان.
كان الهدوء قاتلاً!!!!
شقة مفرطة الترتيب، ألوان موجيّة وأخرى رمليّة، لوحات تجريديّة معلّقة على الجدران، تُحف في كل زاوية، وجدتني أقعُ في غرامها فورًا.
تنبّهتُ فجأةً لأمر خطير... . أينَ الرفاق؟؟؟
ظننتني أتيتُ مبكرًا، نظرتُ في ساعتي وابتسمتُ للوقت، الساعة الخامسة حبًّا! لبرهةٍ جزعت، اعتقدتني قد أخطأتُ بالعنوان، فيومي

كان مجنونًا بما يكفي لتحدث لي حماقة أخرى. وضعتُ باقة الورد وعلبة الفطائر على الطاولة لأتّصل بهبة لأكتشف بأنّي قد نسيت الهاتف والحقيبة في السيارة.

فبدأتُ أُصدّق فعلاً أنّها الشقة الخطأ إلى أن.. .. .

وجدتهُ أمامي.. .

يقفُ عند ممر علويّ ساندًا جسده إلى الجدار، بدا شاحبًا قليلاً وتحت عينيه سمارٌ واضحٍ، ظلَّ ساكنًا يحدّقُ بي بنفس البرودة، رجل ثلج حتى في مرضه.

المزيد من الصمت، المزيد من الاشتعال، كنتُ على وشك أن أصرخ به:

" دخيلك احكي "

وبعدها بلحظات، نطقَ أخيرًا:

- لم أتوقّع مجيئك، لكنّك أمامي الآن!

انعقدَ لساني.

قال:

- لطفٌ منكِ أن تأتي!!

- .. ..

- ليسَ بي شيء كما ترين، لمَ كلّفتِ على نفسك؟

- .. ..

- أنا أسد كما ترين.

وشهدتُ أوّل ابتسامة "كاملة "على شفتيه، أصابتني في مَحْيا.

- "هتفضلي ساكتة؟ طب اتفضلي؟ "

- أين الرّفاق؟

أجابني باسمًا:

- لن يأتوا!

- لماذا؟

- أخبرتهم ألّا يأتوا!!

- لم يخبروني، أتمنّى لكَ شفاءً سريعًا. يجب أن أذهب.

- ابقي.

-. .. ..

- قلتُ لهم ذلك كي أراكِ أنتِ!

-. .. .. (عاد يدوّخني.)

- هذا أفضل، فهم فوضويّون وأنتِ كارثة، ولأن "صحتي على أدّي "فتكفيني كارثة!

اقتربَ منّي، مدَّ يده، سلّمتهُ يدي وتعانقت الأنامل للمرةِ الأولى، ولم يكتفِ بذلك فقط، بل وضعَ يدهُ الأخرى على يدي، وقال:

- تفضلي بالجلوس.

جلس مقابلاً لي، مبتسمًا في سلام، قال:

- اعتقدتكِ تركتها للصدف، فما هذا إذن؟

استفزّني قوله جدًّا، قلت:

- أنت مريض، وهذا استثناء!

فأجاب بمكرٍ ملحوظ:

- استثناء لماذا تحديدًا؟

- . . . .

- تحدّثي، استغلّي هذه الفرصة جيّدًا.

قلت:

- ظننتكَ بارعًا في قراءة العيون، لِمَ لا تقرؤني الآن إذاً؟

قلتها بنبرة ساخرة، توقّعته سيضحك، لكنّه أمالَ بجزئه العلوي إلى الأمام، وقد شابكَ يديه، وعيناه تحتلّني، فهربتُ منهما وقلتُ وأنا ألعب بعقد الكهرمان حول عنقي:

- لن أستطيع البقاء طويلاً!

لم يجبني، بل نهض باتّجاه الطاولة وقال:

- جميل هذا الورد، لم يحدث أن جلبَ لي أحدهم ورودًا من قبل. مممممم فطائر القرفة، المفضّلة عندي!

عادَ ليجلس أمامي بخُطىً متعبة وهو يأكل آخر قضمة من الفطيرة، وقال وهو يلعق أصابعه:

- شكرًا لك.

- عفوًا.

وابتسمَ كلانا في نفس اللحظة، قال:
- الأسود، لوني المفضل، لكنّه لا يليقُ بكِ!
رحتُ أحدّقُ في عينيه حدَّ اختلال توازني، لم أفهمه، شعرتُ بغضبٍ لا يوصف، قلتُ:
- لِمَ لا تنام؟ "نوم الظالم عبادة. "
وإذا به يضحك عاليًا، فسَكرتُ على ضحكته.. فورًا!
قلتُ فجأة:
- لِمَ تخالفني الرأي دومًا؟ يعجبكَ ما أقول ولكنّك في النهاية تخالفني الرأي ولا توضح أسبابك!؟؟
- أيهمّكِ أن تعرفي؟ لا أحب الفضول!
- فضول؟ لي الحق أن أعرف.
- ولي الحق في أن احتفظ بأسبابي.
كان يستمر في إغاظتي واستفزازي، عرفتُ بأنّي قابلة للاشتعال منذُ عرفته، قلتُ دون تفكير:
- يجب أن أذهب إذن.
ونهضت بسرعة.
أجابني:
- رافقتكِ السلامة، "سلامووز. "
وأردفَ قائلاً:

- شكرًا على الزيارة.

لم أجبه، وذهبتُ صوبَ الباب، وما إن فتحته حتى سمعتُ ارتطامًا قويًّا قادمًا من خلفي، فوجدتهُ قد سقطَ على الأرض مغشيًّا عليه. هرعتُ إليه وقد تمزّقَ فؤادي!!!!

***

رحتُ أنادي عليه، ولا يجيب. اعتقدتهُ قد مات من فرط خوفي، فقال وكأنّه يقرأ مخاوفي وهو مغمض العينيين:

- لم أمُت بعد!!!

وجدتُ جرحًا في رأسه، صحتُ به:

- كدتَ تموت يا أحمق.

أجاب:

- أنا بخير جدًّا، ساعديني حتى أصلَ إلى غرفتي. أحمق؟؟

ساعدته على النّهوض، وضعَ ذراعًا على كتفي، فأمسكتها، ووضعتُ يدي الأخرى على خاصرته! استلقى على سريره، نظر إليّ، وقال هامسًا:

- سامـــحيني.

وغابَ عن الوعي تمامًا، جزعتْ ولم أدرِ كيفَ أتصرّف، فأخذتُ أبحث عن أية مستحضرات طبيّة أُداوي بها جرحه، فوجدتُ أن كل ما لديه بضعة أقراص للصدّاع ومضاد حيوي. صحتُ به:

- عليك اللعنة، ستموت ولن يدري بك أحد.

وجدته يتنفّس ببطء، مسالم.. جدًّا. أحببته تلك اللحظة، وضعتُ يدي على جبينه فوجدتها تشتعل! فهرعتُ إلى الصّيدليّة كي أستنجد بالصّيدلاني الذي طلبتُ منه أن يرافقني إليه، وبعدَ الحاحٍ ليس بطويل، أتى معي.

علمتُ أن لديه نزلة برد قاسيّة وأنّه لم يعالج نفسه. سألني الصّيدلاني عن الجرح في جبينه فأخبرته وأنا أحضّر المطهر والقطن والشرائط اللاصقة:

- لقد سقط على رأسه.. المجنون!

فقال:

- وماذا تقرَبينَ له؟

كان سؤالاً مفاجئًا، ولم أدرِ بمَ أجيب، وإذا بالرّاقد على السرير يقول:

- إنّها أختي!!!

وعاد يُغمضُ عينيه.

أختِه؟! ما هذا الابتلاء؟

وبعد خروج الصّيدلاني، ناوبتُ وضع الكمّادات على رأسه، وعلى يديه، إحساسٌ غريبٌ انتابني وأنا أُعانقُ يديه، لعلمي أنّي لن أقوى على فعل ذلك وهو بكامل وعيه. ثمَّ بعد ذلك فككتُ أزرار قميصه وأنا لا أُصدّقُ ما تفعلهُ يداي كي أضع الكمّادات على صدره، وما إن وضعتها حتى صاحَ قائلاً:

"حرام عليكي يا ماما"

ماما؟؟

أوّلاً أخته.. ثمَّ أمّه.. ثمَّ ماذا بعد.. . "تيتة "؟؟

أوقفتُ وضع الكمّادات حين هدأتْ درجة حرارته، إلّا أنّني أردته أن يهذي هذيان الحرارة المرتفعة، إذ اعتقدته الوقت الأصدق لنواياه.

ولكن أخته؟؟ وأمّه؟؟ هذا هذيانٌ باطل!!

دقّتْ الساعة التّاسعة، ولم أُصدّق أنّني أمضيتُ أربع ساعات برفقته، مرّت الساعات سريعًا، لم أشعر بها. وضعتُ الأدويّة بقربه وكتبتُ له ورقة تفيد بموعد الأدويّة، وكتبتُ أيضًا:

"هيّا، قُم بالسّلامة حتى نواصل الحرب. "

وضعتُ يدي على جبينه للمرّة الأخيرة قبل رحيلي، كي أتحقق من درجة حرارته، وعلى حين حب......

وجدتهُ يُمسك يدي بقوّة دون أن يفتح عينيه، يضمّها إلى صدره ثمَّ يُطبق شفاهه عليها دون أن يُقبّل فعليًّا، ظلّتْ يدي معانقةً لشفاهه الدّافئة، همس:

- حبيبتي....

وفتحَ عينيه الحمراء، وعادَ للنّوم.

قالها!! لم أكن مهيأة لها، لجمالها من شفاهه، لم أكن مهيأة لتلك الثلاث دقائق الأخيرة، لفظها، فلفظَ الحزنُ بداخلي أنفاسهُ الأخيرة، سحبتُ يدي ببطء فانفلتتْ يده بانهزام.

عدتُ أدراجي وبي دهراً من الفرحة.

رحتُ أتنقّلُ في أرجاء المنزل، ولا أفعلُ أي شيء سوى الابتسام حتى أتعبتني عضلات فكّي. داهمني الحب فأردتُ أن ألحقَ أحد قطاراته التي ستقودني إليه. دخلتُ على حسابي على الفيس بوك وأرسلتُ إليه دعوة حب!

***

الحب معه يصبح أحيانًا كاللغة البولنديّة ذات الأحرف الكوريّة التي عليَّ قهرًا إتقانها، اتصلَ بي بعد لقاءنا ذلك بيومٍ واحد، كم عشقتُ شاشة هاتفي واسمهُ يتراقص عليها، وسعاد حسنيٍ تغنّي:

"دانا بالي طويل وأنت

وأنت عاجبني بس يا ابني

بلاش تتعبني..

يا يا يا يا ياواد يا تقيل "

أجبته بعد أن دندنتُ مع الأغنيّة:

- "مرحبا."

- "أيوه."

ما هذه ال "الأيوه "؟ ألم يتعلّم آداب الرّد على الهاتف؟، سألته:

- أيمن؟

- "آه أيمن، إنتي مش مسجلة نمرتي عندك ولا إيه؟؟"

-" مسجّل عندي!"

- "أومال؟ "

قلت:

- كيف أنت الآن؟

- أفضلُ منك. عندي سؤال!!

- اسأل.

- "هو إيه اللي حصل امبارح؟ مش فاكر حاجة خالص!!"

أردتُ حينها أن أُلقي بالهاتف على الأرض وأقفز عليه كالمجانين، أجبته وأنا أعضُّ على أسناني:

- ألا تذكرُ أي شيء؟؟

- على الإطلاق!!!

أجبت بنبرةٍ أعلى وكأنّي أنهره:

- ما هو آخر شيء تذكره؟

- رغبتك الشديدة في الرحيل ورحيلك!!

على رأسه اللعنة. أجبته غاضبة:

- وهذا الذي حدث.

- فقط؟

- فقط!!!

- خطّكِ جميل!!

أجبتهُ باستنكار:

- وأينَ رأيتَ خطّي يا أفندي؟؟

- ثواني.

اختفى صوته الجميل لعدّة لحظات، وحين عاد قال:

- "يلّا بلاش دلع، قوم بالسلامة عشان نكمّل الحرب "، ألم تكتبي لي هذا؟ ألم تبتاعي كل تلك الأدويّة؟

تبًّا، تبًّا! نسيتُ أمر تلك الورقة كلّيًّا، أجبته:

- ربّما.

- يا لكِ من محتالة.

- أنتَ لا تذكر شيئًا.

- أنتِ لا تذكّرينني، فماذا أفعل؟

- لا شيء!

- أسَتَحرِميني من هذا؟

- ممَّ تحديدًا؟

- أن أستمع لحكاية السّارقة التي دخلتْ منزلي بالأمس، لتعبث بأشيائي وتداويني لترحل كالحلم الجميل؟؟

يا الله!! أطاحني شوقًا وعشقًا، وقد أحببتُ السرقة والسارقين. قلتُ دون تفكير:

- ألن نلتقي قريبًا؟

أجابَ سريعًا:

- لا، سلامٌ الآن.
وأنهى المكالمة...
وانتهى الحلم الجميل، استشطتُ غضبًا وسخطًا وودتُ لو كان أمامي لأصفعه ثلاثين صفعة وصفعة، أرسلتُ له رسالة غاضبة:
"لو كنت أمامي الآن، لكنتُ.. .. .. "
أجابَ بعدها بدقائق:
- "هتعملي إيه يعني؟؟ "
فأقفلتُ هاتفي وألقيتهُ جانبًا، ودخلتُ على حساب الفيس بوك خاصتي كي أسحب دعوة الصداقة، فوجدته لم يقبلها بعد، وأنّه قد أرسلَ إليّ رسالة منذ دقيقة واحدة، فتحتها وأنا أتوّقع الأسوأ:
"اتركيها للصدّف.. ..
ومن يرى الآخر يدعوه لفنجان قهوة، وبهذا لن نمس عفوية لقاءاتنا بعلمنا المسبق لزمانها ومكانها، أنا على علم بدعوة الصداقة التي أرسلتها إليّ منذ وصولها، إن كانت دعوة صداقةً حقًّا فأعلميني وسأقبل "صداقتكِ "فورًا، وإن كانت دعوة أخرى لشيء آخر أنا وأنتِ ندركه جيّدًا، فأعذريني لن أقبلها، لكِ حقُّ الاختيار. "
رحتُ اقرأ حروفه عدّة مرّات، وبسمةٌ تعلو قلبي قبل شفاهي، حتى حفظتُ حروفه عن ظهرِ حب. لم أجبه، فماذا يُقال بعد الذي قال؟
وسحبتُ دعوة الصداقة، كالسارقة!!

***

وفي اليوم التالي.. فوجئتُ بأمّي تطرقُ بابي، أخذتني بين ذراعيها وقالت على عجل:

- أين جدّتك؟؟

بدتْ ملامحها ملائكيّة بدون مستحضرات التجميل، وبدتْ كلاسيكيّة للغاية ببنطال الجينز والقميص الأبيض قصير الأكمام، سألتها:

-" شو في؟؟ "

أجابت باسمة:

- لا شيء عزيزتي، جدّتكِ تريديني أن آخذها لأختها كعادتها!!

- أتيتِ من الإسكندرية لكي تقلّيها عند أختها في فيصل؟؟

وأردفتُ قائلة:

- أنا من تفعل هذا دومًا!! وحينَ لا أتواجد في المنزل، تذهب بمفردها بسيّارة أجرة!!

وجدتها ترتبك قليلاً، وقبل أن تنطق انضمّتْ إلينا جدّتي قائلة:

- أريدها أن تأتي معي هذه المرّة، هناك مشكلة صغيرة مع أختي وابنتيها، ويستدعي هذا وجود ناهد.

طمأنني وجه جدّتي حتى وإن كنت أدري أن علاقة أمّي بأهل جدّتي ليست بمتانة أن تتدّخل في مشاكلهم. قلت:

- رافقتكما السّلامة.

عدتُ بعد ذلك لقراءة "الأسود يليقُ بك "، فتذكرتُ أيمن حين قال

لي إن الأسود لا يليق بي. كيفَ هذا وحين ارتديه يزداد جمالي أربعة أضعاف؟ فوجدتني أُمسكُ بالهاتف وأُرسلُ له عن طريق الواتس آب:

"الأسودَ لا يليقُ بي؟؟ كيف لك أن تقول هذا؟ "

ثمَّ بعدها استوقفتني صورته التي وضعها بالأبيض والأسود، كم هو مبهم هذا الفتى! وكأنّي أحتاج لمزيدٍ من الإبهام. وضعتُ الهاتف جانبًا، وتابعتُ قراءة الرّواية:

"الحب هو ذكاء المسافة، ألّا تقترب كثيرًا فتُلغي اللهفة ولا تبتعد طويلاً فتُنسى. ألّا تضع حطبكَ مرّة واحدة في موقد الحب، أن تُبقيه مشتعلاً بتحريك الحطب، ليسَ أكثر، دون أن يلمح الآخر يدك المحرّكة لمشاعره ومسار قدره"

ويحي!!

شعرتها رسالة واضحة وصريحة من أحلام لي، ودرسًا جميلاً في الحب! بعدها بدقائق وجدتُ رسالةً منه:

- هل أنهيتِ قراءة الرواية؟ ومتى قلتُ لك أن الأسود لا يليقُ بك؟ هل رأيتُكِ ترتدينهُ مسبقًا؟؟"

وجدتني ألطمُ حرفيًّا على وجهي. إمّا أنّه مصابٌ بمرض الزهايمر المبكر، أو أنّه قد زاد الحطب في موقد ال.. .. .

لم أجبه، ووضعتُ الهاتف جانبًا، أردتُ أن يتم تجنيدي على يديْ أحلام:

"في كل امرأة تنام قطة يقتلها الفضول."

آه يا قطتي! لا مزيد من السمك إذن!!!

"بعد الاعتراف الأوّل لا تعود كلمة أُحبك تعني شيئًا."[١]

ويحي! لن أعترف أبدًا.

"الحب يصيب بفقدان الذاكرة."

انفجرتُ ضاحكة لدى قراءتي لهذه الجملة حتى دمعت مُقلتاي. نعم، الحب يفعل.

"أحب من شئت فأنتَ مفارقه."

وقفتُ أمام هذه الحقيقة التي ذكرتها الكاتبة لعلي بن أبي طالب، وأزعجني صدقها. واقعٌ صعب تعلّمنا نحن البشر أن استقباله وارد جدًّا، ولكنّنا لن نتعلّم أبدًا الاستعداد له. الموت - شبح الحياة- إمّا أن يموت من تحب، أو تموت أنت ممّن تحب! وعلى هذا الواقع، تركتُ الرواية جانبًا!

وحين أطل المساء، دقَّ أحدهم الباب، توقّعتها أمّي والجدّة، لكنّي فوجئتُ بأدهم أمامي وقد مضى وقتٌ منذ آخر مرّة رأيتهُ فيها.

- "أهلين."

وأشرتُ له بالدخول، وضعَ عُلب الحلوى على الطاولة وقُبلتيهِ على خدّي، وتوجّه إلى غرفة الجلوس، فجلستُ على الأريكة المجاورة له، قلتُ:

- نوّرت.

أجابني ممازحًا:

---

(١) فيكتور هيوغو.

– أمتأكدّة من هذا؟

أجبته:

– ماذا تشرب؟

– أي شيء عدا الجريب فروت من فضلك!

فلم أشعر بنفسي إلّا وأنا أضحك، فرُحتُ أداري ضحكتي، سمعتهُ يقول:

– معقول؟؟ أنتِ تضحكين؟

لم أُجبه وذهبتُ إلى المطبخ كي أُحضر له عصير الكوكتيل وبعضًا من الحلوى التي أُحَضّر، وعدتُ أجلسُ على ذات الأريكة، بدتْ زيارة أخرى مريبة في كل شيء. لكنّني رجّحتُ أنّه أتى ليصطحب أمّي إلى الإسكندرية لتأخّر الوقت. لاحظتُ كم هو خمسيني هادئ، أخرجَ غليونه الخشبي وأخذ ينفث الدخان عاليًا فامتلأت الأركان برائحته، وكأنّه يدخّن لتبقى رائحته عندي أسبوعًا بعد رحيله. ظللتُ أنظرُ إليه كل حين، على غفلةٍ منه، إلى تجاعيد عينيه الساحرة والتي زاد لون عينيه الزّجاجيّة تألقها. وبينما أنا غارقة بشرودي فيه، رنَّ هاتفي، وكانت المتّصلة أمّي ولكن جدّتي من أجابتني:

– "أيوه يا موكوسة؟"

– أين أنتم؟ تأخّرتم!!

– نحن في طريقنا إلى الإسكندرية!!

شعرتُ بأنَّ هنالكَ خطبًا ما، قلت:

- الإسكندرية؟؟ هكذا فجأة؟ ما بكم اليوم؟
- وما الغريب بالموضوع؟ اشتقت للبحر.
- البحر؟ شتاءً؟؟ "في شي منّو مضبوط."
- "آه.. دماغك!"
- لم تأخذي ثيابًا معك!!
- ستشتري لي أمّك لا تقلقي.
- هاتِها.
- إنّها تقود، لن تستطيع محادثتك.
ارتفعت نبرة صوتي، وأنا أقول لها:
- ولكنّها حادثت أدهم منذ قليل.
شعرتهم يخفون عنّي أمرًا، وحتى أدهم شعرته متواطئًا معهم. قلت:
- أريدها أن تحادثني حالاً!!
سمعتها تكلّم أمّي، وسرعانَ ما أعطتها الهاتف:
- نعم يا رنا؟؟
- ما قصّتكم أنتم؟ ثمّةَ أمرٌ تخفونه عنّي جميعكم.
فصاحت بي:
- وما الذي سنخفيه عنك؟؟ تعالي برفقة أدهم إن لم تصدّقي.
- أودُّ ذلك! ولكن عندي امتحانٌ في الغد.
- أدرستِ جيّدًا؟؟

- أجل.
وانتهت المكالمة على ما يشبه الخير، التفتُّ إلى أدهم وقلتُ له:
- اقسِم بالله أن كل شيء على ما يرام!
انفجر ضاحكًا، ثمَّ قال:
- كم أنتِ عنيدة!! تعالي نذهب إليهم. ها.. ما رأيك؟
وعاد يضحك مجددًا، لضحكته تلك شأنٌ في طمأنتني ولا أدري كيف أو لماذا، شعرتني بصدد أن أُوارب له بابًا من أبواب قلبي، وأنا غير مدركة لذلك، ابتسمتُ له قائلة:
- تأخّر الوقت!
وهكذا أمضى أدهم الليلة عندي، كنت مطمئنّة لوجوده.. جدًّا!
استيقظتُ باكرًا في صباح اليوم التّالي، ووجدتني متحمّسة لتناول وجبة الإفطار معه، ولكنّي لم أجده! انسحبَ باكرًا بعد أن تركَ لي عدّة عدّة آلاف جنيه على الطاولة، مع ملاحظةٍ يقول فيها:
"صباح الخير، وددتُ لو بقيت عندكِ لمزيدٍ من الوقت، ولكن عندي أشغال. وضعتُ لكِ مصروفك، إن احتجت المزيد أخبريني"
مصروفي ٦ آلاف جنيه؟؟؟ يا حبيبي!!

***

ودّعتُ الانتظار كلّيًّا، يوم قررَ أيضًا وبقرارٍ عاطفي أن يتركها للصّدف. لكنَّ شيئًا بداخلي تلّهفَ دومًا لرؤياه، ربّاه، كم تُقتُ لنسائمنا! لأن

تتعانق، ولأناملنا أن تذوب في يد الأخرى. كنت أذهب إلى الجامعة وأراقبُ الوجوه والظلال، علّني أراه وأدعوه لفنجان حبٍ نحتسيه على نخب الصّدفة.

لم يراسلني منذ آخر رسالة مجنونة أرسلها. غضبتُ كيف لا يسأل عنّي. أينَ أرضي من سمائي؟ لربّما أموت ولن يدري عنّي! وفي أحد الأيّام كنتُ أقوم بكتابة تعليقي الخاص على رواية "كبرياء وتحامل "للكاتبة الأسطورة جاين أوستن، يا لها من قصّة ملحميّة رائعة، ذكّرتني شخصيّة البطل "مستر دارسي" بالمستر أيمن! كلاهما كائنان ثلجيّان بجدارة، ومن خلال كلمات الرّوائيّة وشخصيّة "دارسي" استطعتُ أن أتأكّد من أنّه كائنٌ ثلجي له قلب ربيعي دافئ.

استطاعت محبوبته المتمرّدة "اليزابيث" أن تذيبه بشخصيتها العفويّة. ولكن.. ولكي يولد فجر عشقهما وجبَ عليها أن تتوقّف عن حكمها المسبق والعنيد على البشر، ووجبَ عليه أن يتغلّب على كبريائه، ولكنّي شخصيًّا اعتقد أنَّ "اليزابيث" تغلّبتْ على كبريائها هي الأخرى.

هي مسألة كبرياء إذن!!

سأجعلهُ ينطفئ إن أطفأته أنت..

لنشعلهُ يومًا سويّة..

بنَفَس واحد وظلٍ قربَ ظل..

أو أشعلهُ فيك،

قبل أن تدري..
وتبقى المسائل معلّقة!
كنتُ أحدّقُ في وجوه المارّة وتقولُ لهم عيناي:
- أبحثُ عنه، ولكن لا تخبروه بذلك.
حلّلتُ على نفسي البحث عنه خفيةً، وحرّمتُ عليها انتظاره، ففي الانتظار انكسار وفي الدهاء كبرياء! ولكن..
أليسَ في البحث ذاته انتظارٌ له؟
لا أعتقدُ هذا، قالت مستغانمي إن الكبرياء هو ألّا يراك الآخر عاريًا، وأن تحمي غموضك كما تحمي سرّك!
استعنتُ بأحلام على الحب وتوكّلتُ على الله.
عدتُ إلى المنزل، لاحتلال أربعة جدران مزخرفة، وساعة خشبيّة تدقُّ كل ساعة وكأنّها تذكّرني أن كل هذا الوقت المهدورة دقائقه، هو بالفعل من عمري.
اتّصلتُ بجدّتي، وقد اشتقتها جدًّا، ووجدتُ أن الأسبوع الذي قضته في الإسكندرية قد انتهى، وأن موعد رجوعها إلى فؤادي قد بدأ:
- أهلاً بالجدّة الهاربة.
- سبحان الله! افتحي الباب!
- أي باب؟
قالت ممازحة:

- "هيكون باب إيه يعني؟ احنا واقفين ع الباب."
قفزتُ عاليًّا وطرتُ إلى الباب، وجدتهم ثلاثتهم يبتسمون لي، فلم أستطع منع نفسي من الابتسام. شعرتُ أن ابتسامتي تلك، ليست لرؤية جدّتي كلّيًّا وليست لمعانقة أمّي فعليًّا، بل لرؤية أدهم بيننا، شيئًا ما بداخلي فرِحَ لرؤياه، لربّما لتسريحة شعره التي شابهت تسريحة أيمن.
تناولنا عشاءً سعيدًا سوية، وأخذنا نتحدّث ونضحك باستمرار، استقبلتُ ظل أدهم بترحاب وهو أمرٌ عجبتُ منه، حتى أمّي ذاتها عجِبتْ إذ قالت:
- "اللي شربتيه النهاردة.. . اشربي منه دايمًا لما أدهم يجي."
وراحت تضحك وأضحكتني معها.

***

كنت في المقهى المجاور للجامعة، أقرأ إحدى مصائب درويش الشعريّة، "لاعب النّرد "، وأذوب في كلماته، كم هو درويش هذا الدرويش!
وبينما أنا غارقة في قراءاتي وتأمّلاتي، أطلَّ فجأة من الباب وعيناه تجتاحاني، لم أعرف من منّا رأى الآخر أوّلاً، رحتُ أُطالعه بارتباكٍ واضح، وقلبي يرجوه أن يقوم بأي رد فعل، شعرت ببرودته تقتلني!
"لِمَ لا يأتي للجلوس؟ ماذا عن رسالة الفيس بوك وفنجان القهوة؟؟ "
أأرادني أن أقوم أنا بالمبادرة الأولى وأدعوهُ للجلوس؟ ولكنّي لم

أعرف من منّا رأى الآخر أوّلاً! ولم أدرِ ما هي القاعدة إذا رأى أحدنا الآخر في اللحظة ذاتها؟!

نظرَ إليّ ثمَّ إلى المكان، ثمَّ إليّ وخرجَ من المقهى!!

ذُهلتْ، صُعقتْ، أصابني الجنون!!! شعرتها ضربة قاضيّة في الصميم، وتعهّدتُ لو رأيته في المرّة القادمة أن أقومَ بقتله وشنقه وصفعه!!

خرجتُ من المقهى مغتاظة، لدرجةٍ جعلتني أنسى دفع حساب العصير الذي لم أشرب، فلحقَ خلفي النّادل كالمجنون. ركبتُ سيّارتي بغضب، ألقيتُ بالهاتف والنّظّارة الشمسيّة على المقعد المجاور، صرخت:

- "رح نسّيك إنّه الله خلقك."

وإذا بباب السيّارة الأيمن يُفتَح، إنّه هو.

يجلس إلى جواري بكلّ هدوء، أمسكَ هاتفي والنّظّارة وأمدّني بهما دون أن ينطق بحرف. أخذتهما ووضعتهما على المسند أعلى المقود.

قال بكل بساطة:

- "وشّك أحمر ليه؟ مفروسة؟"

- "ما عاش اللي بدو يفرسني!!"

فقال:

- لم أشأ أن نتحدّث في المقهى، هنا أفضل. أحبُّ الانفراد بكِ!

لم أستطع البقاءَ في عينيه مطوّلاً، وانقضتْ لحظات حارقة قبل أن يقول:

- لنتحرّك!!

أدرتُ مقود السيّارة فورًا وكأنّي بهذا قد أهربُ من عينيه، نظرتُ إليه سريعًا فوجدتهُ يعدل من جلستهِ باتّجاهي ساندًا ظهره على الباب وقدمه اليسرى أسفلَ اليمنى.

نظراته المميتة كانت تتغذّى على احتراقي، وما هي إلّا ثوان حتى أخرجَ هاتفه الـ "آي فون" ليدفن رأسه فيه، وكأنّي لا أشتعل بقربه كفاية! عشر دقائق تمضي.. عشرون.. ثلاثون.. ساعة إلّا ربع..

كسرتُ لا اشتعاله قائلة:

- إلى أين؟

-" هه؟؟ "

أجبتهُ بانفعال:

- "ممم.. حضرتك مش مركز."

رفعَ ناظرهُ إليّ وقال:

-" أي حتة.. مش هتفرق!!!!"

لمَ أغضبُ في كلّ مرّة ألقاهُ فيها؟

لم أشعر بنفسي إلّا وأنا أقف في وسطِ الشارع، حتى أصدرتْ سيّارتي صوتًا اعتدتُ سماعه من مجانين القيادة أو قبيل أي اصطدامٍ موشك!

نظرَ إليّ مذهولاً وقد سقطَ هاتفهُ من يده، صاح:

- أمجنونةُ أنتِ؟؟

- أجل، مجنونة "مش هتفرق ها؟؟ هيّا تابع الانشغال بهاتفك.

- نحن في وسط الشارع، هيّا تابعي القيّادة!!
- لا.
قفزتُ إلى الوراء لأجلس في المقاعد الخلفيّة، ثمَّ بإطلالة سريعة إلى الأمام أخذتُ هاتفي ودفنتُ بدوري رأسي فيه، وعدتُ إلى الجلوس بما اكتسبته من برود. لم ينظر إلى الوراء، ظل يخبطُ بقدميه أسفل المقعد ويتلفّت يمنةً ويسرى، السيّارات بسائقيها الغاضبين حولنا. وإذا به يخرج من السيّارة ويلف من الأمام كي يتولّى القيادة وقبل أن يفتح الباب قفزتُ إلى الأمام كي أقفله، فضربَ الزجاج بكفّه، كنتُ أضحك وهو يعود إلى الجهة الأخرى، وظلَّ يتفحصني من وراء الزجاج في انتظار أن أُكرر فعلتي وحين لم أفعل، دخلِ بسرعة وقفزَ إلى مقعد القيادة!
لم أستطع حقًّا تمالك نفسي، فانفجرتُ ضاحكة، قلت:
- تعادلنا.
وعدتُ أضحكُ في جنون، نظرَ إليّ من خلال المرآة مغتاظًا وهو يدير المقود، ابتسم قليلاً، واستسلمَ لاحقًا للضحكات حتى تعانقت ضحاكاتنا معًا، ثم قال:
- ضحكتكِ رائعة.
ولكنّه حين قالها توقّف عن الابتسام، وكأنّه يتهمنّي بإطرائه لي، ما هذا الابتلاء؟! ولكنّي كنت جدُّ سعيدة، ولفرطِ سعادتي، سألته:
- من منّا رأى الآخر أوّلاً؟

أجابني قائلاً:

- فنجانكِ عندي!!

- ولكنّي لا أحب القهوة.

- كيف هذا؟ ستحبّينها.

فعلمتُ بأنّي سأحبُّ القهوة على يديه، كما سأحب أشياء أخرى.

أضاف:

- القهوة تعلّمنا الرّضا بالحال، فهي كالحياة بمرارتها وحلاوتها، وهذا هو حالنا نحن البشر.

سألته:

- ولمَ لا تقول أنّها تعلّمنا الصبر؟

- الرّضا بالحال هو نوع من أنواع الصبر.

رحتُ اسأل نفسي: "اتفقنا للتّو؟؟ فليصفعني أحدهم."

أحببتُ قيادته الهادئة ويدهُ على المقود، كيفَ يتلفّت يمنةً ويسرى، كيف يجلس باسترخاء ساحر على المقود.

كان يقود بيدهُ اليسرى والأخرى يتّكئُ بها على الصندوق المتمركز بين المقعدين، خصلات شعره الأمامية تتطاير مع نسيم الهواء.

رائحة سيّارتي أصبحتْ أجمل!!

ولكن المجنون لم يكلّف نفسه عناء دعوتي إلى الجلوس إلى جواره، فخجلتُ أن أطلب منه ذلك، فليكن حبيبي "الشوفير"[1] إذن.

---

(١) الشوفير، كلمة فرنسية الأصل تستخدم في بلاد الشام بمعنى السائق.

سألني:

- ألن تسأليني إلى أين هي وجهتنا؟

- لا، لكَ حق الاختيار.

فرأيتهُ يبتسم برقّة وهو ينظر إليّ من خلال المرآة ويقول:

- سمعتِ بالمنيل؟؟

فأجبتهُ نفيًا.

وبعدها بحوالي ربع ساعة، أوقفَ السيّارة وترجّل منها وأقفل الباب، ولم يأتِ ليفتح لي بابي، انطلقَ من دوني ولحقتُ خلفه ضاحكة.

ما أجمل النيل الذي استقبلنا باسمًا!

***

- ألن تعترفي؟

نظرتُ إليه مذهولة.. قلت:

- لن اعترف بماذا؟

- انتظري هنا.

وركضَ خلف بائع يجرُّ عربةً في الشارع، ثم عاد ومعه كوبين، قال:

- تفضلي.

أخذته منه، سألته:

- ما هذا؟

– "حمّص بالحبشتكانات". [1]

أكلتُ ملعقة وقلت:

– مممم لذيذة!!

–" طبعًا لذيذة، مش أنا اللي جايبها؟؟"

كنّا نقف متّكئيْن على سور الكورنيش وحولنا العشاق يسيرون، فرحتُ لهم، وهنّأتهم سرًّا، ثمَّ نظرتُ إلى وجهه الجميل، قلت:

– لن أعترف بماذا؟

عاد ينظر إلي، فلم أستطع الصمود أمام عينيه، وأخذتُ أنظرُ إلى النّيل، قال:

– ما الذي حدث يوم أتيتِ لزيارتي؟؟

– هذه مشكلتك إن فقدتَ الذاكرة!!

– الحب يصيبنا بفقدان الذاكرة.

صفعني بذلك السطر من الرواية حتى كدتُ أهوي عن السور، شعرتُ بارتباكٍ طاحن، كنت أنتظر أن يشرح لي توظيفه لذلك السطر، قال:

– ذكّرتني بهذه الجملة، صحيح هل انتهيتِ من قراءة الرواية؟؟

وددتُ لو أقتله، قلت:

– لا، ليس بعد!!

– لم تعجبني نهايتها، البطلة ظالمة!!

(١) كلمة مصرية شعبية ، تطلق على كل ما يضاف للطعام ليجعل منظره أجمل،أو طعمه أطيب، حلوًا أو مالحًا، مثل زينة الكيك، أو توابل الحمص المسلوق، أو إضافات طبق الكشري بعد نضجه.

صحتُ به:

– لا تخبرني بالمزيد أرجوك، لا تُطفئ شوقي.

قال:

– "عابر سرير" هي المفضلة عندي.

قالها وكأنّه يخبرني بهذا للمرّة الأولى، كم يفقدُ الذاكرة! أجبته:

– جميل.

– هي انتصارٌ للرجال!!

– كيفَ هذا؟ وجدتهُ منكسرًا منهزمًا طوال الرواية، هذا شبح خالد بن طوبال، عابر السرير.

– قرأتها؟

– أجل. أفضّل "فوضى الحواس" أحبُّ البطلة التي خلقتْ بطلاً حبريًا لتجدهُ على أرض الواقع، كذلك عشقتُ الصّدف الهائلة التي جمعتهما. يا رجل، صدفهما تجاوزت المكان والزمان.

أجابني:

– ونحن؟؟

يا الله! كيف اختلَّ توازني!

لم أستطع الرّد. وحين كنت على مشارف كلمة، قال:

– كيفَ هي دراستك؟؟

كم يقهرني حينَ يقترب من حافة البوح فأراهُ يختبئ خلف أسوار

الكتمان المنيعة! لمْ يتركني أنعم ببعضِ حنانه، قلت:

- جيّدة.

وساد بيننا الصمت، واشتد الهواء وكأن الطبيعة قد غضبتْ علينا!!

طارت ربطة شعري وحلّقت باتّجاه النيل، فَرُحْتُ ألمُّ شعري بخجل فوجدتهُ يقول:

- لمَ أنتِ منزعجة إلى هذا الحد؟ تبدين أجمل هكذا!!

وأدارَ وجهه عني.

رحتُ أسأل نفسي: "ماذا تريد منّي يا أيمن فريد؟؟"

سألته:

- ألن نحتسي القهوة؟

- سنشربها، ولكن ليس اليوم!!

أجابني بحزم، سألت متعجبة:

- متى إذن؟

- حين تقومين بزيارتي في المنزل!!

- لا أريد القهوة.

استفزّني جدًّا، وشعرتُ بفداحة الزيارة الأولى، شعرتهُ قد تطاول عليَّ وعلى اشتياقي إليه. قال:

- عيد ميلادي الأسبوع المقبل وسيتواجد الرفاق، ولكنّك ضيفة الشرف، وسنحتسي القهوة سويّة، قهوة من صنع يدي.

- عيد ميلاد؟ يالكَ من طفلٍ مدلل!!
أجاب:
- لا أحب الاحتفالات، وخصوصًا أعياد الميلاد، ولكنَّ رفاقي أصرّوا أن يقيموهُ لي
- وما السيءُ في هذا؟ إنّهم يحبونك.
- لا أستطيع أن أجزم بهذا، بعد التخرّج ربّما سأعرف الحقيقة.
- حقيقة ماذا؟
كان سؤالاً يستدعي عينيّ في عينيه وعينيه في عينيّ، هكذا فعل حين أجاب، قال:
- البشر الآن يعيشون اللحظة، أو يحبون اللحظة وربّما من فيها من أشخاص، إلّا أنّهم لا يعنيهم حقًّا استمرارية أية لحظة، وبمجرد وجود لحظات أسعد في مكان وزمان آخر، سيدفنون اللحظات القديمة ومن فيها من أشخاص كان اسمهم الأحباب والأصدقاء يومًا! أصبح الإنسان مخلوقًا آنيًّا يلهث وراء المصالح لا أكثر!
أجبته في محاولةٍ لتذكيره بالأمل:
- ليس كل البشر بهذا السوء!
أجابَ واثقًا:
- بل وأكثر، لا زلتِ طفلةً بريئةً لا تفقه شيئًا، النسبة ضئيلة جدًّا يا رنا!!
كم عشقتُ اسمي من بين شفاهه!! قال:

- أنا محبوب لتحجّر فؤادي. والآن، أصدقائي يلحقون ورائي حينَ لا أكترث لهم، بل ويقيمون لي حفلَ عيد ميلاد.

سألني:

- أستأتين؟

أجبتهُ هازئة:

- ولكنّي لا ألهث خلفك ولا يعنيني أمرَ عيد ميلادك!

- "ينفع اشتم؟ "أخبرتكِ أنّكِ ستكونين ضيفة الشرف!

- قد أفعل، ولكن لاحتساء القهوة.

- تعالي نمشي سويّة.

لاحظتُ كم هو طويلٌ وأنا أسير إلى جواره، كنتُ جدُّ سعيدة وإن كان أمرًا أفعله للمرّة الأولى. كل الأعين كانت تحدّقُ بي، فقال:

- يا الله! كم أنتِ لافتة للانتباه.. وكأنّهم لم يروا فتاةً من قبل!!

وإذا به ومن دون أية مقدّمات أو تمهيدات أو تنويهات يُمسك يدي، لم أستوعب ما حدث. ظلّت يدي مسترخيةً في كف يده وكأنّها فريسةٌ تحب أن تُفترَس أو طائرٌ يحب أن يُحتجز!!

قالَ ضاحكًا بعد ارتكابه الجنون:

- الآن سيقل تحديقهم بنسبة ٥٠٪، "أمّا البنات فمش عارف أعمل معاهم إيه الصراحة."

كنتُ لا أزال مذهولة ويدي في قلب يده، شعرتُ بيدي جزءًا منفصلاً

عن جسدي شعرتُ بعالمي بأسره في يده، وأن عمري بين أصابعه وأن نبضاتي في خطوط يديه الجميلة. قال:

- بما تشعرين؟

رحتُ أحدّق في وجهه، قلت:

- أودّ الاحتفاظ بهذا لنفسي.

التفتَ إليّ، وقال:

- "أيه الرخامة دي؟؟"

كم وددتُ لو أقول له: "تبًّا لجبن العاشقين!"

قال وهو يودّعني مصافحًا:

- لن أقول إلى اللقاء، سأقول إلى الصدفة!!

ابتسمَ لي وانصرف، عدتُ أدراجي وبي بهجة الدّنيا. استقبلتني الجدّة بقلبٍ ضحوك قالت وكأنّها تشعر بي:

- قولي لي خبرًا جميلاً.

- حدث الجنون!!

فأضاءت وجهها أجملُ ابتسامة، قالت:

- وصيتي يا ملاك.

وصمتت قليلاً وكأنّها تستأذنني أن أسمح لها بتوصيتي. قالت:

- احفظي الحب يحفظكِ، إيّاكِ وأن تُهينيه فإن أهنته أهانك؛ فلا تهينيه في الظلام وأكرميه في النّور أمام خلق الله ليبارك لكِ فيه ويحفظهُ لكِ.

حضنتها بقلبي وروحي، وكم وددتُ لو كانت أمّي برفقتي!

***

مضتْ أيّام، ظللتُ أنتظره وكسرتُ بذلك عهدًا أخذتهُ على نفسي، كيفَ له أن يكون بذلك الجحود؟

كانَ حريٌّ به ألّا يُطفئ اشتياقي بصمتهِ، وأقلّه تبجيلاً للقائنا.

أخذتُ أراقب تحركاته من خلف الشاشات، نشاطاته في الفيس بوك، حتى وإن لم أكن في لائحة أصدقائه، ومتى يدخل ويخرج على برنامج الواتس آب!

لم أتجرأ على محادثته، شعرتهُ لا يشعر بي، فتوقّفتُ عن الشعور بأي شيء ممّا يدور حولي. وصلَ يوم عيد الميلاد، لم أكن مهيأة لاستقبال ذلك اليوم. أصبحتُ اتّبع نهج جملتهِ الأخيرة "مش هتفرق "توقّعتهُ سيتّصل بي ليجدد الدعوة، ليجدد اشتياقي وغضبي، لم يفعل، هبة فعلت. أخبرتها بأنّي قادمة بالطبع، أنهيتُ المكالمة وأقفلتُ الهاتف، وتوجّهتُ إلى النّوم، كي أفرّ من شبح التّفكير به. يا الله! كم انهارَ كل شيء، بدأتُ حينها أعتقد فعليًّا أنّني لم أحبّه وأنّها مسألة استفزاز لا أكثر، ولكن سرعان ما عادت التفاصيل الرائعة تقايضني.

استيقظتُ الساعة التاسعة مساءً، أي في بداية الحفلة. وجدتني أخرجُ من المنزل على عجل، فرارًا من جدران الخيبة والحاجة. رحتُ أبحث له عن هدية أُهديها لهُ خارج المناسبة، لم أكن لأذهب إلى الحفل،

لكنّي وجدتها فرصة رائعة لاكتشاف ماذا سيختار له قلبي.

شعرتُ بملامحي الغاضبة وبالحاجبين "ثمانية" مرسومين على وجهي بإتقان. أخذتُ أجوب المركز التجاري بمحلاته الفارهة، شعرتُ بنبضات قلبي تتسارع وأنا أدخلُ محلاً يبيع الملابس الرجالية. كان خاليًا من الزبائن، إلّا من موظّفيه الوسيمين يحدّقونَ فيّ ببدلاتهم السوداء الأنيقة وشعرهم المصفف بعناية.

ازداد اضطرابي فازددتُ إصرارًا على المُضي قدمًا في الجنون.

وجدتُ قميصًا أسودَ اللون، وكان أوّل ما وقعتْ عليه عينيّ، شعرتهُ يغريني بشرائه، أردتُ أن أرى الأسود يغطيه كي أرى لو سيليق به، ابتعته. ثمَّ بعد ذلك توجّهتُ لمحلٍ يبيع العطور، وبينما أنا أشم زجاجة عطر وأخرى تنبّهتُ للحماقة التي أرتكبها، أحببتُ عطره الذي يضع، لم أرد أن يضع غيره، فهرولتُ مسرعةً إلى الخارج، توجّهتُ إلى محلٍ يبيع الساعات، فابتعتُ له ساعةً رأيتها في إعلانٍ للممثل جورج كلوني.

***

إنّها الحياة، لوحة جرداء تنتظرنا أن نملأها بفرشاة ألواننا "الصبر" إنّها لا تدري أن الصبر لا ألوان له.

لا أدري إن نفد صبري معه أو زاد، كل الأشياء تبدو مبهمةً في حضرته ولا تقل سيرياليّة حين يلوح نسيمه في مخيلتي. أريد أن أستوطن في فؤاده لمدّة ساعة لأعرف خباياه الدفينة منها والعميقة، الطاهرة منها

والفاسدة، علمتُ حينها أنّه سيغدو لغزًا أشتهيه وها أنا الآن على يقينٍ من هذا الجنون!

تمنّيتُ من الصدفة أن تجمعنا كي ألعنه وأسخط عليه، كيفَ له أن يكون بتلك القسوة؟

تمنّيتُ لو أجدهُ في الجامعة كي يفسر لي وقاحته، كي يدافع عن نفسه أو حتى يستمر في ادعاءاته، أن يفعل أي شيء في سبيل تحريري من صمته البئيس الذي علا نباحه في عالمي..لربّما يعاقبني لعدم حضوري حفلَ عيد ميلاده.

وبعدها بأسبوعين وجدتهُ يجلس في أحد زوايا الجامعة، فتذكّرتُ آسفةً قهوتنا التي لن نشربها. وجدتني أبكي، خذلتني عيناي دمعًا، فارتديتُ نظّارتي السوداء أستر الدموع. كان جالسًا يحملق في هاتفه، اقتربتُ منه وأصبحت على بُعد خطوات منه، جزعت، أصابني الهلع، فعدتُ بحركة سريعة إلى الوراء كمن تهرب من شبح!

استعدتُ أنفاسي بصعوبة وتنهّدتُ كي أتأكّد أن حبالي الصّوتيّة لا تزال تعمل. تذكّرتُ أنّي أحملُ هديتهُ معي في السّيارة، ارتأيتها فرصة مناسبة للظهورِ فجأةً أمامه، أو حجّة مناسبة - بمعنى أصدق- توجّهتُ إلى سيّارتي على عجل وأخذتُ الهدية وعدتُ بسرعة إلى حيث كان يجلس، شعرتني عمياء لا تُبصر سواه، وحمقاء إذ أحببتُ استفزازهُ لي.

وحين عدتُ إليه لم أجده، وكأن يومي لم يحترق كفاية.

اقتربتُ من مقعده الخالي منه، وجدته لا يزال باردًا مثله، خبطتُ بكفّي على الطاولة، فرصة أخرى تضيع مني وصدفة تغدرُ بي لأنّي لم أغتنمها لحظةَ رأيته.

قُهرتُ قلبًا وقالبًا.

أردتُ الاتّصال به، لكنّني نهرتُ نفسي لاحقًا لمجرد التفكير في ذلك!!!

وجدتني أقود بسرعة إلى حيث مقابلتنا الأخيرة، شعرتُ بحاجةٍ ملحةٍ إلى ارتكاب جنونٍ يدعوني لفهم الأشياء، بدا المكان موحشًا وظلاله لا تمرح فيها. أخذتُ أمشي على امتداد الكورنيش، فرأيتُ بائع الحمّص ذاته يجرُّ عربتهُ بخُطىً متثاقلة وهو يصيح:

"دلّع وجيب أحلى حمّص للحبيب."

أكنتُ يا ترى محبوبته ذلك اليوم؟

شعرتُ برغبة جامحة في اللحاق به وسؤالهُ عن أي شوقٍ رآه في عيني رجل الثلج وقتَ ابتاع لنا الكوبين. إلّا أنّني تسمّرتُ مكاني وفي ذات البقعة التي وقفنا فيها سويّة حين تطاير شعري وقال لي إنّي أبدو أجمل وشعري منسدل. تذكّرتُهُ حين كان يقف إلى جواري متكئًا على السور بكل جاذبيّة، حين كنتُ أجهل التّنفّس تمامًا!

نظرتُ إلى أقصى اليمين.

فوجدته يقفُ متّكئًا على السور وكأن مشهد استحضارهُ في مخيّلتي يتحقق حرفيًّا، تجرّدتُ من مشاعر الحزن والغضب والعتاب والألم

والحاجة والحب، كنتُ سعيدة فقط، ومطمئنة بشكلٍ لا يوصف وهو يقف على بعد عدّة أمتار مني!!

أخرجتُ هاتفي بحركة سريعة، واتّصلتُ به.

- قف مكانك ولا تتحرك!!

قلتها بلا مقدّمات وأنا أتّجه إلى سيّارتي لأجلبَ له الهدية، وأنهيتُ المكالمة، وحينَ عدتُ إليه وجدتهُ يعاود الاتّصال بي، أجبته وأنا أسيرُ في اتّجاهه دون أن يلحظني:

- نعم؟؟

- أمجنونةٌ أنتِ؟

- ربّما، انظر إلى يسارك!!

- "اشمعنا؟"

وأنهيتُ المكالمة مجددًا، نظرَ في هاتفهِ باستغراب وهو يحادث نفسه وبحركة سريعة نظر إلى يساره حيث أخبرته ليجدني أمامه.

- "مرحبا!!!"

هكذا بدأت.. وهكذا انتهيت..

وضعتُ له الهديّة جانبًا، وابتسمتُ إليه لا أدري لماذا، وأدرتُ وجهي عنه وأنا أتّجه إلى سيّارتي! سمعته يقول من خلفي:

- والقهوة؟

التفتُّ إليه وأجبته قائلة:

- لا أحبّها.

رحتُ اسأل نفسي: "أأقفلتُ بوجهه بابًا أم أعطيتهُ المزيد من الذخائر لمحاربتي؟ هكذا تبدو الأمور بحضرته، معالم لا معالم لها، ونتائج مرهونة بالوقت، تركتها للوقت، الساعة الحياتيّة المخادعة، ولكن خلف ستار الوقت قد تُهدَر الأحلام!"

عدتُ إلى المنزل وبي شوقٌ لجدّتي، إلى الجلوس تحت قدميها ونيل تبريكاتها وأدعيتها التي لا تنتهي. وجدتها تجلسُ بهدوء في غرفة المعيشة، رأتني وحين نهضتْ تقبّلني سبقتها مسرعةً كي لا تنهض وقبّلتُ يديها، أخذتُ أنظرُ إلى وجهها، وجدتُ ملامحه مُجهدة وعلى غير العادة، سألتها قلقة:

- مابكِ؟ تبدينَ متعبة.

أجابت باسمة:

- لم أنم جيّدًا أمس.

- ولمَ لم تفعلي؟

- "بفكّر فيك يا جميل!!"

عدتُ أبتسم في قلق، شعرتُ بخطبٍ ما، لكنّها طمأنتني حين ضحكت، وهكذا تفعل جدّتي حين تكذب، نعم أقولها "تكذب!" وكلّي ألم وحسرة. عمَّ مساءٌ مضطرب وفوضى أشهدها للمرّة الأولى. احتلّتْ غرفتها وهذا أمرٌ لا تفعله وهي يقظة، فهي دومًا تحبُّ صحبتي. كانت تجلسُ على

طرف سريرها تحدّقُ في سراب النّافذة، صامتة، هادئة، شاردة الروح.
جلستُ إلى جوارها، ولم تلحظ وجودي وبعدها بلحظات حينَ فعلتْ ضحِكتْ حتى اهتزَّ جسدها بأكمله، قالت:

- "هو انتي هنا يا موكوسة؟ "

أختُ يدها اليمنى وحضنتها بكلتا يدي وأجبت:

- ألن تتناولي العشاء؟
- "الواحد ياما كَل يا بنتي!!!"
- ألن تأتي للجلوس معي في الخارج؟

قالت بصوت شبه مسموع:

- أنا مرتاحةٌ هنا!!

قالتها برضىً لا يوصف فلم أحزن لرفضها طلبي، ولأوّل مرّة على الإطلاق، قلت:

- كما تشائين، ولكن أأعدُ لكِ شطيرة مربّى؟
- " مش لازم."

عدتُ أُكرّر طلبي بإلحاح، ابتسمتْ لي ووضعتْ يدًا على كتفي ثمَّ قالت:

- أعدّيها، فقط إن اقتسمناها النّصف.

فدبَّتْ الروحُ في فؤادي ونهضتُ نشطة كي أعدّ لنا الشطيرة، وقبل أن أخرجُ من الغرفة قالت:

- رنا..

سمعتها تناديني باسمي للمرّة الأولى، فسرتْ في جسدي القشعريرة، التفتُّ إليها، إلى وجهها الباسم لي، قالت:

– لقد أخذتِ الكثير من دعواتي يا رنا!!

نظرتُ لها بصمت، وأنا في حيرةٍ من أمري، ابتسمتُ لها وذهبتُ إلى المطبخ أُعدُّ لها الشطيرة.

عدتُ إليها.

وجدتها لا تزال تجلس على طرف السرير ولكنّها متّكئة على عكازها بكلتا يديها وكأنّها تريد النّهوض، اقتربتُ منها فوجدتها مغمضةَ العينين على تلك الوضعية.

أأطيلُ الكتابة أم أكتفي بالقول إنّه المشهد الأخير؟

تركتني لهيستيريا البكاء، البكاء الذي لا يشفي بل يزيد الجسد أوجاعًا وآلامًا، تركتني لأحلامٍ ضاعت ولعمرٍ مشؤوم بلا ظلالها، لم أفهم أن دعاءها لي هو وداعٌ لي، وأن كلماتها القليلةً ما هي إلّا خروجٌ لروحها الطاهرة.

لا أذكر أي تفاصيل كانت ذلك اليوم، امتلأ المنزل بالبشر والنّواح، شعرتني جثّةً تتابع المشهد الضائع عن قُرب، أحبابها كُثر، ولكن ما الفائدة وقد رحلتْ؟

رحلتْ بسلام، ولكن ما السلامُ إذا رحلتْ؟

حاولت أمّي تهدئتي إذ أخبرتني بأنّها كانت على مشارف الموت، وعلمتُ أيضًا أنّها احتُجزتْ في المستشفى وهكذا برّروا جميعهم

رحلة الإسكندرية.

فقدتُ الإحساس بأي شيء عدا الألم والغضب.

اجتمعَ الألم والغضب.

إذن على الروح السلامة!

❊ ❊ ❊

إلى تلك التي رحلتْ..

وتركتْ خلفها وداعات مُبهمة

إلى التي سكنتْ فؤادي قبل أن أدري،

إلى النّور في الظلام

إلى الحياة

ارقدي بسلام..

نحنُ على الطريق!

أخذوها إلى وجهتها الأخيرة في الدّنيا، وبقيتُ أُصارع النّكرانَ وحدي.
نظرتُ إليها نظرة أخيرة، وجدتها تبتسم وقد حفظتْ خمسًا قبل خمس، فاجتاحني فرحٌ قليل وقد اطمأنَّ قلبي عليها. قبّلتُ يدها ورأسها، وألمٌ يعصرُ شفتي فلم أقوَ على التّقبيل. بكيتها، وبكيتُ عمري الذي ماتَ معها وعمري الذي لن أقضيه معها.
شعرتُ بمرارة الألم حين عادَ الجميع إلى منازلهم، حينَ خنقتني جدرانٌ أربعة، عادَ أدهم وأمّي إلى الإسكندرية لأنّها لم تستطع المكوث لمدّةٍ أطول في منزلٍ قد أخذَ من جدّتي الكثير، ولم تستطع إرغامي على الذهاب معها. كنتُ أبكي بلا توقّف، صوتها رجَّ مسامعي: رنا!
وأحيانًا كنت أسمعها تقول: "لا تبكي. "
لم تحبَّ يومًا بكائي، حاولتُ جاهدة ألّا أبكي، فلم أقدر، ألا أبكي أمّي وأبي وحياتي كلّها؟؟
ماتت.. ومات قلبٌ بداخلي.
مضى أسبوعٌ قهري، كان للصمت وللسكونِ صوتٌ تُصمُّ له الآذان، فلم تعد الدموع تعني شيئًا،دقَّ أحدهم الباب وكانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل.
لحظات صامتة ومربكة تمضي وهو لا يزال واقفًا بلا حراك، لم أصدّق أنّه يقفُ أمامي بوجهه الحزين ذاك.
صافحني، وقامَ بالدخول، وقال:

- البقاء لله.

- "حياتك الباقيّة."

وهممتُ أقفلُ الباب، لكنّه قال:

- اتركيهِ مفتوحًا!!

ابتسمتُ لحُسنِ أخلاقه، تركتهُ مفتوحًا، وجلستُ أمامه، قلت:

- لطفٌ منكَ أَن تأتي.

- هذا واجب، أعتذرُ عن القدوم متأخّرًا، علمتُ هذا منذ نصف ساعة فقط.

- لا داعي للاعتذار، قهوة؟؟

فوجدتهُ ينهض فجأة ويقول كمن يأمرني:

- سأعدّها لنا، أينَ هو المطبخ؟؟

هكذا هو أيمن، الفتى المفاجأة دومًا وأبدًا، أشرتُ له صامتة إلى المكان، وبُخطىً سريعة وأشبه برجال الجيش توجّه إلى هناك. توقّعتهُ سيسألني عن مكان القهوة أو السكر أو الملاعق، لكنّه لم يفعل، فاكتفيتُ باستماع الضّجة التي يصدرها في المطبخ. عادَ إليّ بعد عدّة دقائق ومعهُ فنجاني القهوة. مدّني بفنجاني وتعانقتْ أطراف أناملنا بخفّة، شعرتُ باضطرابي لكنّي لم ألمس اضطرابه. عاد يجلسُ أمامي، قلت:

- شكرًا لك.

أجابَ سريعا:

- لا شكرَ بيننا، ثمَّ إنّي وعدتكِ بها منذ فترة.

ابتسمتُ له وأنا آخذُ رشفةً منها، أعدّها باحتراف، كم أحببتها من يديه. قلت:

- لذيذة القهوة.

أجاب في محاولةٍ لإضحاكي:

" طبعًا مش أنا اللي عاملها. "

سادَ بيننا قليلٌ من الصمت، قبل أن يقول:

" حرامٌ ما فعلتِ بعينيك!"

لم أُجبه، ورحتُ أحدّقُ في كوب القهوة، وراحت الدموعُ تملأ عيني، وضعتُ فنجان القهوة جانبًا ووضعتُ كلتا يدي على وجهي وأخذتُ أبكي بلا توقّف حتى انقطعت أنفاسي، وأنا أردّد:

"ستّي ماتت.. ستّي ماتت "

لم أشعر به إلّا وهو يجلس بمحاذاة ركبتي يحاول أن يمسك كلتا يدي ليرى وجهي، لكنّني ظللتُ أبكي بلا توقّف ووجهي مُختبئ خلف يدي، كنتُ أسمعه يناديني باسمي مرارًا وتكرارًا ويقول:

- ابكي ابكي.. حتى ترتاحي.

انقضت دقائق وأنا على تلك الحال، وحين هدأتُ تمامًا وفي اللحظة التي كانت دموعي تنهمرُ على وجهي بصمت أخذ كلتا يديّ وأمسكَ بهما بقوّة، لم أستطع المكوثَ في عينيه فنظرتُ إلى ياقة قميصه ثمَّ إلى يديه ويديّ بينهما، فرأيتُ يدًا تُمسكني من ذقني وكأنّها تدعوني أيضًا لعينيه، راح يمسح دموعي بكلتا يديه ويقول:

- عيناكِ لم تُخلَق للبكاء، أتدرين خُلقتْ لماذا؟
أجبتهُ نفياً وهو لا يزال يمسح دموعي، قال:
- خُلقتا للقتل، خُلقتا لنحري.
كنتُ مدهوشة، لكنَّ حزني أطبقَ على فمي، قالَ وهو يعيد خصلات شعري إلى الوراء وكأنّهُ يريدُ وجهي كاملاً بين يديه:
- إنّها في مكانٍ لا يُقارن بهذه الغابة البئيسة، رحلتْ عنكِ بجسدها فقط، لكنَّ روحها لا تزال هنا.
وأشارَ إلى قلبي وأركان البيت، ونهض ليجلس إلى جواري ـ جدّاً ـ وكانت لحظات أخرى صامتة، لكنّني عشقتُ الصمت في حضرته، ولم يمكث سريعًا بعدها إذ أحرجنا الوقت.
قال قبل أن ينصرف:
- قهوتنا التّاليّة ستكون أسعد!! وبهذا ستتوازن المعادلة.
بدا واثقًا وهو يقولها، وآمنتُ بالأمل جرّاء وعده.
أضاف:
- اتّصلي بي إن احتجتِ أي شيء.
ومدَّ يده يصافحني فوجدته يرتدي الساعة التي أهديته إيّاها، فسررتُ لذلك. قلت:
- لم تأتِ الفرصة لكي أقولَ لك: "عيد ميلادٍ سعيد"
أجابني وهو يتراجع خطوات إلى الوراء:

- بل أتت بضع فُرص، لكنّكِ خذلتها!! رنا....
- "هه ؟؟"

شعرته سيتفوّه بقنبلة جميلة يُلقيها في قلبي قبل أن يرحل، فقال:

- هذا ليس بالوقت المناسب للتحدّث في هذا الأمر. "بعدين.." تصبحينَ على أحلام.

وانصرف.

أقفلتُ الباب بهدوء، أفكّرُ بالحلم الذي انصرف!

نظرتُ إلى جدران البيت، فوجدتها هالكة مُهلكة، شعرتني جسمًا غريبًا يتلفّظ في أرجائه، جسمًا يودُّ البيت لو يلفظهُ خارجًا حتى يعيش في أحزانه إلى الأبد!

أدركتُ ضرورة انتقالي إلى بيتٍ آخر.

***

لم تعارض أمّي الفكرة أبدًا، بل كانت أكثر من مرحّبة لها، ولكنّها اشترطت أن يقوم أدهم بجميع التجهيزات، ولم أمانع كذلك على الإطلاق.

وبعد أن حادثتها هاتفيًّا، رحتُ أبحث عن الاسم "أيمن" كي اتّصل به، وإذا به يسبقني باتّصاله، وجدتني أضحك، أجبته:

- "مرحبا."

واسترسلتُ في ضحكاتي، أجاب:

- يا الله! عُدتِ تضحكين، وهل لي أن أعرف السبب؟

وجدتني أمام خيارين، إمّا أن أقول له عن السبب ببساطة، أو أن أقول له عن أي شي وبذلك أصبح "واد تقيل":

- كنتُ على وشك الاتّصال بك.

- أحقًّا؟؟

- أجل.

- "امممم"

"اممم" هذا ما استطاع قوله فقط؟ "امممم!!"

صمتُّ قليلا فوجدتهُ يقول:

- ما بكِ؟

- "ما بني شي."

- عندي سؤال.

- اسأل!!

أجاب:

- ألا زلتِ ترتدين الأسود؟

- أجل.

- أبهذا تترجمينَ حزنكِ على الجدّة؟

- لا، لكن الألوان الأخرى تبدو أسعد.

- إذن ارتديها.

وجدتهُ يؤكد لي أن الأسود ليسَ لوني، قلت:

- قد أفعل حينَ أسعد!!

فعاد يسألني:

- ولما لا تسعدين حين تفعلين وترتدين ألوانًا أخرى؟

لم أفهمه.. فلم أستطع الرّد، وإذا به يلفظ اسمي بكل جاذبية:

- رنا..

أجبتهُ كالضائعة وأنا اتلّهفُ مسبقًا لما سيقول:

- نعم؟؟

- "اقفلي دلوقتي هكلمك بعد شوية."

كنتُ على وشك أن أُصاب بجلطةٍ دماغيّة أو أكثر ولكنّي سرعانَ ما انفجرتُ ضاحكة جرّاء توتّرٍ واشتعالٍ مهدور. اتّصلَ بي بعد ساعتين ولم يعتذر حتى عن تأخيره، قال:

- عمَّ كنّا نتحدّث؟

"ولمَ لا تسعدين حين تفعلين وترتدين ألوانًا أخرى؟؟"

أجابَ تمرّدي:

- لا أذكر!!

صمتَ قليلاً ثمَّ قال:

- أجل، اللون الأسود.

وأردفَ قليلاً:

- صحيح، هل انتهيت من قراءة الرّواية؟
- لا، وكم أشعرُ بالذّنب لهذا، سأفعلُ هذا قريبًا.
- الأسود يليقُ بكِ.
توقّفتُ عن الحراك تمامًا حينَ قالها، اعتقدتها من أجمل الأشياء التي من الممكن أن يقولها لي أنا والأسود معًا. قال:
- رواية عظيمة.
رحتُ أعضُّ على أسناني بغضب، وقلت:
- بالطّبع!!
- رنا.. .
حينَ ناداني مجددًا، شعرتني لا أكترث حقًّا لما سيقوله بعدها، أجبتهُ لا مباليّة:
- نعم؟؟
- الأسود يترجمك، وأريدكِ غير قابلة للترجمة، أقلّها لي!! انتظري قليلاً!!
وضعتُ الهاتف جانبًا في إعياء الورطة.. الصدمة.. الفرحة!!! ورحتُ أنتظر عودته كي يشرح لي جنونه الذي أحب.
- رنا..
- هه؟
- أرسلتُ لكِ رسالة الآن، اقرأيها
- طيب.

- سلام.
- مع السلامة؟؟؟
"حبّي للأسود وهو يغطّيكِ لا يعني انعزالكِ للألوان الأخرى، ارتدي الألوان كلّها كي احتارَ فيكِ ويحتار العالم أجمع، الأسود يجعلكِ شفافة أمامي وكأنَّ الحروف الأربعة لكلمة "أسود "قد خُلِقتْ لتترجمك، أتدرينَ كيف تترجمك الحروف؟ "
كان يعلم أن صبري سينفذ إن استخدم الحروف ضدي، أرسلتُ له بشوق:
- "كيف؟؟ "
كنتُ أحدّقُ بالهاتف في انتظار ردّه، ساعة تمضي.. ساعتان.. ثلاث.. أربع.. وأنا أحاول محاربة يدي وجسدي ألّا يتصل به. انقضى اليوم ببطءٍ شديد وقد كرهتُ الساعة. فآواني الليل بيأس، ونمتُ بانكسار.
وكان أن أمسكتُ هاتفي لحظةَ استيقظت، وكان الهاتف لا يزال هالكًا من دون رسالتهِ المنتظرة، فرحتُ ألعن أيمن فريد وانتظار أيمن فريد.
وحين تسلّق اليأسُ أكتافي وحمّلني جبال الانتظار الضائع، أضاءت شاشة الهاتف، فأمسكتهُ بحذر وأنا أُطالع الشاشة، رسالة من أيمن فريد، افتحيها يلعنكما الله معًا!!!
"الأسود.. حروفه أنتِ.. .
أنيقة
ساحرة

وحيدة

دافئة.. .

صباح الورد"

فعدتُ أشتاقهُ من جديد وأبسم لتلك الرسالة الآسرة، حرف "الواو" يشبهني، ولكنّي لم أعلم أنّني حرف "دال" في الأسود، وفرحتُ لكوني حرف "الألف" و"السين" من وجهة نظره!

شعرتهُ يسحبني شيئًا فشيئًا من أمواج الحزن، وكم نجحَ في ذلك!!

***

ارتديتُ رداءً أسود، وكسرتُ حدّته ووضوحه بلونٍ زهري، فعلتُها له بلا شك، وأنا لا أدري إن كنتُ سآراهُ أم لا.

بدا انعكاسي مجهدًا ومتعبًا للغاية وأنا أطالعُ نفسي في المرآة في السيّارة قبل أن أترجّلَ منها، لاحظتُ خطوط الألم الرفيعة وهي تشقُّ طريقها في وجهي. لم أجد نظّارتي الشمسيّة حتى أغطّي ما فعله الموت في وجهي.

سرتُ باتّجاه بوابة الجامعة وأنا قلقة من مواجهة النّاس، من الاستماع إلى تعازيهم ورؤية الأسى في أعينهم، حينها..

وجدته، ينظر إليّ تمامًا وهو يجلس في مقعد سيّارته.

كانت ملامحه أشبه بمعادلة رياضيّة معقّدة، يده اليسرى على المقود والأخرى ممتدّة ليُطفئ بها مشغل الأغاني، فيروز كانت تغنّي:

"أهواكَ بلا أمل "
لا أدري لمَ أطفأها فورَ رؤيتي.
وفي حين اضطرابي، اجتزتهُ، فناداني.
التفتُّ إليه ومن ثمَّ ابتسمت.
ترجّلَ من سيّارته السوداء، ووجدته يرتدي قميصي، يا إلهي كم بدا رائعًا عليه!
قال:
– اقتربي.
دفعني النّسيمُ إليه وشعرتُ بالأرض تسيرُ عوضًا عنّي إليه.
صافحته بخجل وهو ينظرُ إليّ تمامًا، قال:
– سآخذكِ بعيدًا عن هنا، لستِ مستعدّة لمواجهة الناس بعد.
أجبتُ:
– محاضرتي بعد ساعة!!
– إذن، عندي نصف ساعة لإعادة تجنيدك.
– "شو قصدك؟؟"
– اركبي.
وجدتني أبتسم مجددًا، اقتربتُ صوبَ الباب لكنّه سبقني ليفتحه لي، قال بحنان:
– تفضّلي.

وأقفلَ الباب، فأخذتُ أنظر إليه من خلف الزجاج وهو يتّجه إلى الباب الآخر ليجلس إلى جواري، أحببتُ وجهه جدًّا.

جلسَ ووضعَ هاتفه جانبًا، وقال بجديّة:

- "أديني سبت التلفون عشان ميحصلش زي المرّة اللي فاتت. "

وأضافَ سريعًا:

- "إيه ده؟؟ دا أنا اللي سايق صحيح!!"

وقهقهَ قهقهة واحدة أضحكتني بجنون!!! فقال:

- كم اشتقتُ لضحكتكِ!!

كان ينظر إليّ كل حين، نظرات يخطفها خلسة، أتراهُ قرأ شوقي إليه وقتها؟ أتراهُ قرأ ملامح الحاجة واللهفة إلى ظلّه الطويل؟

سألني:

- ماذا تشربين؟؟

- لا شيء، شكرًا.

نظرَ إليّ مستنكرًا ورفعَ حاجبًا قبل أن يترجّل من السيّارة أمام إحدى محالّ العصائر.

أخرجتُ مرآتي لأتحقق من هيئتي، فوجدتُ إشراقة جميلة على وجهي، وحتى خدّيّ، تورّدتا خجلاً وحبًّا.

بدوتُ أجمل يا مستغانمي.

وبعدها بدقائق عاد ومعه كوب عصير واحد، نظرَ إليّ وقال شبه مبتسم:

– لستُ بخيلاً أو ما شابه، لكنّي أردتُ شيئًا نتقاسمه سويّة!!
أغرمتُ بما قاله فورًا، قال وهو يمدّني بالكوب:
– اشربي أوّلاً!!
أخذتهُ منهُ على استحياء، ورشفتُ الرّشفة الأولى من خلال القشّة، قال:
– "هنسمع الكلام إمتى؟؟"
حدّقتُ في عينيه وأنا أمدّه بالعصير، قلت:
– ما قصدك؟؟
أخذ يشرب من العصير ولم يجبني وعادَ يمدّني به، ثمَّ أدارَ المقود سريعًا.
ظلَّ صامتًا طوال فترة قيادته إلى أن وصلنا أمام أحد المراكز التّجارية.
ترجّلَ من السيّارة من دوني وكعادته أشارَ إلي بالخروج من خارج السيّارة. يا للوقاحة!!
اقتربتُ منه وإذا به يُمسك يدي ودون النّظر في وجهي، وقال:
– كما اتّفقنا مُسبقًا!!
فعادَ يقتلني به.
دخلنا إلى المول يدًا بيد.
كانَ يسير وهو يعلم إلى أين هي وجهته، إلى أن وصلنا إلى محل فاخر يبيع الأزياء النسائيّة، دخلهُ كالأسد وأنا معه كلبؤةٍ ضلّتْ طريقهاً! تركَ يدي واختفى في أرجاء المحل! وبعدها بحوالي عشر دقائق فقط، ظهرَ أمامي فجأة وقال:

- ارتدي هذا وهذا، سأنتظركِ هنا!
صحتُ به:
"بحياة الله؟؟ "
نظر في ساعته وهو يجيب:
" الوقت يمضي، هذا جزء من تجنيدك.. "يلا "
وابتسم.
حينَ يبتسم، تبتسم معه الحياة ببساطة.
وجدتني أمام بنطال جينز أزرق وكنزة ملوّنة، فيها الأحمر والأصفر والبنّي والأزرق والبرتقالي. وجدتهُ يدعوني إلى الفرح وإلى ترك الأحزان جانبًا، إلى احتساء أكواب الأمل!
ارتديتُ ما أحضرهُ لي وقد ناسبني جدًّا وخرجتُ أبحث عنه. وجدتهُ يقف عند باب المحل وحين رآني ابتسم بسعادة وهمستْ شفتاه:
- رائعة.
وقال وهو يمسكُ يدي:
- الآن عدتُ أحتار فيكِ، وما عدتُ أدري، أأنتِ فتاة الأحمر العدوانيّة المسيطرة والمليئة بالعاطفة؟ أم أنّكِ فتاة البرتقالي النشيطة والمحبّة للمرح والحياة؟ أم أنّكِ مخلوقة زرقاء وفيّة ولا تعرف سوى الجد والعمل؟
ثم عاد يتفحّص الكنزة ليصف باقي الألوان، وقال:
- أم أنّكِ صفراء منطلقة تُفضّلين الفوضى على الالتزامات؟ هكذا

أفضل يا رنا!!

أجبتهُ وقد انبهرت تمامًا بتحليله للألوان وقلت:

- والبنّي؟؟

أجاب بثقة:

- في اللون البنّي أنتِ واقعيّة وتجريديّة وتفكّرين دومًا بالحب المثالي، "اللي مش موجود أصلاً. "

يا الله!! يفتحُ بابًا ويُغلق عشرة!!!

***

عدتُ احتار.

هذا هو الأمر ببساطة، إذ أنّني ما عدتُ أميّز بين الحب واللا حب.

كم اعتقدتُ الأشياء، وكم تسارع قلبي في تحليل ما يفعل إلّا أنّي سرعانَ ما أُدركُ عكس ما اعتقدتْ. أحيانًا كنتُ أشعرهُ يتلذذ بضياعي، وأحيانًا كنت أشعر أنّي مجرّد إنسانة غالية يعرفها، حالة استفزازيّة بلا شك.

بنيتُ آمالاً وآمالاً بعد لقائنا ذاك، لم أفعل ذلك عن قصد، كانت الآمال تبني نفسها وكأنّها تشتهي أيَّ فرحٍ كان. لكنّهُ عاد لاختفائه الأوّل، لانسحابه المباغت وكأنّه يريد أن يساوي مقدار اهتمامه بي بتجاهله لي، ومقدار اشتياقه لي بلا اشتياقه. لم أجد سببًا يمنعني من الانجراف وراء تمرّدي، فأرسلتُ إليه دعوة "صداقة " على الفيس بوك وبهذا ألقيتُ جانبًا جنونًا قد يجمعنا، لكنّها لم تكن دعوة للصداقة قدرَ كونها

دعوة للنّزال والاستعداد لمجازر نفسيّة ساحقة.
أردتُ أن أجرّب برودتهُ خلف الشاشات، أن أدخلَ معه في نقاشاتٍ وأحاديث علّني أستطيع البوح بكل الأشياء التي ما استطعتُ قولها أمام عينيه.
أرسلتُ إليه الدعوة وقلبي يرتجف بين أضلعي الساهرة، ممّا زادَ عقلي اصرارًا على القتال!
ماذا توقّعت؟؟
توقّعتهُ سيتّصل بي ليخبرني إذا كان هذا ما أريدهُ حقًّا، أو أقلّها يرسل إليّ رسالة يطلب فيها توضيحات مناسبة لما فعلت!
فلتذهب توقّعاتي معه إلى الجحيم. لم يفعل شيئًا، بل إنّه لم يقبل الدعوة وقت إرسالي لها، بقيتْ عنده يومين معلّقة على حافة اشتعالي لعلمي أنّه يدخل يوميًّا وبشكل معتاد على حسابه.
وحينَ قبِلها، شعرتُ بالغضب والفرحة معًا، وابتسمتُ فرحة وأنا "أجزُّ على أسناني."
وإذا به يُرسل رسالة عابرة:
"نوّرتي"
شعرتهُ قد قبِلَ الصداقة التي لن تتجاوز قلبينا، أجبتهُ بأخرى:
"أشكرك."
قرأ الرسالة ولم يجبني.
شعرتُ بضياعي حقًّا، وافتقدتُ لظلال جدّتي معي، اشتقتُ نصائحها

وكلماتها، شعرتُ بوحدتي، فعادت الدموع تخنقني!

وفي أحد الصباحات، وقبل أن أتوجّه إلى الجامعة، وجدتُ أدهم ينتظرني قبالة منزلي، وفور رؤيتي له أدركتُ كم اشتقته وكم مبهجٌ أن أراه، قال وهو يخلع نظّارته السوداء باسمًا:

- اشتقتُ القمر، فهل اشتاقني؟

أجبتهُ باسمة:

- "يا هلا"

أخذني بين ذراعيه، ثمَّ قبّلني بقوّة على خدّي "الأيمن"، قال:

- "عايزك فمشوار صغير."

- خير؟

- تعالي لتكتشفي بنفسك.

وانطلقنا في سيّارته، قلتُ لهُ وأنا أنظر في هاتفي:

- لا أحب المفاجآت.

أجابَ واثقًا:

- ستحبّينَ هذه المفاجأة.

لم يقد سوى لمدّة عشر دقائق، ومن ثمَّ أوقف السيّارة في منطقة سكنيّة جديدة. بدأت الرؤيا تنكشف، ابتسمتُ له وقد علمتُ ما هي المفاجأة ولكنّي سرعان ما شعرتُ بالحزن بداخلي إذ آلمني واقع هجر المنزل الذي جمعني وإيّاها؛ جدّتي الحبيبة!!

وجدتني أمام فيلا أرضيّة صغيرة، أعجبني تصميمها الخارجي جدًّا، أُعجبتُ بالحديقة الخارجيّة الخضراء، زهور ونخيل، ونافورة مائيّة تتراقص فيها المياه بنفس واحد.

شعرتُها بداية لي، ونهايةً لما فات!

وجدتُ حارس الفيلا العم سيّد والذي عرّفني به أدهم، وبعد ذلك دخلنا إلى الفيلا، فوجدتها تستقبلني بفرحة، وجدتها جاهزة لي ولبدايتي الجديدة.

سمعتُ أحدهم يصفّر، ونظرتُ إلى حيث الصوت، فوجدتها أمّي تجلسُ في زاويةٍ من الزوايا. ركضتُ إليها وقبّلتُ كل ما فيها، ورحتُ أبكي وكانت تبكي معي، ولا ندري إن كان فرحًا هو بكاؤنا أم اشتياقًا لجدّتي، أو كليهما!

كنتُ جدُّ سعيدة بوجودها، وبينما نحن نتحادث عمّا فاتنا وجدتها تقول:

- رنا، لم يمضِ شهر واحد على وفاة جدّتك. لما ترتدين هذه الألوان؟

أيمن.. إنّها تذَكّرني به، باختفائه.. بغيابه.. بجنونه.. وبضياعي!

قلت:

- هناك حجرة في قلبي ستظلّ ترتدتي الأسود دومًا وأبدًا.

وأضفتُ حاسمة:

- ارتدائي للأسود لن يعكس هذا، بدليل أنّي سأتوقّف عن ارتدائه بعد انقضاء فترة معينة على موتها. إذن لم ارتديه من الأساس إن كنت

سأخلعه لاحقًا؟

إجابة "أيمنيّة "بدرجة اشتياق.

❋❋❋

يا الله كم اشتقته!!

اشتقتُ صوتهُ ويديه، وحتى برودته القارصة.

وجدتني ذاتَ ليلة متأخّرًا، أتجمّل، أتعطّر، أتزيّن وكأنّني على موعدٍ مع الحب، لكنّه حبٌ صامتٌ لا يتكلم. تركتُ شعري ينسدل على امتداد ظهري، رحتُ أبعثرهُ بدلال، وأضحكُ لاحقًا من نفسي وأنا أُدركُ جنوني الأجن.

كان تأمّي قد عادت إلى الإسكندرية وتركتني بمفردي للمرّة الألف.

تمددتُ النّصف على السرير، وخبّأتُ أطراف قدمي تحت الغطاء القطني، ووضعتُ مخدّةً من خلفي، وبعثرتُ شعري للمرّة الأخيرة، وأمسكتُ باختراع جراهم بيل.

أربعة وعشرون يومًا كفيلةٌ لبدء الجنون معه، فبدأتُ بإشعال الفتيل على الفيس بوك:

- مرحبًا.

2:48am

- أهلاً.

2:48am

- كيفَ أنتْ؟

2:48am

- بخير.

2:50am

- وأنتِ؟

2:55am

- بخير.

2:55am

وسادَ صمتٌ توقّعتهُ سيحدث.

تمنّيتُ لو استطعتُ أن أخترق شاشة هاتفي لأصل لشاشة هاتفه لأرى ما يفعل، لا أكترثُ بأمر أن يحادث غيري قدرَ ما يقهرني صمته القارص. وبعد عشر دقائق أخرى سألني عن دراستي والجامعة والامتحانات، أجبته على قدر السؤال، ظننتنا تجاوزنا ذلك الهراء لكنّنا لم نفعل!!!

رحتُ أبحث لي عن مكانتي عنده؛ أخت عزيزة؟ أم صديقة يتشرّف بمصادقتها؟ أم أنّني تلك الحبيبة التي تستفزّهُ لدرجةٍ تجعلهُ لا يود بدء العشق معها؟ أم أنّني "تلك "التي لا يريد امتلاكها؟

"أحبّك.. وأكرهك..

أحبّك لاستفزازي وجعلي أحبّك..

وأكرهكَ لتدمير خلايا دماغي"

إنَّ الحبَّ بيننا – وإن كنتُ لا أدري حقًّا إن كان _حبّاً_ هو انعدام لحاسّة العقلانيّة وانجذاب لطرفين ممغنطين، تراهما متشابهين جدًّا، لكنهما في تنافرٍ دائم، كخطّين متوازيين، لن يلتقيا أبدًا، لكنّهما في النهاية قرب بعضهما البعض، دومًا على الجوار، على ذات الدرب وإلى ما لا النهائيات!

وفي الدقيقة الثّلاثين بعد الثالثة صباحًا، أرسلَ فضولي:

– ماذا تفعل؟

أجاب بعد ثلاث دقائق:

– لا شيء!

– ليلة هنيئة.

أجاب فورَ قراءته لها وكأنّي لم أنهِ الليلة:

– وأنتِ ماذا تفعلين؟

فإذا بالغضب يستريح:

– أحادثك!!

– كيفَ أصبحتِ الآن؟

3:32am

– أحاول الابتعاد عن جدران الألم.

3:32am

– جميل.

3:33am

– رنا، أأستطيع أن اسألكِ سؤالاً؟ ولو على سبيل المرح؟

3:35am

شيئان توقّعتهما..

إمّا أن يدوّخني السؤال، أو أن أُلقي بالهاتف على الجدار.

– اسأل.

3:35am

أجاب في ذات الثّانيّة:

– ما هو أول شيء خطرَ ببالك حينَ رأيتني للمرّة الأولى؟

3:38am

أعجبني السؤال فَعَلَتْ مع الخجل ضحكاتي:

– لا أدري ما هو شعور المرّة الأولى، ربّما لأنّي لم أعرفك!!

3:39am

– وأين رأيتني أوّلَ مرّة؟

3:39am

– ألّا تذكر؟؟؟؟؟؟؟

3:39am

– لا!!

٣:٤٠am

يا صبر، صبّرني!!

- في الإسكندرية، صيف العام الماضي.

كيفَ له أن يجهلَ هذا؟ إنّه يوم شاكسني الحب، يوم الجنون الذي أحدثهُ في كُلّ أفئدتي.

يوم الضوضاء التي أشعلها في كبريائي المُبجّل!

رحتُ أحادث نفسي: "يخرب بيتك!! مابتتذكر؟"

أجابَ بعدها بأربع دقائق:

- لقد كنتُ بالفعل في الإسكندرية العام الماضي.

وأردفَ سريعًا:

- "بس مش فاكر إني شفتك خالص."

3:44am

نهضتُ عن السرير بغضب، ألقيتُ بالهاتف جانبًا، ورُحتُ أضمُّ شعري وقد شعرتُ بحرٍّ مباغت يجتاحُ جسدي في ليلةٍ شتوية! عدتُ أُمسِكُ الهاتف وأنا ألعن وأُحسبن، وجدته قد أرسل علامة استفهام واحدة، ربّما هي بمعنى: إلى أين ذهبتِ؟ أو هل قهرتُكِ كفاية أم لا؟!!

علامة استفهام واحدة أمام مليون علامة تعجب واستنكار.

أجبتهُ وكأنّي أُدافع وبشراسة عن أولِ ذكرى جمعتنا:

- كنّا في الإسكندرية، تقابلنا عند سلالم الشاطئ ؛ شاطئ العجمي.

وعُدتُ أدافع مجددًا:

– وتقابلنا مجددًا يومها، كنتُ في شرفةِ الفيلا المقابلة للشاطئ ورأيتُكَ تدخل الفيلا المجاورة لنا.

3:45am

– "كمان؟ مش فاكر خالص، طيب كنت لابس إيه ؟ "

3:49am

أجبتُ وقد تأكدتُ إنّهُ يهذي لامحالة:

– "أكيد ما بتذكّر."

3:49am

وبعدها بخمس دقائق، أرسلتُ له:

– سأخلدُ إلى النوم!!

أجاب:

– "عايزة تنامي ها؟ طيب تصبحي على خير !"

3:56am

أنام؟؟

لم يدرِ أن النّوم قد طار، والقلبُ من أمرهِ احتار!!

حاولتُ جاهدة أن أنام، لكنّي ما استطعتُ، فأخذت أقرأ محادثتنا مرارًا وتكرارًا، في المّرةِ الأولى كنتُ أهزّ قدمي بغضبٍ واضح.

وفي المّرةِ الثّانيّة وجدتني أبتسم مغلوبةً على عشقي.

والثّالثة تيقّنتُ منها أنّهُ ما كان يجب عليّ أن أحادثهُ من الأساس، ولكنّي

سرعانَ ما عدتُ ابتسم، مغلوبةً على اشتياقي!

عانقَت السّاعة أطراف الخامسة صباحًا وأنا لم أنم وقتها بعد، أتقلّبُ يَمنةً ويُسرةً ويعاندني النّعاس، وحين غفوت دقّت ساعة السابعة، موعد نهوضي واستعدادي للجامعة، رحت اصرخ:

"عايزة أنام، سهرنّي على الفاضي سي أيمن."

توجّهتُ إلى الجامعة، شبه نائمة، حتى إنّي خِفتُ أن أقود فأوقفتُ سيارة أجرة، شعرت بالرؤيا قد أصبحتّ ضبابّية، لا أرى جيّداً ولا أسمعُ جيّداً!

تعطّلَ جهازي العصبيّ النّصف، بالرّغمِ من كونها ليست المّرة الأولى لي أن أسهر ثُمَّ أستيقظ باكرًا، أصابتنيَ لعنة ليلية اسمها أيمن، لعنة أحبّها وأمقتها في ذاتِ الحب.

وجدتني أستوطنُ فيه، في غيابه، في صمتهِ، ولا أدري ما هذا الابتلاء، فتراني أُكابرُ بصمتي أنا الأخرى وأنا في الحقيقة أتبعثرُ من صمتنا معًا!

كنتُ أحيا أيّامي لأكتشف لاحقًا أنّني لم أحيها ونسيمهُ ليسَ في الجوار.

كم اشتقتهُ! كم كرهته! كم أردتهُ أن يعلم بكلِّ مشاعري ومن ثمّ الهروب والاختفاء فلا مجال للمواجهة!! أحدنا سيختنق إن تواجهنا والآخر سيُعدَم بالكبرياء.

شعرتهُ يعاند الحب بالكبرياء فيبني بيننا قلاعًا من الصّمت، وأحيانًا أشعرهُ فقط لا يبالي وأنّني "أُخرى "عرفها.

أخرى أنا أم حبيبة؟!!
سؤالُ سألتهُ حتّى ملّني السّؤال واحتارت في أمري الحيرة وضاع من ظنون قلبي الضياع. كان لابد لي من المحاولة مجددًا ولو على حسابِ تمرّدي، ولو على حساب صمتي الذي أتقنتهُ منه.. وله!
أمسكتُ بالهاتف،
عليكَ اللعنة ياغراهم بيل! أوصلتنا إلى حربِ خلف الشاشات.
سألتهُ:
- ألم تلاحظ أمرًا ما ؟
أجاب كمن يدّعي الجهل:
- ماهو؟
استجمعتُ أصابعي ثُمّ ارسلت:
- أنّني دومًا من تسألُ عنك، ودومًا من تكسرُ الصمت.
أضفتُ واثقة:
- قد يكون هذا لكرمِ أخلاقي، لكنّني سأتوقّف عن هذا قريبًا!!
فأجاب في ذاتِ اللحظة:
- تتوقفين عمَّ تحديدًا؟!
- كسر الصّمت.
لم أعنِ "كسر الصّمت" قدرَ ماعنيت "أن اشتاقك."
انتظرتُ ردّهُ لعدّة دقائق وأنا على مشارفِ أن أفقد عقلي، أجابَ أخيرًا:

- قد تكون تجربة مفيدة بالنّسبةِ لكِ من حيث تعاملاتكِ مع النّاس!! J

- تجربة مفيدة؟! قد تكون درسًا قيمًا في اللامبالاة.

- لامبالاة؟! أنا! لامبالاة؟ أنا؟

مُجرم يتفنّن في جعلي أنا المجرمة.

- لم أقصدكَ أنت!!

- "أومال؟ "

وأضاف سريعًا:

- أبهذا تقولين أنّني لا أسأل عنكِ أبدًا؟

- نعم.

- أبدًا؟!

ياالله! ابتسمتُ لمحاولاتهِ اليائسة، فأجبته:

- لاتحرج ذاكرتي، مرّتين ربّما!

وسادَ الصّمت، فعُدتُ ألعن قراري بمراسلته!

لصمتهِ أبعاد لا يدركها سوى احتراقي، الانتظار معهُ يصبح برتبة احتراق، كلاهما على وزن "افتعال "وكم فعلَ وافتعلَ هذا الأيمن بي.

انتظرتُ ردّه، مضت ساعة قهرًا، ثُمَّ آواني النّوم. وحين أشرقتْ شمسُ الصّباح:

"لقد غفوت وأنا أحادثكِ!! "

ضحكت جدًا وبالرّغمِ من خلوِ فؤادي.

هو هكذا دومًا وأبدًا، يَختفي كيفما يشاء، ليجعلني أكثر مخلوقات الله

معرفةً بالصّمت والوحدة، والاشتياق، ثُمَّ يعود ليظهر من جديد دونما سابق حب ليُبهرني ويُبهر أيامي ويملأ الفراغات الأدق في فؤادي، يظهر ليحقق لي حلمًا جميلاً لطالما اشتهيتهُ، يظهر ليُحدث "كركبة مبهجة"، ومن ثُمَّ يعود لاختفائهِ الأوّل، كلُّ شيء عنده بمقدار، الصّمت بمقدار والجنون بمقدار!

كم أجرمَ في حقي دون أن يدري!! أو تراه يدري خفيةً ويتلذذ فيما يحدثهُ من زلازل عاصفة في مكنوناتي؟ لكنّني ما أظهرت لهُ قط أي توابع لأعاصيرهِ التي يشنّها على قلبي، ما انفجرت قط غاضبة أو باكية أمامه.

لربّما هو لذلك ينتظر على عرشِ كبريائهِ؟

يريدني أن أبدأ الحب، كما بدأت الحرب، كي أترك لهُ المجالَ مفتوحًا على مصراعيه لاختيار أسلحة مناسبة لإرباكي، كلمات تحمل آلاف المعاني وابتسامات قاتلة وصمت فتّاك.

هكذا هي حروبه معي، وكم يقهرني السّلاح الأوّل!!

قد تبدو كلماته واضحة وصريحة، وذات مغزى، ذات مغزى لإعادة تأهيلي لغويًا ومعنويًا وحياتيًا.

كم أفقد القدرة على النّطق والفهم والكتابة، فأجدني وعلى الرّغم من ضياعي أُرحّبُ به عدوًا، كما أُرحّبُ به حبيبًا.

لم يكن أمامي سوى خيار واحد؛ أن أتجاهله حتى وإن كنت مدركةً تمامًا أنّني بتجاهلي إياه سأكون بذلك أتجاهلُ نفسي وأتجاهل كُلّ

الأشياء من حولي، رُحتُ أُصبّرُ نفسي بجملةٍ نقولها عبثًا وإن كنا لا نعنيها حقًّا بحقّ من نحب:

"من يظنُّ نفسه؟ "

أجل! من تظنُّ نفسك؟ من أنت لتقرر إشعال وإخماد الحُب بداخلي؟ كأن لا بدَّ لي من رفع شعارات حظر تجوالهِ في فؤادي، كان لابدَّ لي أن أمقُتَ انتظاره وما بعد انتظاره فبمَ يفيد الانتظار؟ كان لابدَّ لي أن أبتعد. فاختفيتُ الضِعّف، وغِبتُ الضِعّف، وصمتتُ الضِعّف!!

لكنّ طيفه كان يُقلِقُ مُخيلتي بين الحين والآخر، اشتاقهُ قلبي وعيني وأذني ويدي، فوجدتني أعوّد نفسي ألّا أشتاقه!!

وأملأ أوقاتي بكلّ الأشياء التي ستُغني عن اشتياقه والابتسام لذكراه، وبذلك ودعتُ الصدف بيننا.

جنّدتُ نفسي ضد الحُب والاشتياق، ولأنّنا حين نتوقّف عن تمنّي الأشياء قد تظهرُ أمامنا فجأة.

هكذا حدث..

ظهر في كلّ مرّةٍ ذهبتُ فيها إلى الجامعة أو إلى المكتبة أو إلى المقهى. كنتُ أراهُ، ثُمّ أنظرُ بعيدا ولا يهمني حقًّا إن رآني أم لا، وحين تلاقت أعيننا بمحض "الصّدفة "وابتسمَ في وجهي بادلتهُ الابتسامة، وقلّما فعل ذلك، وحين لا يفعل، ببساطة لا أفعل!

إلا أنّني كنتُ أشعره يحاول لفت انتباهي بشتّى الوسائل، يقفُ إلى

جواري حينَ أقف مع زميلاتي، يحضر عشر دقائق من محاضراتي ثُمّ ينصرف، حتّى إنّهُ في مرّةٍ قاطعنا وسط محاضرةٍ ما ليخبرنا بشأنٍ زيارة لمحمد صبحي لجامعتنا وأنّها دعوة مفتوحة لمن أراد أن يحضر.

نظرتُ إليهِ فوّرَ بدئه في الحديث، وسرعان ماعدت أنقل ما كتبه المحاضر على اللوح، فَرِحتُ بـ"لا اشتعالي ولا احتراقي ولا شوقي" حتّى إن زميلةً لي تجلس خلفي هَمَستْ في أذني:

- منذُ دخل هذا الفاتن وعيناه لاترى سواكِ.

التفتُّ إليها وقلت بكلّ برودة:

- إذن؟؟

وعدت أنظر إلى اللوح، أتابع نقلَ الدّرس.

وحين انتهت المحاضرة، تهيّأتُ للعودة إلى المنزل، لكنّه صادفني، حين لم أتوقّع، قرب بوابة الجامعة، شعرته ينتظرني، هكذا وشت عيناه، إلا أنّني لم أشأ الوثوقَ كُليًّا بعيني رجل الثّلج:

- رنا.

شعرتها المحاولة الأولى لتذويبي.. لفظَ اسمي بحنان وشوقٍ صارخ، فأردتُ فعلاً أن أصرخ في وجهه:

"شو بدك من بيّا لرنا؟ "

أجبتهُ:

- نعم؟

تفاجأ لردّي الجاف، إذ رأيته يرفعُ كلا حاجبيه باستنكار.

فما كانَ منهُ إلاّ أن أجاب كالإنسان الآلي:

- أستحضرينَ النّدوة؟

أجبته بذات الأسلوب:

- وقتي مزدحم للغاية، لا أعتقد هذا!

- لماذا لا تسهرين على الفيس بوك كما كنتِ؟

فاجأني.. دوّخني.. أطاح قلبي أرضًا.. هي ثانية واحدة فقط كانت كفيلة بأن أسألَ ألف سؤال.

أبهذا اشتاقني؟ أبهذا يشتعلُ أيضًا؟ أبهذا يرهقه صمتي وانتظاره لي؟

أبـــهـــذا ي.. . ح.. . ب.. . ن.. . ي؟!!!

أجبته على عكسِ ما يتوقعه قلبي:

- أصبحتُ أنام ليلاً الآن، أمامك مخلوقه نهارية!

شعرتُ بوجهه يغضب وبملامحه تثور، لكنني لم أتوقع رده بتاتًا:

- إذن فالخطأ من عندك وليسَ من عندي.

وأدارَ وجهه عنّي.

ذُهِلتُ لدرجة أنّي لم أقدر على النطقِ والحركة، شُلّ جهازي العصبي، لم أفعل شيئًا سوى التّحديق به، بوجهه الجميل وإن كان غاضبًا، بجملتهِ الأخيرة التي أخذتْ تتردّد على مسامعي حتى ظننتني لن أسمع سواها ما حييت.

وحين أفقت..

عدتُ أشعرُ بالبشر من حولي، وعدتُ أسمعُ أصواتهم الصّاخبه والمضجرة، أجبتُ بتوترٍ ملحوظ:

- لقد تأخّرتُ عن العودةِ إلى المنزل، يجب أن أذهب الآن.

أخرج يدهُ من جيبه ليصافحني، صافحته مترددة، وقبلَ أن أسحبَ يدي عادَ يخطفها في كفّه، وقال شبه باسم:

- وداعًا.

انطلقتُ أقود كالمجانين، فأضعتُ طريق العودة إلى المنزل، فاضطررتُ للاتصال بالعم سيد لينقذني، ينقذني حقيقةً من الضياع في أيمن.

عادَ يفتح الأبواب، خِفتُ أن أدخل أيًا منها خِشيةً أن يقفل الأجمل منها في وجهي!!!

هي ليست مسألة غياب إذن، نحنُ لا نستاء لغياب من حولنا فجأة دونَ أي مقدّمات، القّصة أكبر من ذلك، ليس هم من غابوا- وإن غابوا- بل نحن من غبنا عن أنفسنا دون أن ندري، لدرجةٍ تجعلنا نُدرك مرارة غيابهم عنّا.

وجاءَ الليل..

ليلُ أباح لي السّهر بكلّ جنونه والحب بسيرياليتهِ، لم أحتر كثيرًا بأمرِ مراسلتي لهُ من عدمها! المواجهة الأخيرة وإن كانت عبثية أذابت قلبي بجدارة كما أذابت تمردي:

- مُستيقظ؟

ثُمّ وضعت الهاتف جانبًا لكي أغطي وجهي بكلتا يدي لأضحك في خجل.

الضحك بسعادة، هكذا هي ضحكاتي معه، أو لأنها له؟!!

وبعد عدّة دقائق أمسكتُ هاتفي لأجده قد قام بالرّد فور إرسالي للرّسالة الأولى:

- أجل، هذا سؤال لا يليق بساهرٍ مثلي، كيف أنتِ؟

- بخير.

وعدت أضحك مجددًا. أجاب:

- ألم تعتزلي الليل يا مخلوقة نهارية؟

- أجل، ولكنّي أردت أن أحادثك الليلة.

-" كويس.. بقينا بنسمع الكلام. "

ابتسمتُ في خجلٍ وكأنّه يقفُ أمامي.

أجبته:

- كما أنّي أحبّ الليل.

أجاب:

- أدري، فأنتِ أستاذة في السّهر يا رنا.

- إذا كنتُ أستاذة فأنتَ ملكُ السهر!

كنتُ أنتظرُ منهُ عتابًا يُبهجني، عتابًا يفضح اشتياقه، كل ما أردته هو اشتياق ما بين السّـــطور، أو حتى كلمة قد تحمل معنى "اشتقتكِ" كـ

"أسأراكِ قريبًا؟ أستأتين إلى النّدوة؟ أنا سعيد بمحادثتكِ مجددًا، الليل يبدو موحشًا من دونِك! "

رُحتُ أراقب الشاشة ولقلبي نبضات مسموعة:

- اشتقتُكِ!

فعلها الأيمن! "اشتقتُكِ "واضحة وصريحة، "اشتقتُكِ "رجّتني رجًّا، أسرتني، دوّختني، أصابتني في مقتل، "اشتقتُكِ "جمّلتْ صباحي ومسائي وأيامي الماضية منها والقادمة، " اشتقتُكِ " نثرت في فؤادي الفرح وجعلت الأحزان عُمرًا منسيًا والآلام نسيًا منسيًا.

أردت وبشدة أن أبادله الشّوق الضعف، والحنين الضعف، ضغطت على أربعة أحرف فقط، أربعة أحرف ستكشفُ عالمًا بداخلي، أربعة أحرف بمثابة النقطة الفاصلة والواصلة بين قلبين، فأخذتُ أحدّق بالكلمة وبزر إرسال وعمري يضيع بينهما:

- سآتي إلى الندوة!

- رائع، لم أكن لأسمحَ لكِ ألّا تأتي.

بقدرِ ما كرهتُ جبني، إلا أنني سعدت لقراري.. جدًّا

وكما توقعت:

- اعذريني "رورو " داهمني النعاس.

- "تصبحع خير.. أحلام سعيدة!"

في عشرة دقائق، ضحكتُ من فرط سعادتي بمحادثته، اشتاقني، أحببتهُ،

جَبُنتُ، كرهني، فكرهته.

ليس تماماً!

استيقظتُ وقت الظهيرة على عتاب أمي:

- لماذا لم تذهبي إلى الجامعة يا كسلانة؟

فرِحتُ لقدومها، لم أفعل شيئًا سوى الابتسام لها، ومن ثُمّ العودة إلى النوم أو الإغماء بمعنى أصح!

استيقظتُ بعدها ببضع ساعات وشعرتني جدُّ مجهدة، مجهدة بسعادة.

سُررتُ لرؤية أدهم في الصالون، يحتسي القهوة بشموخ، ركضتُ إليه ووضعتُ قبلةً على خدّهِ ومن ثُمّ سرقت كوب القهوة منه، صاحت أمي:

- "قهوة كده ع الريق، ومن إمتى بتشربي قهوة؟"

أجبتها ضاحكة:

- أحبُّها ماما.

لم ينطق أدهم بحرف وأخذَ يحدّقُ بي وكأنّه يريد أن يقول شيئًا، وحين عادت أمّي إلى المطبخ، همسَ:

- كم يغيّرنا الحب!

دُهشت لما قال، قلت:

- ما قصدك؟

ابتسم وقال:

- سهر وقهوة.. " الموضوع فيه إنّ "

وأردف قائلاً:

- لا تقلقي.

ثُمّ وبيديهِ أشار: لا أسمع.. لا أرى.. لا أتكلم.

أجبتهُ ضاحكة:

- لا توهم نفسك أرجوك.

فأجابَ ماكرًا:

- أنا أدهم يا رنا، هيّا هاتي قهوتي.

صحتُ به مازحة:

- إن شفتها!!

قال:

- "إن شفتها؟ اسمها إن دقتها حضرتك."

فأخذتُ أضحك بالرّغم من خجلي، لم أشأ أن يعرف، لكنّني سَعِدتُ حين فعل!

شعرتني بدأتُ أنسجم مع ظلال حبّهما ولم أدرِ كيف أو لماذا.

لربّما حينَ نعشق نسمح للآخرين أن يعشقوا كذلك ويملأوا العالم عشقًا. قضينا يومًا جميلاً سوية لكنّني شعرتُ أن هنالك خطب ما حين كُنت أُحادث أمي، ولم أحاول أن أسألها لأنها ببساطة لن تصارحني، شعرتُ أن هنالك أمرًا يشغل بالها، كانت شاردة الذهن، وقلّما تحدثتْ ونادرًا ما ابتسمتْ.

ليتني ملكت القدرة على احتوائها.. على قراءتها.. على فهمها!
فحاولت أن أفهم من أدهم لكّن زُرقةَ عينيه وقفتْ حائلاً بيننا، يقول عكس ما تحكيه عيناه، ولأنّني أخشى دومًا معرفة الحقيقة، لم أحاول البحث عنها خلف حصون الكتمان!!
خرجنا سوية، اصطحباني لرحلةٍ نيليّة، وكأنهما ينويان سرًا استحضار أيمن في فؤادي، كنت مُبتسمة طوال الوقت، أطالع الأماكن التي وقفنا فيها، سِرنا فيها يدًا بيد وقلبًا بقلب، فلاحَ نسيمه في روحي، فاعتزلتني ظلالي وفرّت تبحث عنه، وتشتاقه وتتوق لرؤياه، فأخذتُ أفكر فيما سأرتديه يوم ألقاه في الندوة وبأي عطرٍ سأتعطّر وأي لون أحمر شفاه سأضع وأي كعبٍ سأرتدي!
ابتسمت عيناي لشدّة توقي لرؤياه، ولبدء الحديث بيننا، لمحتُ بائع الحمص ذاته، فلحقتُ خلفهُ بعدَ أن صعدتُ على متن الباخرة برفقةِ أمّي وأدهم، وابتعت لنا ثلاثة أكواب، ضحكَ أدهم وهو يتناول الكوب منّي وعاتبتني أمي لابتياعي طعاماً من الشارع، ولم تقبل أن تتناوله معنا فاقتسمناهُ أنا وأدهم سويّة بفرح!
تناولنا طعامًا بحريًا سويّة، وتحدثنا في شتّى المواضيع لكّن أمي أكثر من استمع وأقل من تحدث!!
هكذا هي دومًا السعادة، لا تكتمل، تبقى معلّقة النّصف في سماءِ أمانينا، عُدنا إلى المنزل متأخرًا، وما إن أوصلاني حتى انصرفا،

ووجدتني أضحك لقولِ أمي إنّها لن تترُكني بمفردي أبدًا، هكذا ذكّرتني الجدران!!

عدت أعشق الليل، والاسمُ "أيمن" على سمائهِ بينَ النّجوم.

تحادثنا.. تسامرنا.. وفناجين القهوة في الجوار، أحببته كذلك خلف الشاشات.

ببرودتهِ.. بعنفوانه.. بجنونه، تركته يكتسح أوردتي وأدق شراييني.

أيـــمـــــن...

أ: أُحبُكَ

ي: يا

م: مجنونَ

ن: نسائمي

داهمتني رسائلهُ على الفيس بوك، أحببتها جدًّا، هي الأغلى على قلبي، لا زلتُ أحتفظ بها وسأظل أحتفظ بها إلى ما بعد الأبد، حتى وإن تمنّيتها مكتوبةً بخطّهِ المجنون، لكننا لسنا في زمن رسائل العشاق، فها هي رسائلي، رسائل عاشقة، يبدو

بأنّي سأنفّذ وصيّة أحلام مستغانمي بأن أبدأ حربًا حبريّة على نفسي.

سألني:

- هل تكتبين؟ أسلوبك جدُّ رائع ولديكِ حسٌ مبهر في استخدام الكلمات وجعلها موقّعة باسمك وبعطرك.

إذا فهو يقرأ كلماتي خفية ويُعجب بها سرًا ودون أن يكلّف نفسه عنّاء

كبسةِ زر " إعجاب " أو التّعليق حتى على كتاباتي. أجبت:

- أجل، ولكن مضت بضعة سنوات على ابتياعي مفكّرة مشاغبة تدعوني للجنون.

- مُفكّرتكِ عندي.

- لا يوجد سبب يدعوني للعودة.

أجاب:

- إذاً عودي عاشقة!! وبهذا ستكون العودة الأجن، وقد أقرأ لكِ يومًا ما.

عادَ يسحب الأكسجين من رئتيّ ويعرقل دورة جسدي الدمويّة:

- ماذا تقصد؟

وعادَ لصمته الملعون!!

فأرسلت له:

- تقرأ ماذا تحديدًا؟

- رواية تحمل اسمكِ، قد تكونين من نسلِ أحلام مستغانمي الأدبي.

عشقت الدّعوة وخفتُ منها في ذات الوقت، والأهم خفتهُ! أجبت سريعاً:

-"نسل أحلام مستغانمي الأدبي مرّة وحدي؟".. حتّى وإن عدتُ.. سأبدأ حزبي الأدبي الخاص..حزب "الرور" ..

أجابني ضاحكاً:

"الرور يا رورو؟؟"

وأردفَ قائلاً:

- أمستعدّةٌ لهذهِ الحرب؟ ذكّريني أن أحضر لكِ المفكّرة.

- ماذا تقصد "بعودي عاشقة"؟

هذا ما أردتُ فهمهُ؟

- ياالله!! يالكِ من فضوليّة!!

استشطتُ غضبًا، ورحتُ أقرأ المحادثة من جديد علّني أّجد حبّهُ الضّال المُضل.

ولم أفلح في ذلك قطعًا.

- يا لك من متعجرف يظن نفسه ملكًا! من تظن نفسك ياهذا؟ ربّاه! كم أنتم مخادعون!!

وسادت عدة دقائق خرساء، ثم أرسل بعدها:

- أأستطيع محادثتك هاتفيًا الآن؟ هناك أمرٌ أريدكِ أن تعرفيه.

هدأت.. وابتسمت لسلام رسالتهِ الأخيرة، فعادت درجة حرارة جسمي إلى طبيعتها.

أردت وبشدّة أن أسمع أنفاسه قبل صوته، أن أسمعه يفكّر ويختار أسلحته بعناية لكي يُشهرها في وجهي، أردت أن أحادثه، أن أملأ رأسي بنبرتهِ الرجولية المشاكسة:

- لا، لن أستطيع حاليًا.

- "مش هينفع.. ها؟"

شعرتُ بالغضب، وباليأس، وبالألم، وأنا أتفّوه بعكس ما يشتهيه قلبي.
سألته:
- لِمَ في كُلّ مرّةَ أمسكتّ فيها خيط البداية، سلبته مني؟
صَمَتَ، تلعثَمَ، حتى كدت أسمع صوت أنفاسهِ الفاتن، فكيفَ لي وسطَ حروبنا، ووسط انتهاكاتنا العاطفية لبعضنا أن أروّض جنونه بسؤالٍ لفظتهُ لحظة سلام عابر، أكثر منه موجوع ؟
وضعتُ الهاتف جانباً كي أمسح دموعًا ملأت مقلتيّ.
أخذ الهاتف يهذي:
- ؟؟؟؟؟
ضعي كل المواضيع جانبًا، ما موضوع هذا الخيط؟!!
؟؟؟؟؟
وحتّى تلعثمهُ يكون عن حذرٍ مدروس، أجبتُ:
- لاشيء!!
ولم ينبش حبًّا كانَ على طرفِ شفاهي.
هكذا هو، هكذا عرفتهُ، هكذا اعتدته!
وكم خشيتُ مقابلته بعد سؤالي الذي سألت!! فانسحبت بهدوء وتمنيتُ له ليله هنيئة.
وفي عصر ذلك اليوم اجتمعت وهبة في أحد المطاعم إذ أردت أن أعوّضها عن اختفائي.

سألتها:

- أستحضرين ندوة محمد صبحي في الغد؟

كانت تشرب العصير وقتها، فوضعته جانبًا فجأة حتى سقطَ بعضه على ملابسها، فقالت وهي تمسح فمها وذقنها معًا:

- أكيد طبعاً وبلا شك، إنّهُ محمد صبحي!

ابتسمتُ لقولها وأنا في الواقع أداري ضحكة قادمة، ورحتُ أحدّق بعيدًا حتى لا تكشف أمري، فوجدتها تقول:

- لا بأس، اضحكي.. اضحكي، ولكن أمدّيني بمنديل أوّلاً.

فانفجرتُ ضاحكة، قلت لها:

- "محسستيني مهند اللي جاي."

أجابت ساخرة:

-" مهند؟ حرام عليكِ ياشيخة! ده صبحي أرجل وأشرف.."

أجبتها ضاحكة:

- طبعا أكيد، وبلا شك.

سألتني:

- هل ستأتي؟

أجبتها وقد تذّكرتُ أيمن:

- بالطبع، لقد دُعيتُ لها شخصيًّا.

وابتسمتُ حبًّا.

فقالت وهي تُرقصُ حاجبيها:

- من دعاكِ يا محتالة؟

صحتُ بها مازحة:

- ما بكِ يا؟ أيمن أيمن!!

صاحت:

- أيمن؟ النّذل لا يسأل عنّي!!!!

فراحَ قلبي يقول:

- إنّه لا يسأل عن أبيه.

أخرجتْ هاتفها وقالت:

- اللعين لم يخبرني بالذي جرى بينه وبين نادين!

لا أدري لم شعرتُ بناقوسِ خطرٍ سيشطرني نصفين، ولمَ خفتُ من الاسم "نادين"، اتّصلتْ به أمامي وبعدها بدقيقة وضعتْ هاتفها جانبًا وقالت باستياء:

- كالعادة، لا يجيب!!

خفتُ أن أنبش الحقائق فأنتهي، خفتُ أن أسألها عن نادين تلك، وعن ماهيّة "ما جرى "بينهما، وما هو تعريف "بينهما"، ولم شعرتُ اسميهما منسجمان معًا؟

جزعت، ولم أشأ أن أعرف الحقيقة فاكتفيتُ بلهيبِ الصمت، لم أشأ أن أفتح قبر الأسرار والخبايا، ولم أشأ أن أعرف أي شيء!

فانهالت على قلبي بسيوف الحقيقة:
- نادين هي محبوبة أيمن، ومنذ كانا في السنة الأولى، ولكن هناك مشاكل بينهما حاليًا، يتصالحان، ويتخاصمان، تدرين بمصاعب العشاق!!
" لا أدري بأي شيء، أخرجيني من دائرة العشق والعاشقين، وضعي على قبري ورودًا ذابلة "
- أحقًّا؟
- أجل، نادين في العام الثالث كليّة إعلام حاليًا.
يا ويل قلبي:
- أتقصدين نادين شهاب؟!
- أها، هي!
شعرتني الربيع الذي ماتت أزهـارهُ، والشتاء الذي ذابت ثلوجهُ، والخريف التي بكت أوراقهُ، والصيف الذي لن تشرق شمسه!!
شعرتُ قلبي ينتحر في الدقيقة مئة مرة، ثم يعود يُبعَث من جديد لينتحر وينتحر ثم يُبعَث، وكأنّنا في يوم الحساب، إلّا أن إثمهُ لم يكن يومًا الانتحار، إثمي هو حبه!!
وقعتُ في حبّه لأكتشف أنّني وقعتُ في الفخ، لا أكثر، ولا أقل.
نادين..
رحتُ أحاول استرجاع ملامحها واستحضار صوتها، فخانتني الذاكرة

بالرّغم من كونها زميلة معتادة.

نادين..

رحتُ أتخيّل ظلالها، وجهها، عطرها، شعرتُها أجمل الجميلات وأعند العنيدات، لهذا أحبّها واختارها دونًا عن سواها.

***

كرهتكَ يوم أحببتك، وأحببتك يوم كرهتك.

كيف وأنت الذي لم تكن يومًا لي؟ وأن أخرى قد وهبتْ قلبها إليك؟ وأنّك وهبتَ جنونك إليها؟!

آه! كم وددتُ خنقك! كم وددتُ إيلامك! ثم ضمّك إلى عمري وكأنَّ شيئًا لم يكن، ولن يكون!

ما هذا الذي أصابني؟!

هي لحظة واحدة فقط، لحظة تفصلكَ بين الجنون والضياع، بين السقوط مغشيًّا عليك أو السقوط صمتًا وقهرًا، هي لحظة انكشاف الحقيقة وسطَ ضجيج الخبايا. لحظة من عمرك، لحظة من وجدانك، تُلغي كلّ شيء، وكأن كل الموجودات وكل المعتقدات لم تُخلَق قبل تلك اللحظة، لحظة لا تتوقع فيها أي شيء قد يُعكر صفوَ ما رتبتهُ الحياة لك، أو قد يُهين ما اختزنتهُ من فرح أو ما اكتسبته من «إيمان»!!!

لحظة لا تتجاوز بضع سطور نسمعها عبثًا في أفق الضّوضائية، لحظة تجعل من وقع الكلمات سواطير تنهشُ كبريائك قبل عظامك، وكأن

الحياة تنتقم منكَ لأنك التقطتَ أملاً أو تنهّدتَ تنهيدةَ فرحٍ آت، أو سرقتَ وعدًا لم يكن يومًا لك.

رأيته...

لكنَّ شيئًا قد تكّسرَ وتحطّمَ في فؤادي وفي أمنياتي، لم تعُد الفرحة هي الفرحة. ولا السلام هو السلام، شيئًا شعرت به يشطرني إلى ألف قطعة وقطعة، وجدتني أتناثر من نظراته المقتولة، وددتُ لو أعاتبه، لو أنهره، لو أضربه. ثم أبكي بين ذراعيه حتى تنقطع أنفاسي، ثم أضربه مجددًا وأرحل بلا رجعة.

لكنَّ الألم بداخلي أصابني بالخرس، بالشلل، وكأنَّ ما فعلهُ بي لم يكن، وجدتني أنظرُ إليهِ من بعيد، وكلّما تلاقتْ نسائمنا ابتَسَمَ، فأبادلهُ أقهر ابتسامة، رغمًا عن ألمي. ابتسمت، ليس ضعفًا منّي أو استسلامًا، إنّما عزاء لما كان بيننا، وقبولاً بالحال!

وجدتهُ كما هو، إلّا أن ظلّهُ ملأهُ الذنب القاتل، ذنب توريطي في عشقٍ لن يكون لنا.

لحظتها قررت، أن أبدأ حربًا روائية.

اقتربتُ منه، صافحتهُ، وأنا أُحدّقُ بملامحهِ وأحفظُهاعن ظهر قلب، وأنا أدرك تمامًا كم اشتقته! وكم.. أحبه!! قال:

- هيا، مقعدك إلى جواري، لطفًا منكِ أن تأتي.

لمحني زميل لنا فقال لي:

- كعادتك يا رنا، جميلة وساحرة!!
فضحكَ أيمن لقوله، وبالرّغم من احتراقي، أبهجتني ضحكتهُ، جلسنا سويّة. ما أشد قهر شعوري حين كنت جواره! كنت أنظرُ إلى وجهه كل حين، إلى ابتسامته، إلى شروده، لم يحدثني كثيرًا وكأنّه قد اكتفى بوجودي، لم أمانِع ذلك، إذ خشيتُ أن تحتلني عيناه، فعيناهُ هزيمتي.
انقضت ساعتان في فضاءات النسيان، وحين انتهت الندوة التي انقضت عبثًا، استعددتُ للرّحيل فعاتبني ورجاني أن أبقى لمدّة أطول، لكنّني قررتُ أن أُلقي المزيد من الحطب في موقد الحب، فلملمتُ بقايا الرّماد منه، وانسحبت!
وقبل أن أركب سيارتي، سمعتهُ يناديني:
- رنا!!
فعدتُ أعشقُ اسمي من بين شفاهه، إلّا أنّني شعرتُ بمرارتها في فؤادي، التفتُّ إليه فرأيتهُ يركضُ باتّجاهي ومعهُ شيء ما في يده، وقال وهو بالكاد يأخذ أنفاسهُ:
- المفكّرة.
أجل، لقد دعاني إلى حبّه في مفكّرة، وبهذا نويتُ الحرب حقًّا.
فأخذتُها منهُ وأنا أبتسم، ثم قُلت:
- أأنت واثق؟!
- بالطبع.

لم يكن سؤالي سوى:

- أأنت واثق من عشقي الحبريّ لك؟

وهكذا أجاب:

- بالطبع!

أخذتُ أقلّبُ صفحات المُفكّرة البيضاء وأُطالع السطور الجرداء، شعرتني مدمنة قد استيقظت فيها نشوى الانتشاء الحبريّة، شعرتُ بيدي اليسرى تتوقُ لمعانقةِ أي قلم حبر أسود لأبدأ أوائل الجنون والانتحار. عادَ هوس الكتابة بداخلي لمجرد أن أمدّني بمفكّرة عابرة، هكذا فعلت، فبدأتُ روايتي وأنا مدركة أنّني بهذا سأفتحُ أبواب الحب والغضب والجنون والكبرياء، وأنّني سأوقّعُ صك انهزامي بيدي وانتصاري بيدي. لكنّه لم يدرِ أبدًا أنّني حين أُمسكُ بالقلم وأبدأ الجنون، بأنّي أتحوّل إلى إنسانة ماكفيليّة بجدارة، ولكن حُجتي:

"الأدب يُبرر الوسيلة.«

ودّعتهُ، وانطلقتُ إلى أقرب مكتبة لأشتري عدّة أقلام حبريّة سوداء، وكتاب نسيان كوم لأحلام مستغانمي.

عدتُ المنزل، وبدأتُ الانتحار شوقًا وحبًّا وألمًا.

لكنّني أفقتُ لواقع أنّني بهذا سأظلمُ من يحب، فأدركتُ أنّهُ وجبَ أن أكتبَ عنها؛ نادين. .

من هي؟ وضعتُ القلم جانبًا، لم تكُن غيرةً ما أصابتني، بل فضول

أُنثوي من الطراز الأشد قهراً!

فتحت الفيسبوك خاصّتي، فوجدتها في قائمة أصدقائي وأنّنا تحادثنا لبضعة مرّات وأنّها كذلك طلبت مني أن نتقابل في يوم ما!

"نادين، كيف أنتِ؟

سأقيمُ حفلة في الأسبوع المقبل وسأدعو الفتيات، وأودُّ أن تأتي.

ستكون فرصة رائعة لنتعارف أكثر، مارأيك؟ "

انتظرتُ ردّها وأنا حرفيًا أقرضُ أصابعي،

فارتاحَ بعضُ فؤادي حين قامت بالرّد: "سيكون ذلك من دواعي سروري ." لربّما قالت: «من دواعي سروري. "إلّا أنّني شعرتُها "من دواعي غروري. "

وعدت أبتسم، إذ إنّني سُعدتُ بهِ كعاشق، وإن كان لها، أخذتُ أتخيّله يحادثها، يتغزّل بها، ويقول لها: "أحبّك "، ولا أدري كيفَ انجرفتْ مخيلتي بأن رُحتُ أتخيّله "هو" يحاول تقبيلها، فتفرُّ من شفتيهِ وتنهرهُ بحنان "هي".

فعُدتُ أمسكُ القلم لأحبّه وأشتاقهُ من جديد، وبهذا قررتُ ألّا يتجاوز حبّي له رواية بيننا، قررتُ أن أكتبَ عنه رواية لكي أحبَهُ فيها كما أشاء، وأشتاقهُ كما أشاء، وألعنهُ كما أشاء.

فعدتُ إلى المفكّرة مجددًا، أحاول ترجّي الحرف أن يخُطَّ السطر كما يجب، وأنا مدركة كليًّا أنّني أحمل بين يدي أجمل قصص الحب، وأتعسها.

نتيجة موجعة وصلتُ إليها.
الحب الحقيقي هو ذاك الذي نعلم جيدًا أنهُ لن يكون لنا، ومع ذلك يستمر القلب في "العيش «منه وهو في الواقع «يموت "، حتى وإن رضينا بحبٍ آخر مع الأيام، قد يكون مجرد حب "مُسكّن "أو آخرَ "موبوء "، فلتسامحنا قلوبنا، كم عذّبناها!
وهكذا أنا من بعدهِ، ينتظرني حبٌّ مُسكّن، أو آخرُ موبوء.
وجدتني في حالة ذعر مسعور!!
كل تلك الصراعات الوجدانية ألمّتْ بي وهو عن عالمي غائبٌ لا يدري، ولكن وجوده لاحقًا في حياتي لم يكن سوى الإلهام الأروع لروايتي، وإن كنت في الواقع أحبّهُ وأشتاقهُ.
"تلذذ بتعذيبي ما تشاء..
سأعذّبكَ الضعف حين تقرأ الرواية. «
وبهذا أصبحتُ أقوى من ذي قبل، وعدتُ أرتدي الأسود باكتساح.
لم يهمني حقًّا أن أكون بنظرهِ أنيقة وساحرة ووحيدة ودافئة، هذه أنا شاء ذلك أم أبى، لست فتاة الأحمر أو البرتقالي، لست مخلوقة زرقاء أو صفراء، وبالطبع لم أعد أومنُ باللون البنّي مطلقًا، ولكنّني نسيتُ هذا لاحقًا.
الأسود يليق بي....
هذه هي الجملة التي تلفظتُ بها فور انتهائي من قراءة رواية أحلام،

وقد أبهجتني نهايتها، فشعرتُها رسالة واضحة من الكاتبة لي. سينقذني كبريائي من أشواك الحب.
شعرتُ بأحلام من حولي، بكامل جاذبيتها وعنفوانها، وبدلالها.
شعرتُها تدعوني للجنون أيضًا، وتملأني بوصاياها العشقيّة.
لو كنتُ حقًّا تدرين بأمري يا أحلام، ماذا بربكِ كنتِ ستقولين لي؟!
أتوقّعكِ تقرصينني من أذني، وتعاتبينني قائلة:
"راني زعلانة منك"
أو قد تأخذينني بين أحضانكِ المستغانميّة، وتربتي على رأسي بحنان دون أن تنبسي بحرف، أو أنّكِ قد تكتبين إلي _ واعذريني إن قصّرتُ في الأسلوب والتعبير_:
((صديقتي الجميلة، ورفيقة الأقلام، وحبيبة الأوراق البيضاء!
كم فرحتُ وقد علمتُ أنّكِ استعنتِ على جنس الرجال برواية، فلتكشفي الأسرار ولتفضحي الخبايا!
كم فرحتُ لكِ وقد طلّقتِ الماضي ثلاثًا، وخلعتِ جلبابَ الحب الأضعف الذي ارتديته طويلاً! قد حان وقتكِ فلا تبالي. ستلزمكِ أوراق بيضاء كثيرة وأقلام حبريّة سوداء، حاولي الكتابة وأنتِ نصف ممدّدة على سريرك بقميص نوم لا يقل جمالاً عنكِ، تعطّري للكلمات، وتزيّني للحروف، ولا تنسي فنجان القهوة، ستحتسين الكثير منها!))

* * *

أعددتُ كل شيء من أجلها؛ قمتُ بتنظيف المنزل، وبإعداد الطعام والحلوى، وابتعتُ فستانًا أسود لا يقلُّ جمالاً عنّي، انبهرت بي صديقاتي، وشبهنني بممثلات هوليوود. بدوتّ جميلة ذلك اليوم، لكنّني لم أكن أدري إن كنتُ سأبدو جميلة بحضرتها، كل شيء من حولي استعدَّ لحضورها إلّا أنا!

امتلأ المنزل بالضيفات والقهقهات العالية، كنتُ جدّ متوترة، إلّا أن ظل العين الأسود أخفى ذلك ببراعة.

أدركتُ أن انتظارهما معًا، هو بمثابة كارثة وقتيّة تنحرُ صبري، ولأنّني لم أكن أذكرُ وجهها، تعمّدتُ أن أدعو جميع الوجوه التي أعرفها حتى أستطيع تمييز وجهها الجميل بسهولة!

مضتْ ساعة حارقة.

ومن ثم رأيتُها تتسللُ خفيّةً بين الحضور، توقّفتْ نبضاتي وكأن القادمة باتّجاهي على وشك إعدامي. ابتسمتْ لي، فبدأتُ أذكرُ وجهها، لم تكن الأجمل على عكس ما توقّعت، لم تكن فارهة الطول تسلب الأبصار، لم تكن.....

كانت نادين، ببساطة.

فأدركتُ لِمَ يُحبّها، وكيف لهُ ألّا يُحبها؟!

مددتُ جثّة يدي أصافحها، ولكنّها أخذتني بين ذراعيها، وكأنّها تشعرني عنوةً. كم هي حنونةٌ معهُ، ورؤوفةٌ به! فحضنتُها بانهزام، وشعرت

ببرودة وقسوة جسدي مقارنةً بجسدها الدافئ، لم أكن قد أفقتُ بعد من أحضانها قبل أن تقتلني بصوتها الأخاذ، صوت عذب رائع ووكأنّها كناري بديع، وهكذا هو صوتها في آذانهِ صباحَ مساء. قالت:

- أخيراً تقابلنا خارج ضوضاء الكُليّة!

لمستُ توقًا بداخلها لاجتياحي، أجابَ سرابُ حنجرتي:

- أخيراً غاليتي.

لم تكن «غاليتي «بقدر ما هي «غاليته».

لربّما دعوتُ أكثر من عشر فتيات، لكنّني لم أكترث لوجودهنَّ، وقد عاتبتني عينا هبة، إلّا أنّني لم أكن سوي آلة لَا تسمع ولا ترى سوى نادين. كيفَ تتحدّث، كيفَ تبتسم، كيفَ تقهقه عاليًا _ وكم سعدتُ بقهقهاتها_ كيفَ تشرد، وتسرح! شعرها قصير ومصفّف بعناية وإن كانَ مجعّدًا، لاءمَ ذلكَ وجهها البيضاوي، بشرتها قمحيّة، ليست صافيّة كُلّيًّا، بدا وجهها مجهدًا نوعًا ما، مكياجها هاديء؛ ماسكارا وملمّع شفاه فقط، أنفها متوسط الحجم، شفتاها العلويّة ملساء والسّفليّة مكتنزة بدرجةٍ مُلفتة، عنقها طويل، جسدها بين بين، ولكن بالإمكان تمييز خصرها المصري جدًّا، أو خصر "الجوّافة "، كانت ترتدي الكثيرَ من الخواتم في يدها، لم أجد خاتمَ حبٍ في إصبعها.

ليسا مخطوبين، ولم أدرِ إن ارتحتُ أم اشتعلتُ لذلك!! وجدتني أدرسها قلبًا وقالبًا، لم تكن على درجةٍ كبيرة من الأناقة، بل علي درجةٍ

أكبر من الشموخ والحياء، خفيفة الظّلال، مُضحكة.
وهكذا عشِقَها، ببساطة!! وكُل ما فيـ (ها)!
تحادثنا وكأنّنا صديقات قديمات، وجدتُنِي أنسجم معها وأنا في الواقع في حيرةٍ من قلبي!!
قالت:
- بصراحة، لقد أثبتتِ عكسَ ما اعتقدتهُ عنكِ.
أجبتُها شبه باسمة:
"وما الذي تغيّرَ يا ترى ؟"
(لن أسرقهُ منكِ، فدعي فؤادكِ ينعم براحةِ البال.)
قالت:
"سمعت الكثيرين يدعونكِ بالمغرورة، لكنّكِ جدٌّ لطيفة ومتواضعة، أشعر بأنّنا سنصبح أعز صديقات."
أجبتُها بابتسامة عابرة في سماءِ ضياعي:
(لم أشعر بأنّي على استعدادٍ ذهني أو نفسي أو عاطفي لقبولِ دعوتها، كل ما أردته وقتها أن أهربَ إلى مفكّرتي لأكتب عنها، لأرسمها بالحرف كي ألونّها لاحقًا بأحزاني.)
لم أستطع الانسحاب لأجلبَ المفكّرة، فأمسكتُ هاتفي لأدوّنَ بعض الملاحظاتِ عنها. قالت مرحة:
-"ملعونٌ هذا الاختراع!"

رفعتُ ناظري إليها وقد تيّقنتُ أنّها تنحرني نحراً بعفويتها التي شابهت جنوني.
أجبتها:
"بالطّبع."
فقالت ماكرة:
" ما أخبار الحبيب الذي جعلكِ تلعنين أهم الاختراعات؟"
ابتسمتُ وقد تذكّرتُ "حبيبها":
" ليس لي حبيب!! "
شهقتْ، وقالت:
" كيف هذا وقد فُقتِ القمَر جمالاً؟ أأصيبَ الرّجالُ بالعمى؟"
(أنا من أُصبتُ بالعمى يومَ أحببتُ..........)
– وما الغريب في هذا؟ مصير سفينة الأحلام أن ترسو.
(كم أنا كاذبة!)
فوجدتني فجأةً أشعرُ بحماقةِ ما ارتكبتُ، وجودها كانَ خطأ، شعرتهُ إهانةً لها، لو عَلِمتْ بأمر قلبي لتمزّقَ قلبها، فتودّعُ العشق، كما ودّعتهُ أنا! فرحتُ أدافعُ عن قضيتهما معًا، وبدأتُ أولى جلساتِ انعقادِ تصالحهما:
– وأنتِ، لِمَ لعنتِ الهاتف؟ لا أجمل من الحب!!
تنّهدَتْ التّنهيدة الأطول.
ثُمَّ قالت:
– ارتاح قلبي لكِ، أشعرنا متشابهتين، لذلكَ سأبوحُ لكِ بما يحملهُ قلبي

ليكون فاتحةَ عهدٍ بيننا.

ابتسمتُ لقولها، وأنا اُنهي آخر ملاحظة في الهاتف:

(قد آنَ موعد انتحاري، ولكنّي أحبّهما معًا.)

عادت تتنهّد، وبَدَأتْ:

- اسمهُ أيمن فريد.

فانتهى حلمٌ جميلٌ في يدي!

راحتْ تحكي لي عن كُلّ الأشياء التي أحفظها غيبًا وحبًّا وشوقًا.

تبدأ بسردِ الأحداث، فأعيشُها لحظةً بلحظة، تبتسم، تضربُ كفًّا على كف، ثمّ تقهقه عاليًا!

ضحكتُ معها وفرحتُ لأجلها.

حتّى وقد علمتُ أنّهُ جازفَ ليصل لفؤادها، وأنّهُ بذلك قد حَصُلَ وبجدارة على لقب "أعظم عاشق في الدّنيا."

قالت:

- غيور جدًّا ولكن ثقتهُ بي عمياء، لم يحدث أن أهانني يومًا.

يا الله!! كم سُعِدتُ لهذا وقد سُرِرتُ لواقع كونه غيور، رجل الثّلج يغار يا بشر.

وكيف لا والثّلج أصلهُ ماء دافيء!!

وأردَفَتْ قائلة:

- عوّدني دومًا أن نتحادثَ ليلاً في الدّقيقة الأولى من منتصف الليل،

والدّقيقة الأولى من السّاعة الثالثة فجرًا، والدّقيقة الأولى قبل النّوم، وإن حالَ أمرٌ لحدوثِ هذا، فإن رسائلهُ تملأ ذاكرة قلبي قبلَ هاتفي!
كنتُ أبتسم كعاشقة تترنّحُ بقصّةِ عشقٍ مجنونة، فعُدتُ أفرح لهما معًا، وبذلكَ أثبتتُ على نفسي لقب "عاشقةً "بجدارة، لأكتشف لاحقًا أنّني لم أكن سوى " مودّعة عشق."
شعرتهما عاشقين في رواية مذهلة، وأنّني مجرد طرف عاشق في مسودّة الرواية.
مسودّة ستُحذَف لاحقًا حينَ تتم الطّباعة!

***

يُوجِعنا الصّمت، لأنه يكره النّكران!!
الصّبر قرّرَ الفرار، إذن على روحي السّلامة، لن أنعم بسلامِ الوقت وهو يمضي، سأظل أشتعل صمتًا وكتمانًا في انتظارِ اللحظة الَحاسمة، في انتظار أن تسعدني أو أن تُهدِر فؤادي!
أتراني "عاشقة "أم "مودّعة عشق "؟
الأمر سيان.
ها أنا، تحتَ ظلّ الوقت، أترقّبُ الأيّام والقلمُ لا يزالُ يهذي والأوراقُ مسعورة! أخشى المواجهة، ولكنّي لا أخشى الاعتراف، لا أخشى من الانتحار أدبيًا، ما أغلاهُ انتحار! يا لهُ من جُبنٍ شجاع!
لم يحدث أن سألني ما إذا كنتُ قد بدأتُ الانتحار أم لا.

سلّمني الأسلحة المُدمّرة ولم يعنِهِ حقًّا أن يُعلّمني كيفية استخدامها.
وهكذا قررتُ أن يكونَ أوّلَ محبوب أشهرها في وجههِ، وآخر محبوب!
عادَ يختفي فجعلتهُ يتواجد بين حروفي، عدتُ أشتاقه فاشتقتهُ كما يجب على الورق.
إلى أن وصلت إلى المرحلة القهريّة التي أحببتها وكرهتها في ذاتِ الوقت.
أغنى وجودهُ في روايتي عن وجودهِ في حياتي!!
وهكذا تعلّمتُ الصّبر.. كما تعلّمتُ الحب.
لكنّني خِفتُ من لحظاتٍ كثيرة ستجمعني به، خِفتُ أن يخبوَ الشوق فلا تعني الذّكريات شيئًا! ولهذا أرهقني اختفاؤه! بقدرِ ما أرهقتني كلماتي عنه.
خشيتُ اختفاء الذكريات، لأنّها حينَ تختفي من حولنا، لا نملُّ نبحثُ عنها في وجوهِ من تعّقلَتْ بهم ظلالنا، نحّدق بهم على أملِ أن نلمحَ حلمًا منها، في العينينِ ربّما، في التجاعيد الخفيفة حولها، على طرفِ الشّفاه، أو في راحة اليد حتى!!
نتوهُ فيهم، نضيع، إذ أننا لم نلمس ذلكَ التّوقُ لنا والحنين.
حقائق موجعة نلمسها في وجوههم تُذكّرنا بوحدتنا ليس أكثر. فإن كانت ملامحهم وحدها لا تتوقُ لنا، فما هو يا ترى حال قلوبهم؟
صخرة صمّاء تنبض وتدّعي أنها قلب بشري!
وبالرّغم من توقي واشتياقي لتلك الذّكريات، إلاّ أنّني وفي تلك المرحلة تحديدًا، قررتُ الهروبَ منها مؤقتًا، وجدتني فجأةً في سّيارتي

أنطلقُ إلى الإسكندرية حيثُ نسيمُ أمّي وظلال أدهم، وعلى الكرسي المجاور مفكّرتي وبضعة أقلام متمرّدة.

ضاع منّي صوتي، شعرتُني خرساء لا تملكَ سوى أقلام ومفكّرة!

كنت أقودُ وأنا في حالة سُكر، أحاول ترك الحقائق المؤلمة خلفي ولكنّها لا تنفكُّ تلاحقني أينما ذهبت وحتّى في الثّانية التي تجفلُ فيها عيني.

أردت الاكتفاء ذاتيًا من هذا الحب، قرّرتُ اعتزاله!!

رحتُ أفكّرُ بكلماتٍ مناسبة أبدأ فيها الحديث مع أمّي، شعرت برغبةٍ بالاعترافِ لها، ووقفِ النّزيف الدّاخلي الذي ألمَّ بي، وجدتُني على قدرٍ كبيرٍ من الشجاعة للقيام بمثلِ هذهِ الخطوة، أردتها أن تشاركني أقسى وأجمل العذابات.

أمّاهُ، إنّي عاشقة قد ضلّت

طريقَ الحبَّ

فاحفظي قلبي

فإنَّ القلبَ لم يهوَ سواه!!

اقتحمتُ الفيلّا أبحثُ عن أحضانها كي أحكي لها ما يكتمهُ قلبي ويسردهُ قلمي، وجدتها تجلس في إحدى الزّوايا الضّيقة تريد الانعزال عن العالم أجمع، لم تشعر بوجودي إذ كنتُ خلفها، قلت:

– أمّي.

لم تلتفتْ إليّ فورَ سماعها صوتي، قلقتُ، فوقفتُ أمامها وأنا أُحدّقُ في

وجهها الباكي، رَفَعتْ ناظرها إليّ وكأنّها ترجوني ألّا أنبشَ قهرًا لمستهُ في عينيها، قالت باسمة:

- رنا.

وأردَفَتْ قائلة وبصوتٍ مكتوم:

- يا لها من مفاجأة سارّة!!

ونَهضَتْ تأخذني بينَ ذراعيها وتقبّلني بحرارة، لم أبادلها الشوق وأنا في الواقع قد

اشتقتُها أكثَر من أي وقتٍ مضى، منعتني دموعها من ذلك.

أمسكتُ وجهها بين يديَّ، صحتُ بها:

- ما بكِ أمّي؟!!

عادت تبتسم وتقول:

- مُتعبة فحسب، يا لها من مفاجأة رائعة.

محاولات بائسة للتهرّبِ من ألمٍ صارخ، أجبتُها بنبرةٍ أعلى:

- أخبريني، ما سبب تعاستكِ؟ منذُ فترةٍ وأنا أشعرُ أن هنالك أمرًا تخفينهُ عنّي، ولن أسمحَ لكِ بالتهرّب من أسئلتي!

لم تُجبني، بل أخَذَتْ تنظرُ خلفي وعيناها تبكي، نظرتُ إلى حيثُ تنظر، وجدتُها تنظرُ إلى أدهم، إلى عينيهُ الزّرقاوين، وقفتُ أمامَ هذا المشهد المُبهم، وأنا لا أدري ماذا أقول أو أفعل، لكنَّ هذا لم يكن واضحًا جدًّا على وجهي لدرجة تجعلهُ يقول:

- لقد خنتُها!!
مضتْ لحظات صامتة، شعرتُ فيها أنّني قد صُفِعتُ مئة صفعةً على وجهي، وأنّني قد طُعِنتُ في قلبي وظهري، تلك الطّعنة التي لا نهوضَ بعدها.
غرِقَتْ أمّي وهي تصيح:
- لِمَ أخبرتها بحقَّ الله!!؟
لِمَ قَتَلتني بحقَّ الله؟
عادتْ تجلسُ على الكرسي وهي تنتحب.
لم تكُن ملامحهُ آسفة، كانت عيناهُ تُحّدقان بي، بانهزامِ فؤادي.
نظرتُ إليهما معًا، ثمَّ إلى جدرانِ الفيلّا، ومن ثمَّ إلى وجهيهما، ومن ثمَّ إليهما.
لم أجد سببًا يستدعي بقائي.
خانها، إذن خانني، وبالتالي خانَ نفسه!
توجّهتُ صوبَ الباب، أقتفي أثرَ الرّحيل بِلا عودة، كلاهما ناداني، لكنّني لم ألتفِتْ إلى أيّ منهما، لم ألتفِتْ إلى انكسارها، وجُرمهِ!!
خوّنها الأوّل...
وخانها الثّاني...
فررتُ منهما، وأنا في الواقع لم أفرَّ يومًا.
حالة اغتراب وجدانيّة.
كُل الأحلام تداعت مع بريقِ الأملِ المسكين، خرجتُ من الفيلّا

وكأنّني أخلعُ نفسي منهما معًا، لكنَّ إثمهما ظلَّ يلاحقني كشبحٍ ملعونٍ يتربّصُ بي لاصطيادِ أطيافِ فرحٍ قديم. خرجتُ من البوابة، فًي اتّجاهِ الحي الخلفي للفيلّا!

قادتني قدماي إلي عتبةِ بابه، شعرتُ باشتعالِ الدموعِ في مقلتيّ الحائرة، ولم أدر إن وجبَ عليّ تجاهلها أم جعلها تنهمر وسطَ الذّكريات الراحلة. كم تمنّيتُ وجوده! أُمنّية عطشى ترجو نسيمه، ترجو ظلّهُ الثّلجي ويديه الدّافئة كي تأخذني من ضوضاءِ الانكسار.

فعُدتُ أتذكرها، تلكَ التي أحبّها، وكأنّني بهذا أتناسى ما حدثَ في الفيلّا.

وكأنّني أتناسى دموعَ أمّي وغباء أدهم.

جلستُ عند عتبة البوابة الكبيرة، في إعياءِ الانهزام!

أمّي تتّصل، أدهم يتّصل، فأقفلتُ الهاتف وألقيتهُ بهدوء على الأرض، ورحتُ أحدّقُ بانعكاسي على الشاشة المُظلمة.

نهضتُ أنظرُ إلى الشُّرَف العلوّية علّني ألمحُ طيفه.

أردتُ أن يتم إنقاذي على أعتابه ولو قُتِلتُ بعدها بعطرِهِ المليءِ بها.

جلست هناك حوالي ساعة وأنا لا أشعرُ بأيِّ شيءٍ ممّا يدورُ حولي.

***

"بعدَ الغضبِ

والحرائق

لا نبدو بخير

مع كل ما نقوم بهِ
من فعلِ اللامبالاة
ومحاولات النّسيان،
لا نبدو كما يتطلّبُ الكبرياء أن نبدو
الحزن يسل الوجع
من أعماقِ الحقيقة
يُبدد بقايا حكاية
يجزُّ رؤوس الأمل
في دربٍ لا نهاية له."[1]

عدت الى المنزل، وسارعتُ بنقل بعض حاجياتي إلى منزل جدّتي، عدتُ باكية إلى المنزل الذي لفظني من بين جدرانه، وإذ اكتشفتُ ألّا جدرانَ في الكون أحنّ منه على قلبي وإن خلا من نسيم جدّتي.

وقفت قربَ الباب، أُطالعُ المقبض في تردد مطلق، شعرتني خائنة لذكراها. انقضت دقائق موجعة قبل أن أفتح الباب أخيرًا، وما إن فتحتهُ حتى عادت عيون الموت تلاحقني، وعيون الغدر، واللا حب، والوحدة، والاغتراب، والألم!

نظرت إلى أثاث المنزل المغطى بالملاءات الكبيرة البيضاء، والأرضيات والخزف التي ملأها شيء من غبار خفيف.

رحت أبكي.

---

(١) آمال علي بن عمرو.

ذلك البكاء المرتفع الذي لا يشفي أي جروحٍ وأوجاعٍ كانت، بكاء بدافع البكاء، لا أكثر ولا أقل!

جلست على أحد الكراسي الباكية، أعدت تشغيل الهاتف، فوجدت عشرات المكالمات من أمّي، وأدهم، ووجدت وعلى عكس المتوقع رسالة من أيمن:

"كيف أنتِ؟"

شعرتهُ سؤالاً سيوقعني في الفخ لا محالة، إذ تذكرتُ ما كتبتهُ أحلام في روايتها " فوضى الحواس ": (كيفَ أنتِ؟)، صيغة كاذبة لسؤال آخر، وعلينا في هذه الحالات، ألّا نخطئ في إعرابها، فالمبتدأ هنا، ليس الذي نتوقعه، إنّه ضمير مستتر للتحدّي، تقديره: "كيفَ أنتِ من دوني أنا؟"

لم أشأ الوقوع في سؤاله الملغّم، فأجبته برسالة:

"بخير من دونك!!"

وبهذا توقّعتُ بأنّي قد أقفلتُ جميع الأبواب بنفسي، وبأنّني قد ألقيت كل المفاتيح في بحرٍ لا قاعَ له.

انقضتْ حوالي ساعة، ووجدت الهاتف يرن، خفت أن يكون هو المتّصل، وأردته أن يكون هو المتّصل.

أمسكتُ الهاتف وكأنّني أحمل وردةً جميلةً مليئةً بالأشواك التي لم يهمّني أن تُقَطّع قلبي لفرطِ جمالها.

أيمن يتّصل بك، أجيبي يا رنا على الهاتف.
دعوة خرساء بائسة من جهاز ملعون، فماذا سيحدث إن أجبت، وماذا لن يحدث؟

أخذتُ أُحدّقُ باسمهِ فقط، وكأنّني بهذا أتجاهل رغبة قلبي الجامحة في سماع صوته وأنفاسه الرائعة، وهكذا مضت ثلاثون ثانية تحترق، إلى أن لفظَ الهاتف أنفاسه الأخيرة.

عدتُ لوسادة قديمة، أُرجوها أن تكون مأوًى لي، شعرتها تعاتب غيابي. لم أكن سوى جسد ممدد على فراش الخذلان.

شعرت بنعاس الألم قد بدأ يداهمني ويسحبني من واقع مرير لأحلامٍ أمرّ، وقبل أن أغيب تمامًا عن هذا الواقع، وجدت أمّي تتصل بي، فعلى بكائي، أجبتها، ولكنّي لم أتحدث.

تركتُ هذه الوظيفة للصّمت كذلك، أنفاسها البّاكية أغنَتْ عن الكلام.

انقضتْ عدّة دقائق، وثمَّ أقفَلَت الهاتف.

شيء متوقع من امرأة لن تبوح بغدر الحب بها، شيء متوقّع من عاشقة ستكتفي بالحداد طوال حياتها على عشقها العاثر، وقلبها الذي لم يكن سوى قلب عابر في قلب اثنين.

وقبل أن أضعَ الهاتف جانبًا، عاد يتراقص الاسم "أيمن "على الشاشة، ولكنّهُ تلك المرّة أرسل رسالة: "نائمة ؟! "

عاد يدعوني لحبّه، وأنا أعلم أنّنا بهذا خائنين لها، لطيفها وسلامها!!

أردتُ وبقوّة أن أنهي النهاية:

"لن أستطيع أن أشرعَ في حبّك، هذا جنون لن أحتمله، ولكنّي سأفعل في رواياتي ربّما، هذه الحياة لم تُخلَق لنا، فلنكن أسياد أنفسنا على الورق. سأحبّكَ، حبريًّا كما لم تحبّكَ امرأة من قبل!! "

أخذتُ أحدّقُ في الرسالة قبل أرسالها، واستشعرتُ جبنًا بداخلي، إنّه اعترافٌ واضح وإخمادٌ لكلّ الحروب بيننا بهدف إشعال الفتن والجنون في قلبينا.

مسحت الرسالة، إذ شعرت أن وقتها لم يحنْ بعد.

وفي لحظةٍ ضائعة، أخذت أتخيّل ردّهُ فعله إن أرسلتُ الرسالة الأجن.

لربّما سيصبح بي قائلاً:

"إن حدثَ وكتبتِ في رواياتك، سأكتبُ عنكِ في رواية مضادة!!"

أيمن يكتب؟! هذا ما ينقصني حقًّا!

أذكر أنّني حدثَ وسألته يومًا عن حبّه للأدب العربي، وقال:

- أنا مواطن صامت، أقيّم الأشياء صمتًا، وهكذا أفعل حين أحلّقُ أدبيًّا والكتابُ في يدي، عندي الصبر اللازم للقراءة فقط، لكنّني لن أملك الصبر الكافي أبدًا لحمل القلم والبدء في " فك "السطر!

محظوظ! فقدُ ابتُليتُ بالصبرين معًا.

وما بين صبرٍ وصبر، نغيبُ عن أنفسنا دون أن ندري.

وحين استيقظتُ في اليوم التالي، فوجئتُ بوجود الخائن وأمّي في المنزل.

اقتحماني مجددًا.
وإذا بالمشهد ذاته يتكرر أمامي، هروبها من ذراعيه، بكاؤها، والبرودة المكتسبة على ملامحها، قلقهُ.. اضطرابهُ، حنينه إليها. وأنا، في منتصف القهر بينهما.
لِمَ فعلاها أمامي؟ ألا يكفيني احتراقًا؟!
اقترب أدهم منّي، عيناهُ الزرقاء لم تعُد تعني شيئًا، ظللتُ صامتة في انتظار الحركة القادمة، والكلمة القادمة، نظرتُ إلى أمّي، شعرتها راضية عن وداعنا القارص، وعاد يأخذني بين ذراعيه ويهمس في أذني، سامحيني!!!!
عدتُ للصفحة الأكثر قهراً في حياتي.
لم أدرِ كيف أتصرّف، أأفرُّ من ذراعيه أم أقبلُ الانتحار ألمًا؟
أردتُ أن أغيّر المشهد الأخير، همستُ في أذنهِ:
- لا أريد أن أراك أبدًا.
لفظتُها بمرارة، بحسرة، ولكنّي عنيتُها جدًا، وأردتُها جدًا.
شعرتُ بأحضانهِ العظيمة ترتجف، وحتى رائحة دخانه المعهودة أصبحت حدادًا، فلم يعُد عطرهُ يعني شيئًا، لا العينان ولا اليدان.
حاولتُ جاهدة ألا أبكي، ولكن خانني الدمع فمسحت الدموع بقسوة إذ إنّني شعرتها عارًا على وجهي، اتّجهتُ صوب الباب أفتحهُ لكي يخرج، وكم تمنيتُ أن أكون أنا "تلك الهاربة" !! وقف يتأملني

للحظات، وربّما أكثر من أمّي ذاتها، ثم سار بخطىً متثاقلة نحو الباب، وخرج، فعاد نسيم داخنهُ الذي أحببتُ يملأ جسدي.
أقفلتُ الباب خلفهُ ورُحتُ أرشُّ معطّر الجو في أرجاء المكان، وكأنّني بهذا سأتخلّص من رائحة الخيانة القذرة التي خلّفها ورائه! جلست إلى جوار أمّي، كانت لا تزال تئنُّ وكأنها تصارع مرضًا ما، أو موتًا ما.
قلت:
- أنتِ أفضلُ حالاً من دونه، العني الحبَّ هذه الساعة، وإيّاكِ وأن تطُلّي أبدًا من شرفة الأوجاع إلى حنين الماضي، اسدلي الستائر، وسيربُت على قلبك النسيان قريبًا، عندي كتاب نسيان الأحلام!!
وإذا بي أضحكُ ساخرة.. وكانت إحدى الضحكات المُرّة.. الموجعة.. المبكيّة.. فماذا سيفعل هذا الكتاب وماذا لن يفعل والذّاكرة ملعونة بالكثير من الذكريات الموجوعة بنا بقدر ما نحن موجوعون بها؟؟
وأردفتُ قائلة:
"سأُحضر ُكل حاجياتك من الإسكندرية، وسأتركُ ذكرياتكِ معه جانبًا، قربَ حبّكما الذي كان، عِديني أن ننساهُ سويّة، كما أحببناه.
سأحجزُ لنا بعد الغد للبنان، وبهذا سأسمح لك بفترة نقاهة لا تتجاوز الأسبوع، سبعة أيام فقط.
في اليوم الأول، اعتزلي العالم أجمع،
في اليوم الثاني، عودي إليه،

والثالث، اسألي نفسك ما شئت من الأسئلة،
والرابع، أجيبي عمّا استطعتِ – إن استطعتِ –
والخامس، ابكي،
والسادس، أتقني مسح دموعك،
والسابع، اخلعي فيه عباءة الماضي، وتزيني بذلك لمستقبلك وحاضرك معًا.
سأسمحُ لِك بالقيام بالعادات الحمقاء التي يقوم بها العاشقون بعد حب ضائع، وذلك فقط لتجدي نفسك من جديد.
ومن ثم سنعود، وستصلكِ حينها ورقة "خلاصك "موقّعة بآخر حرف سيربطك به!!"
وسادَ الصمتُ، وإذا بها تربتُ على كتفي وتقول:
– كَبُرتِ يا رنا.
أجل، الألم يجعلنا ننضج على نار هادئة، النار التي بدورها مهما كانت هادئة ستظلُّ تحرقنا، إنّهُ ذاك الحريق الذي يعلّمنا التّكيّف مع الأمواج الغاضبة والرياح العاتية للحياة، إنّهُ ذلك الحريق الذي يعلّمنا الانضباط كسيفِ الوقت الذي لا يملُّ قطعنا!! يعلّمنا الانسجام مع أطياف الغدر القاتلة، حتى نصل بدورنا إلى المرحلة التي تتساوى فيها كل الأشياء!
أتراني حقا نضجتُ حينها؟ أم أن مصيبتي الأولى وقلمي الأوّل هو بمثابة اليد الخفيّة خلف نضجي؟!!

❋ ❋ ❋

نهضتّ مبكرًا في صباح اليوم الذي يليه.

أخذت حمامًا دافئًا استعدادًا ليومٍ مزدحم، ارتديتُ ملابسي على عجل، ونظرتُ لأمّي النائمة نظرة أخيرة، عيناها المُغمضة كانت لا تزال مُبللة بالألم. بكيتُّها، وبكيته!

ومن ثمَّ وضعتُ لها ملاحظة على مقربةٍ منها:

"سأعود متأخّرًا، لا تقلقي."

ووضعتُ لها "نسيان كوم "و بقربها نظّارتها الطبيّة!

وفور خروجي من المنزل، وجدتني اتّصل بأيمن فريد كي يمدّني بجرعة صبر و"إيمان ".

صوتُه كان دافئًا جدًا:

- صباح الخير.

- صباح النّور، كيفَ أنت؟

- أتسألينَ عن حالي حقًّا؟

لم أفهم ما يقصده بسؤاله ذاك، لربّما يعاتبني اختفائي الأوّل، وهذا غير وارد مع رجل ثلج، أو أنّه يقصد بذلك أن سؤالي عن حالهِ لا يُجاب (بخير) فقط!

ولكن سؤالي في الواقع لم يكن سوى: كيف أنت؟ (اشتقتُك!!)

أجبتهُ:

- أنا أسألُ عن حالك فقط.

ومن ثمَّ ناديتهُ:

- أيمن!!

- نعم.

- أريد منك معروفًا.

أجاب بثقة مرحّبة لمطلبي:

- أؤمريني يا رنا!!

- أأستطيعُ استعارتك اليوم؟

- أين أنتِ؟!

(على حافة الانهيار)

- أمام منزلي.

- الأوّل أم الثاني؟!

يا الله!! عاد يفاجئني، إنّه يعلم بأمر انتقالي إذن! لربّما نادين هي من أخبرته بذلك.

قلت:

- الأوّل، فالمنزل الثّاني لن يصلح للعيش.

- لِمَ؟!

لم أُجبهُ لقهريّة الإجابة إن نطقتُ بها!

فأردفَ قائلاً:

- أمهليني نصف ساعة وسأكون عندك.

- سأستعيرك هذا اليوم.

- أستعيريني ما شئت!

وضحك بصوتٍ يكاد يُسمع، فوجدتني أبتسم لذلك.

جلستُ على طرف سيّارتي من الخارج، أخذتُ أُحدّق بالشارع الذي افتقدتُ، وبالذكريات المعلّقة في الذّرات الأدق في الهواء. أخرجتُ هاتفي في محاولةٍ للهروب من كل شيء من حولي. فتحتُ تطبيق الملاحظات كي أُكملَ باقي انتكاساتي، مجلد كامل بعنوان "رسائل عاشقة "، أكتبها له وأنا لا أدري إن كان سيقرؤها يومًا، فأخذتُ أفكّرُ وقتها في نقل تلك الرسائل إلى مسودة روايتي في مفكّرته.

انقضت النّصف ساعة سريعًا. سرقتني الكلمات فلم أشعر بالثّلاثين دقيقة، مضتْ وكأنّها ثلاثين نسمة "أيمنيّة ".

وإذا به أمامي يترجّل من سيارته بكلّ وسامة وأناقة ساحرة!

ابتسمَ فورَ رؤيتي، فابتسمتُ له كذلك.

شعرت باضطرابات قلبي ترجُّ أضلُعي:

- أحبّيه، أحبّيه!!

فأجبتُ قلبي: أُحبّه، في روايتي.

مدَّ يدهُ يصافحني بحرارة، وذات البسمة الرائعة على شفتيه. قال:

- أين ستتم الاستعارة ؟

أجبته باسمة:

- هنا، وحتى نعود من الإسكندرية.

لم يبدُ متفاجئًا أبدًا، توقّعتهُ سيفعل، أو أقلّها، سيسألني عن هذا الجنون.

قال:

- لننطلق إذن.

وبالرّغم من عهدي لنفسي بحبّي له في الرواية، إلّا أنّني أحببتُهُ جدًّا حينها!

جلستُ إلى جواره وأنا على رهن "الاشتعال"، فلم تكُف عيناه تعبران طريق فؤادي، خشيتهما وأنا في الواقع أشتاقهما أكثر من أي وقتٍ مضى.

فأخذت أدّعي صمودي أمامهما، وقلت:

- ألن تسألني عن سبب مرافقتك لي؟

اسندَ ذراعه اليمنى على الصندوق المتمركز بين المقعدين والتفتّ إلي، ثمَّ قال:

- لا، مرافقتك هي الأجمل.

أردت وبشدة أن أفتح النّافذة بسبب انقطاع أنفاسي، وقلت:

- سنذهب إلى الفيلا الخاصة بزوج أمّي، سينفصلان، وسأنقلُ بعض حاجياتها الخاصّة.

أجابَ سريعًا:

- أنا حاضر!!

فوجئتُ لصراحتي تلك، ولكنّني كنت على علم مُطلق بما أفعل، قلت:

- أشكرك جدًّا.

فأجابَ ودون النّظر إليّ:

- لا شكر َبيننا!!!

أخذنا نتحدث في شتّى الأمور، شعرتهُ يحاول سحبي من بحور الألم التي غرقتُ فيها، إذ قال:

- وجهك الحزين هذا لا يليق بك، تبدين أجمل وأنتِ تبتسمين!

أجبتهُ باسمة:

- إذا كانت الحياة ذاتها لا تبتسم لنا دومًا، فكيفَ هو حالنا نحن البشر؟!

اعْتَدْ وجهي الحزين هذا اليوم!

وإذا به يسألني وبنبرة جدّيّة:

- ولم لا تبتسمين الآن؟

لم أترك لهُ فرصة اجتياحي. قلت:

- كذلك فإنّنا نقبلُ بالحال، نبتسم بالرّغم من كل شيء، ولهذا خُلِقَتْ الابتسامة، كما خُلِقَتْ القهوة!!

- ظننتك لا تحبينها ؟!

- لا، أُحَبّها جدًّا.

- وما السبب يا ترى؟

أرادَ أن ينسب حبّي للقهوة إليه، أجبتُه بمكر:

- علّمني أحدهم حبّها.

وكان هذا ما قلته بصوتي فقط، لكن قلبي ما كفَّ يقول:

- علّمني أحدهم حبّها، كما علمني حبّهُ!

ابتسم نصف ابتسامة، ولم يعقّب.

أخذتُ أحدّقُ في نصف ابتسامتهِ، ونصف وجههِ، وكلماتُ الدّنيا تدور في عقلي وقلبي، ومن ثم أدرتُ وجهي كي أحدُق في سراب الطريق أمامنا.

عاد لصمتهِ، ولكني لم أغضب من ذلك كليًّا إذ أنّني احتجتُ للصمتِ أيضًا.

***

لاحظتُّ أنه يسألني عن مكان الفيلا، وكأنّه لا يذكر يوم التقينا.

فوجدتني أصرخ به قائلة:

- أحقًّا لا تذكر؟ يا لك من مخادع!! قُد إلى حيث الفيلا خاصتك، وستجد الفيلا هناك.

- وماذا لو كنت مخطئة؟

- قُد فحسب!!

وأدرتُ وجهي عنه.

فقال:

- حسنًا، حسنًا لا تغضبي هكذا.

يطلبُ منّي ألّا أغضب وهو بذلك يدفن أجمل الذكريات التي كانت بيننا، يوم التقينا.

وحين وصلنا، ترجلتُ من السيّارة ولحقني!

قال:

– يا إلهي، كيف لا أذكر هذا ؟

– أنا وأنت نعلم جيّدًا أنّك تذكر.

بالرّغم من أنّني كنت أدافع عن تلك الذكرى بشراسة إلا أنّي كنت أعي تمامًا أنّها قضية خاسرة معه!

– أنا هنا إن احتجتني، اتصال منك فقط، وسأقتحم الفيلا من أجلك.

آه لو تدري كم أردتكَ أن تأخذني قرب ظلالك وندخل سويّة!!

أجبتهُ باسمة:

– لن أتأخّر.

دخلت إلى الفيلا.

وجدتهُ أمامي، ذاك الذي سفكَ أحلام أمّي، وأحلامي.

– رنا.

كرهت اسمي من بين شفاهه، توجّهتُ مسرعةً نحو السلالم، وقلت ودون أن ألتفت إليه:

– أنا هنا لأخذ حاجيات أمّي، نحن في انتظار ورقة طلاقها.

في تلك اللحظات شعرت حقا بتحجّر فؤادي، شعرتني لا أبالي.

دخلت إلى غرفتهما، غرفة أتعرّف عليها للمرّة الأولى والأخيرة، أخرجت حقيبة كبيرة وبدأت في نقل حاجياتها، ملابسها، مجوهراتها.

وليس بدافع أن أعيدها لها، بل لكي أحرمه وأسلبها منه!

وما هي إلا لحظات حتى وجدتُه يقف عند الباب، يحدُّق بي بعينيهِ

الزّجاجية، شعرتُ بوجوده للثانية الأحقر، وسرعان ما لم يشغلني وجوده، صوته، أو حتى دموعه.

كنت أضع الأشياء في الحقيبة على عجل، إذ إنّني أردتُ الفرار حقًّا!!

وحين انتهيت، تلاقت أعيننا.

وجه قديم أحببت، وجسدٌ لكرهي هالك.

جررتُ الحقيبة، وسرت إلى جواره وكأنّه ظلٌّ عقيم.

دخلتُ إلى غرفتي، لم يعنني أي شيء بداخلها سوى صورتي المُعلّقة على الحائط، قطعتها إربًا، ونثرتُ فتاتها على الأرض.

وبهذا انتهت رحلتي معه، الرحلة التي خشيت اللحاق بها يوم عرفته، الرحلة التي خشيت غدرها جدًّا، ولكن ولسوء تقديري أحببتها لحاجتي لظل أبوي ستظلُّ به.

لم يلحق خلفي، لربّما عَجز عن الحركة.

أو أن ذنبه المتّقد منعهُ من المحاولة، لا يهم.

خرجت أجرُّ الحقيبة، فسار الأيمن باتجاهي يجرّها عنّي ودون أن ينبس بكلمة، كم أردت اقتحام خلجات رأسه لأرى بنفسي ما أريد!

ولكن لربّما صادفتني جدران ثلجية منعتني من ذلك، أو عرش بديع تتربّعهُ الجميلة نادين.

فتح لي باب السيارة وأقفلهُ خلفي بهدوء، وعاد يجلس إلى جواري، نظرَ إليّ للحظة وهو يدير المقود ثم قال:

- حان وقت استعارتي لك!
شعرتُ براحةٍ لا توصف، وحتى وإن كنت لا أدري كيف ستتم الاستعارة، كيف ستتم استعارتي!
قاد لمدة ثلاث دقائق، ووجدتنا أمام البحر.
كم هو حنون! وإن كان حنانه يقتلني، حنانه وجفاؤه معًا.
عاتبني نسيم البحر، ولكن وجوده معي أنساني كلَّ الأشياء، وبهذا شعرتني أتخلّى عن الألم قليلاً، وأسمحُ لبصيصِ فرحٍ أن يحُلَ محلّه.
قال:
- هيا نسير سويّة.
لم يكن مبتسمًا حين قالها، وهنا يكمُن سحرهُ وإن كنت أحترق من ذلك.
أضاف:
- اخلعي حذاءك.
كنتُ مبرمجة فقط لتنفيذ جنونه!!
اقتحمنا الشاطئ سويّة.
كنت في انتظار اللحظة التي يُمسكُ فيها يدي كما عوّدني.
سرنا على الجهة الأقرب لأمواج البحر النسيميّة، تركناها تداعب قدمينا كما تداعب قلبي.
كنت أنتظر يديهِ بشوقٍ لتعانق يدي لها.
قال:

ما أجمل الطقس هذا اليوم!!

فابتسمت له، ثم قلت:

- أجل.

- أريد ربطة شعرك هذه.

وبحركة سريعة ومفاجئة سحبها من شعري!! لحظات انقضت بيننا، وعيناه تجتاحني، فرحت أضم شعري المتطاير، فلا جمالي ولا شعري قد يعنيان شيئًا له، شعرتني إثمًا، أو خطيئة تسير إلى جواره. قلت:

- يا لكَ من مشاكس! مستفز!!

- لقد قيل عنّي الكثير، لكنّني ما قط سمعت أحدهم يدعوني بالمستفز!

(ماذا عن "قارص" يا رجل الثلج ؟)

إنّه السؤال الذي وددت أن أصفعهُ به، لكن وجهه الجميل منعني، فعدتُ أبتسم مغلوبةً على عشقي. قلت:

- ضِف "مستفز" إلى القائمة.

وإذا به يضحكُ عاليًا ويسحب نبضاتي منّي، قال:

- من بين القلائل، تستطيعين حقًّا إضحاكي.

(من بين رجال الدنيا، أطحتَ بقلبي أرضًا!!)

- جميلةُ هي ضحكتك.

***

قلت:

- سأعود، حتى نستكمل نزالاتنا وجنوننا.

فأجابني بكل حزم:

- سأكون في انتظارك.

وفي لحظة سلام عابر، قلت له:

- ألا تريد قول شيءٍ ما؟

- مثل ماذا تحديدًا؟

أجبتهُ كمن تدّعي الأمل:

- لا أدري، ولكنّني سأسمح لك اليوم بقول ما تشاء.

- لم؟؟

تنهّدتُ التّنهيدة الأطول وقلت:

- ربّما لأنّني سأسافر في الغد.

- تشعرينني بأنّنا سنموت في الغد أو ما شابه.

تبًّا له! أضاعَ فرصةً ذهبيّة وددتُ لو استغلّها جزئيًّا، أردتهُ أن يقول ما يشاء، تلميحًا عبثيًّا أو حتى أضغاث اعترافات.

لم ينطق بأي همس بل إنّه ازدادَ مُكرًا وخبثًا!!

كان يوم آخر يجمعنا نحن معًا، لكنّنا لم نكن ظلّين فقط، كنّا ثلاثة.

أنا، وهو، وظلّها الجميل!!!

كنت أنتظر منه أن يسألني كذلك عن أي جنون قد خُطَّ في المفكّرة، في الحين الذي كنت أخشى فيه هذا السؤال، إلّا أنّه وفي كلتا الحالتين لم

يفعل.

قلت:

- وداعًا أيمن فريد.

فأجاب وهو يصافحي أمام منزلي وقد أمدّني بتذاكر السفر:

- وداعًا رنا معاذ!!

وأردف قائلاً:

- سأنتظرك.

راحَ قلبي يدّقُ في وجهه، يحفظه مجددًا خشيةَ حنينٍ قادم، حدّقتُ به وأنا في الواقع أخشى عينيه.

"وما بعد عينيه"، ابتسمت له، لكنّه لم يرد الابتسامة، أومأ برأسه، وانصرف!

فعدت أبتسم وقد أدار وجهه - قلبه -عنّي، وتَلَتْ ابتسامتي ضحكة صغيرة، ضحكة القبول بالحال.

كانت حوالي الساعة العاشرة حين عدت إلى المنزل، لم أصدّق أنّني قضيت معه أكثر من عشر ساعات.

ألم تكن أربع ثوان فقط؟! أم أنّها هذه هي طقوس الحياة حين نقضيها مع من نحب؟ تمضي كالحلم!

وجدت أمّي في الصالون، شممتُ رائحة دخان سجائر، فأخذتُ أبحثُ عن الخائن وكنت على وشك سؤالها، ولكنّي فوجئت إذ وجدتُ سيجارة مشتعلة في يدها اليمنى.

قتلتني، دمّرتني.

وكنت على وشك أخذها منها، ولكنّي قلت لها وأنا في الواقع أحترق كسيجارة هالكة:

- كما قُلت، هو أسبوع واحد. لكِ الحقُّ فيه بممارسة شعائر ما بعد الحب، ما بعد النكران.

ومن ثمَّ جررتُ حقيبتها، وحين رأتها، نهضتْ وصاحتْ:

- أذهبتِ حقًّا إلى هناك؟

قلتُ بحدّة:

- أجل؟

- أرأيته؟

- أجل؟

- تحادثتما؟

- تقريباً.

- ماذا قال؟

- لا يهم.

- أقال أي شيء عنّي؟

- ستصلك ورقة طلاقك فورَ رجوعنا من لبنان!!

لم تجبني، بل عادت تجلس على الأريكة وقد أطفأتْ سيجارتها لتشعل أخرى. وكأنّها تشعل ألمًا آخر في صدرها. جلست بقربها أشمُّ احتراقنا معاً،

وضعتُ التّذاكر قربها، فعادت الدموع تلمع في عينيها. قالت بانكسار:
- أستشفيني لبنان حقًّا؟ وفي أسبوع واحد؟ وهل نُشفى من الحب؟!
إنّه الداء الذي لا دواء له.
- النسيان/ التّناسي.
- أباستطاعة أي شيء في هذا العالم البئيس أن يُنسيني؟ ليتهُ يوجد زر سحري بمجرد ضغطنا عليه نفقد ذاكرتنا العشقيّة.
- انسي كما ينسى الرجال.
- أعجبتني هذه الجملة.
- أبدأتِ القراءة ؟!
- أنهيتهُ بالفعل.
شهقتُ قائلة:
- حقّا؟
- أجل ووقّعتُ اسمي قربِ اسمكِ في صفحة "ميثاق شرف أنثوي."
فتنبّهتُ لحقيقة مُفزعة؛ لقد رأتْ اسمي وبالتّالي قرأت ما كتبته في النسيان.
بدءًا من: "النسيان هو الشبح الأقسى للحب"، وانتهاء بـ: "ما استطعت أن أنسى."
يا الله!! نصحتُها وأنا في الواقع إنسانة لن تنسى. وكما توقّعت سألتني:
- من الذي لن تستطيعي نسيانه يا رنا؟
وأردفتْ قائلة:

- ليس نايف بالتأكيد!

- سنستمتع كلانا في لبنان.

نهضت أقبّل رأسها ويديها، ودخلتُ غرفتي بعد ذلك، كي أُهيئ نفسي للهروب إلى لبنان.

***

فترة نقاهة، خالية من كل الرجال، أردتُ وبحق أن أُغلق هاتفي كي لا أنتظر أي اتصال أو أية رسالة عابرة، لكنّي ما استطعت، كنتُ أحدّقُّ في الهاتف كلما أضاءت الشاشة علّه هو السائل أو المشتاق. لربّما هو اشتياقُ من طرف واحد أيضًا.

إذن، فلقد كانت رحلة لبنان بمثابة رحلة شفاء عشقيّة لي كذلك.

أمّي لم تتحدث كثيرًا طوال فترة سفرنا. لم تكن هي، هي بلا ظل، جثّة تتنفّس. ولقد آلمني ذلك حقًّا، حاولت أن أقتحم حُزنها إلّا أنّها صدّتني بقناعِ فرحٍ زائف، وكأنّها تحاول تهدئة الألم بداخلي.

قلتً لها في اليوم السادس:

- لا مزيد من البكاء، وفي الغد سأسمح لكِ بعلبة سجائر واحدة!!

أجابت باسمة وهي تربتُ على كتفي:

- لا مزيد من البكاء، ولكنّي لن أستطيع أن أعدك بالتوقّف عن التدخين.

أجبتها ببرودة:

- إذاً، فاسمحي لي أن أشاركِ الاحتراق، سأدخّن بدءًا من اليوم،

وبهذا سأثّبت على نفسي لقب روائية بجدارة.

وإذا بها تصيحُ بي:

- جرّبي فقط، وسترين بنفسك ما سأفعلهُ بك!

أزعجها أن أبدأ التدخين، ولم يزعجها ما يفعله قلمٌ شاردٌ يشتعل في يدي. قلت:

- سأفعلها، ينتابني الفضول. أودُّ تجربتها ورؤية انعكاسي في المرآة وأنا أنفخ الدّخانَ عاليًا، ويا حبّذا لو فعلت هذا في أثناء كتابتي لروايتي!!

فعادت تصيح بي:

- تجرّئي!! وافعليها يا رنا، وسترينَ ما سأفعلهُ بك.

وكأنّي لم أقل شيئًا، ولكن لم يعنني ذلك حقًّا، قَدْرَ ما أُردت أن أذكرَ طيفهُ الحبري في فؤادي.

كم أشعر أّحيانًا أنّه باختفائه عن عالمي يودُّ إيصال رسالة ما إليّ:

"أريدكِ أن تتخلّي عن عرشكِ الأنثوي باقتحامكِ عريني الرّجولي واعترافكِ بعشقي."

هكذا يريد، يريد أن يكون المتحكّم في رد الفعل الأوّل، إمّا برفضي _وأقولُ رفضي أوّلاً_ أو بشروعهِ هو الآخر في عشقي أو جعلي معلّقة بين بين، بينهُ وبينها، أو أن أكون مجرد عاشقة عابرة قد ضلّت كُل الطُرق لتصل إليه _ قد أرضى بالأخيرة _ولكن بشروطي الخاصّة.

شعرتهُ الوقت المناسب للانتهاء حقًّا والبدء في جنونٍ أخير، لأرى

بنفسي كيف سأتصرّف وما الذى سأشعر به، وما الذي سأفقد الشعور به، ولكي أسردهُ لاحقًا في مفكرة موقوتة ستنفجر في وجهينا معًا فور أن يشرع في القراءة وأنا أشرع في الانتظار!

قررتُ الانتهاء والمضي قُدمًا، ولو متأخّرًا، فوجدتني أُخطط للانتهاء، كمن تخطط للعشاء الأخير.

وهكذا قررتُ في اليوم السابع أن أخلعَ عباءة الماضي_ أن أخلعه منّي _ وإن كانت تلك من أكثر من الجرائم التي قد ارتكبها قهراً ، وكنت أعلم أنّها وبحق الجريمة التي لا عقاب بعدها.

فوجدتني أُخططُ للقائنا فورَ عودتي من لبنان، مع مجموعة من زملائي وزميلاتي، وأن أدعوها للحضور أيضًا.

كي أرى ظلالهما معًا، فهكذا وجدتني أتأهّب لهما، لعشقهما.

شعرتني أقوى مخلوقات الله ضعفًا، وأشجعها جبنًا!

وكدتُ لا أصدق ما أفعل حين أرسلتُ لكليهما:

"وصلتك هذه الرسالة؟ أنت محظوظ، فأنت مدعوّ يوم السبت القادم إلى رحلة إلى الإسكندرية، على شاطئ الحب والمرح."

وأرسلت ذات الرسالة إلى زملائي وزميلاتي من الدفعة وخارجها.

ورحت أترقّب الهاتف، وأنتظرُ الرّد في رسالة!

نادين: ((رائع!! سأكون هناك بالطبع يا رورو))

أيمن: ((سيكون هذا رائعًا! من سيأتي أيضًا؟))

شعرته يسأل عن قدومها، أجبتهُ أطمئنه: ((دعوتُ الكثيرين، نادين قادمة))
لم يُجبني بل اكتفى بقراءة اسمها مرارًا وتكرارًا، سعدتُ جدًّا وشعرتني ملكتُ الدّنيا وما فيها وقد دعوتُ العاشقين.

السبت؛ موعد الانتهاء. ولم يذكّرني هذا اليوم بسطرٍ من شعر الراحل محمود درويش: ((صدّقت أنّي مِتُ يومَ سبت))

وبهذا تهيأتُ للموتِ ذاك السبت، بلحظاته المباغتة، بغدره، بخداعه! وكنت سعيدة وجدُ قلقة، وخائفة.

انتظرتُ الانتهاء كمن تنتظر في عيادة الأسنان لتخلع ضرسًا آلمها.

أردتُ أن أخلعهُ من قلبي، وأن أرى بعيني ما لا يقدرُ قلبي على رؤياه!!

"كيف كانت رحلتك الى لبنان؟ أقضيتِ وقتًا رائعًا؟ "

كان هذا هو نص رسالتهُ فور عودتي إلى القاهرة، أجبتهُ باسمة خلف الشاشة:

- فترة نقاهة بلا شك،أسأراكَ الأسبوع القادم؟

- أيمكنني أن أحادثكِ؟!

شعرتُ بالسعادة لمطلبهِ ذاك، ولكنَّ اللهفة لم تكُن ذاتها، أجبتهُ:

- بالطبع.

ثمَّ غابَ لمدّة عشر دقائق قارصة، وإذا باسمه يرجُّ كياني على الشاشة.

فتنهّدتُ تنهيدةَ ما قبل الحب والاشتياق والاختناق.

- أهلاً بالأيمن.

سمعتهُ يضحك بصوتٍ لا يكاد يُسمع، ثمَّ أجاب:

- بخير من دونك.
- لكنّني لم أقُل كيف أنت؟
ورحتُ أضحكُ في خجل.
أجاب:
- كيف أنتِ ؟
- بخير!!
- من دوني؟!
- بكَاء من دونك.
يا لي من كاذبة، مخادعة!! وثمَّ أردفتُ قائلة:
- أستأتي؟
- إلى أين؟
كنتُ أقودُ حينها باتّجاه البقاليّة كي أشترى حاجيات للمنزل، فتوقّفتُ جانبًا حتى لا أفقدَ أعصابي وينتهي بي المطاف باصطدامي بعمودٍ ما أو شجرة ما.
قلت:
- بربّك لا تذكر؟!
بالطبع أذكر رسالتك لكنّي لا أذكر إلى أين سنذهب!!
أجبته بنبرةٍ أعلى:
- إذن عاود قراءة الرسالة ومن ثم بلّغني.

- لا، لن أعاود قراءتها، بل أنتِ من سيخبرني.

إنّه مجنون بلا شك! يفقد الذاكرة كيفما ووقتما يشاء.

أجبتهُ:

- لا.

وإذا بصوتهِ يُصبح طفوليًّا فجأة، قال:

- صدقني رنا، أنا أنسى كثيرًا مؤخرًا، والجميع لاحظ هذا، هيا أخبريني!!

- الإسكندرية.

ورحتُ أضحكُ مغلوبةً على أمري، وإذا به يقول:

- أحدّثتِ نادين؟!!

يا الله!! كم كان اسمها يتراقص حبًّا في صوتهِ! كم قالها بجاذبية! (نادين) وكأنّها سيدة العالم الأولى والأخيرة، قالها (نادين)، قاتلة من بين شفاهه.

قلت:

- نعم حدّثتها.

وصمتتُ قليلاً قبل أن أقول:

- نادين. تمام.

انتظرتُ السبت، سبت النهاية، وكلّي رجاء أن أنتهي وبحق، وكنت أعي جدًّا كيف سيكون الانتهاء على يديه.

التوق بداخلي لرؤيتهما معًا، لم يكن عاديًا، كنتُ مدركة تمامًا أن السطور التي ستجمعهما معًا، ستكون هي الأجمل!!

***

كم أصبح الانتظار موجعًا؛ انتظارهما معًا.

رحت أتخيّل الحب كيف يكون بينهما والاشتياق كيف يملأ قلبيهما، وأضيعُ بين البين، إذ إنّني عجزتُ عن حمل القلم كثيرًا وعن البدء في جمعهما في سطرٍ واحد. كان لابدَّ لي من أن أراهما معًا، كظلٍ واحد، كجسدٍ واحد، كي أتبنّى منهما النهاية الأجمل لعشقي له.

تجهّزتُ لهما، ووعدت نفسي أن أسعدَ لا أن أشقى، أن أفرح لهما لا أن أغار، أن أنتصر لا أن أُهزَم. سأنتصر حين يقرأ وإن كان انتصارًا مشكوكًا في قلمه. لستُ أدري حقًّا كيف سيكون انتظاره حين يبدأ في القراءة وكيف سأتمكّن من الهروب منه لاحقًا.

لا أزال اسأل نفسي، ماذا لو قال لها؟ ماذا لو قال لها إنَّ السطورَ عنه والحبَّ له والجنونَ منه؟!

قد تشتري نسخة من الرواية وتشرع هي الأخرى في القراءة، ستبدأ بالبحث عن رجل الثّلج ومغامراته معي. قد تغضب، قد تسعد، لكنّها "ست البنات" قد تُغرَم بحبيبها من جديد على يدي، أقصد على قلمي.

وكم أودُّ أن أقول لها:

"أنا فتاتهُ العابرة، وأنتِ هي الأبديّة، أنا السطر الممحو، وأنتِ الحب

الذي لا يُمحى، أنا الأنشودة المنسيّة، وأنتِ اللحن الذي لا يُنسى.

عزيزتي يا محبوبة الرجل القارص، سمحتُ لقلمي أن يستعيرهُ منكِ، وبهذا أنا أُعيدهُ

إليكِ، فليتكِ تفهمينني، وتبكي معي لتضحكي معي لاحقًا.

اعذري قلمي وقلبي فإنّي مجرد عابرة، عابرة ضلّت طريق الحب، ولكنّي عابرة بكبرياء، وكبريائي روايتي.

فاعذري جنوني وسطري.

قد أهداني محبوبك كل الأسباب لأعودَ للحرفِ عاشقة، وللحبِ عاشقة، ولليلِ عاشقة.

حتى انتهيتُ من العشق وأصبحتُ مودّعة عشق لا أكثر، وعُدتُ أُحبّهُ في سطوري، وليس في الواقع الذي لا يكون لي، والحلم الذي لن يكون لي.

أحببتهُ جدًّا هُنا، هُنا لا هناك، وأنا على وشك الانتهاء من حبّي له هُنا، فورَ سكوت القلم عند السطر الأخير، وهناك فور أن أراكما معًا!!

كم أودّ الحديث عنه لكِ ولكن حروفي خجلانةٌ منكِ.

مودّعة العشق.“

أطيافُ الذكرى تعاتبني...

حتى العشاق المولودين حديثًا،

ويدي الخاويةُ من العشقِ

تسألني أحيانًا عنك....

شعرَتْ يدي بِيُتْمِها للمرِة الأولى إذ أدركتُ أنّها لن تعانق قلبهُ مرةً أخرى.
فَرُحْتُ أواسيها بالقلم لعلها تتفق مع ما يجول بخاطري.
القلم هو بمثابة الحبوب المهدئة لمشاعري، لكنّه كثيرًا ما خالفني الحب، فأشعر به
يقود عقلي لا أكثر ويقوم بالمفاوضة المطلقة مع الكلمات عني، وكأنه لا دور لي سوى الصمت والمشاهدة عن قرب لأشهق لاحقًا حين يتوقف وأسال نفسي، من يا ترى كتب هذا؟ أنا أم أنت يا قلم؟!
لكنني مررت بوقت عجزت فيه عن الكتابة، فهجرتني الحروف قبل أن أهاجرها، كان لابد لي من محاولة أخيرة معه، محاولة تجعل من الحروف سيلاً ينساب بعذوية على المفكرة وإن كان خلف الشاشات، أمسكت هاتفي، ودعوت للجنون للمرة الأخيرة:
- أيمن.

a. m 2:15

- أهلاً أهلاً.

.a. m 2:18

- إلى أين سنذهب هذا السبت؟

.a. m 2:20

- عند أم إبراهيم.

.a. m 2:22

انفجرت ضاحكة حتى دمعت عيناي، وسقط الهاتف من يدي، فسمعت صوت أمي من الغرف المجاورة تقول:

"لولا اشتياقي لهذه الضحكة المرتفعة لكنت طيّرتك عند الجيران."

فعدت أضحك وأنا أمسح دمعي، وكم تمنيت لو حملت نفسي ورحت بين أحضانها كي تشاركني الفرح، والحب!!

أجبته:

- يا الله كم أضحكتني!!

2:24. a. m.

- لا شكر على واجب.

2:30. a. m.

- يا واثق!

2:30. a. m.

عاد يتمرد فعدتُ أبتسم في سلام، ولكني سرعان ما عدت لحيرتي الأولى، رحت أحدّث نفسي: يا الله، ما نهاية هذا الصمت؟ أريد أن أكتب وأنهي الرواية. ما به لا يتحدث؟! ووسط نفاذ صبري قال:

- ما أخبار الرواية؟

2:35. a. m.

فإذا بالغرفة تدور بي، وإذا بالأكسجين يخنق رئتيّ، إنه لا يسألني عن الرواية، بل يسألني عن حبي له:

- جيدة.

2:37. a. m.

- أكتبتِ عني؟!

2:37. a. m.

((سؤال قارص بدرجة اشتعالي))

نهضت عن السرير، درت قليلاً في أرجاء الغرفة وأنا أحدق في السؤال ألف مرة، وأموت وأحيا.

يا الله!! كيف له أن يسألني والرواية منه وإليه؟ سؤال سئل قبل أوانه، وقبل جنونه!

آه لو تعلم كيف أرعبني وأبهجني هذا السؤال!! إذ خفق قلبك حين يعلم بحب السطور هذا، وسعدت لحقيقة أن تعلم بهذا، وحقيقة هروبي واستفزازك في الوقت الذي لن أجيبك فيه عن أسئلتك.

- ماذا لو فعلت؟

2:40. a. m.

((سؤال الوقت الضائع، لم أصدق نفسي حين سألت، أخذت أعض إصبعي، وأنا أشعر بدماء جسمي قد تجمعت كلها في رأسي، ولم أشعر ببرد الشتاء وخلعت الروب الصوفي وكأني أستعد للشتاء الذي أريده أن يجتاحني.

شتائه الخاص؛ شتاء رجل الثلج!))

أجاب:

- أفعلت؟

2:40. a. m.

وكأنه يسألني: أأحببتني؟

((أجل أحببتك، وليتني لم أفعل، فعندي الآن بطل في الرواية أحبه، لأنني لم أستطع حب شبيهه في الحياة.))

- ربما.. ربما كتبت عنك وربما لم أفعل.

2:42. a. m.

- إن لم تفعلي سأستاء كثيرًا.

2:42. a. m.

((شعرته يريد أن يكون إحدى الشخصيات لا أكثر، ولا يعنيه حقًا أن يكون البطل.

فتأكدت جدًا من أنني مجرد عابرة في سجلات حياته.

سيستاء إن لم أفعل وهو الذى أمدني بالمفكرة بيديه، وعلمني الكتابة من جديد.

وعلمني أن أحبه دون أن يدري!!))

- ستعلم بهذا حين تنشر الرواية، فانتظر!

2:43. a. m.

((ستعلم أنني أحببتك جدًا وكرهتك جدًا، ستعلم بالذي خلفه

اختفاؤك، وبالذي أحرقه جمودك وأرهقه صمتك، وما الذي فعله انتظارك ولا انتظارك.))

أجاب:

- سنرى!!

.a. m .2:42

يا له من ماكر!! وكأنه يقول: "سأرى بنفسي ما خلف الستار، سأرى بنفسي كيف ضعتِ بين الحب والحرف، والحرف والصمت، والصمت والحب، سأرى الدائرة المفرغة التي وضعتك فيها، الدائرة الثلجية طوال العام!))

تحدثنا بعد ذلك في مختلف المواضيع، كم ضحكنا وتسامرنا! وإن كنت في الواقع ظلُّ يضحك ويتسامر معه، وإذا به يقول: كم اشتقتك! حاولت ألّا أقع فريسة بين الألف والكاف، عدت أشعر بصقيع الشتاء. فرحت أبحث عن الروب، ومن ثم اختبأت تحت أغطية السرير:

- وأنا، كثيرا.. اشتقتك.

كلمات مبعثرة أرسلتها، وكنت على يقين حينما تفوهت أشواقي بها، أنني اشتقته بدوافع اقترابي من الانتهاء منه. لا أكثر.

اشتقته.. أودعه..

اشتقته.. أحبه..

اشتقته.. أكرهه..

اشتقته.. أعاتبه..

هل فهمتِ أي شيء؟!

الاشتياق ألف معنى ومعنى، وتلك مصيبة لا يدركها سوى العاشقين.

وفي اللحظة الأجن، وعلى حين ((قِتْلة)) قال:

- حسنًا حبي...

يتفوه بالجنون وقتما يشاء، وكيفما يشاء، أصابتني صدمة خانقة وأنا لا أدري إن كان مزاحًا هذا، أم لغة أخرى ابتليت بها؟

حبي؟ وكأني لست غارقة كفاية! وكأني لست ضائعة كفاية! حين قابلتني أول مرة، أحلفت أن تجعلني عبرة للعاشقين؟؟؟؟

كم يشرفني أن أكون عابرة للحب والعاشقين، على يديك!! ولكن، بشروطي! وبشروط قلمي إذا سمحت.))

- أحان موعد نومك؟

2:50 a. m.

- أجل.

2:50 a. m.

- إذن، أحلامًا سعيدة.

2:50 a. m.

- رنا....

رحت أراقب شاشة الهاتف، بخوف.. بشوق، أترقب ما سيقوله، وأنتظر

ما سيفعله بي.

- عايزة تقوليلي حاجة قبل ما أنام؟!

فرحت أصرخ: ((أحيييييه!!))

تركت الهاتف جانبًا، كي أفكر، كي أتنفس.

أهناك ما أريد قوله له قبل أن ينام؟! أجل، أجل. ما هو؟ ليس حاليًا. متى إذن؟

- قريبا.

- تكلمي الآن.

- لا.

- رنا، أنا لا أمزح. سأسألك مجددًا، أثمة أمر تريدين إخباري به قبل أن أنام؟

- لا، ليس حاليًا.

- هل للأمر علاقة بالرواية؟

- ستعرف ما تريد، في الوقت الذي أشاء.

- سأنام، تصبحين على خير.

- سلام!!

***

وإن كنت وهمًا، فلقد كنت أجمل الأوهام، وأتعسها!

قرأت يومًا بيتًا من شعر المتنبي: ((ما لي أُكتّم حبًا قد برى جسدي.))

كم كتمته حبك هذا! في جسدي وقلمي وعقلي. كم كتمته وأنت تقف إلى جواري!! كم كتمته حين كنت تختفي وتعود!

بسببك تعلمت كيف يكون الإنسان يتيمًا، أعترف حقًا بِيُتْمي منذ لحظة عشقك الأولى والأخيرة.

قد أكون مجرد "أخرى "أحبّتك ، لكنني الأخرى التي حفظتك في سطورها، وخطّتك بين أحلامها المستحيلة، أنا الأخرى التي لن تسمح أن تكون مجرد "أخرى " في حياتك، أنا أخرى الكاتبة، والشاعرة، أنا الأخرى المتمردة، أنا الأخرى المجنونة، أنا الأخرى التي انتحرت بالقلم وذابت بين الحرف والحرف، أنا الأخرى التي أطلقت عليك لقب.. رجل الثلج. أنا التي اشتاقت بصمت وأحبتك بصمت، واستودعتك بصمت الحروف، أنا الأخرى الكاتبة، الكاتبة أولاً وأخيرًا.

بسببك سرقتني الرواية من كل شيء حولي وأيقظت في حواسي الحبرية وكأني لم أكتب حرفًا من قبل، وكأني كنت أعيش في حالة أمية أدبية قبل أن ألقاك.

وأتى السبت، السبت الذي بمجمله أنهى أجمل الشتاءات حقًا، وقد كنا في بداية الشتاء، إلّا أنني كنت أعلم جيدًا أن الشتاء سيرحل سريعًا هذا العام، وهذا بعد أن يحرق كل الأشياء التي جمعتنا ذات يوم. فتهيأتُ لشتاءين وربيع: شتاء الله وشتائه، وربيع عينيها.

تقابلنا جميعا في محطة القطارات، أتى الجميع، كان مشهدنا مبهجًا

ونحن ننتظرهما معًا. تأخرا، وكنت أتوقعهما أن يأتيا سوية، لكنه ظهر قبلها بنصف ساعة، ابتسم لي فقط بما يشابه النصف ابتسامة، ولم يصافحني، وقف بعيدًا مع زملائه الذين فرحوا لرؤياه مثلي تمامًا، لكنني كنت أشعر بجثة الحب في صدري، وأبتسم!

أردت أن أبدو فاترة المشاعر فارتديت معطفًا أرجوانيًا، الأرجواني الذي يعكس حب الذات؛ أردت أن أحب نفسي، كماأن هذا اللون يعكس الطموح.

ارتديت بنطالاً نيليًّا؛ لون الكبرياء.

ارتديت الألوان التي لم يعلمني إياها، لكنني ما استطعت ألّا أرتدي قميصًا بنيًّا، ولكنه لم يكن ظاهرًا، ارتديته خلف المعطف الأرجواني، خفية كحبي له.. خفية!

وحين ظهرت هي، ظهرت بالأسود، وآه كم يليق بها! لربما لذلك أرادني أن أعتزل الأسود؛ كي لا يليق سوى بها.

أخذتني بين ذراعيها بحنان، وقبّلتني جدًا، وقالت: كم أنا سعيدة لرؤياك!

أردت أن أصرخ بها: هيا، اذهبي إليه كي أراكما معًا فالقلم على المحك!

رحت أبحث عنه، فوجدته قد استقل القطار، دخلت خائفة، لكن بثبات عجيب إذ شعرتني مَدينة لنفسي بالصمود والفرح. كنت خلفها، خلف الحب. كان يجلس على أحد المقاعد، وتوجهت هي تجلس أمامه بمقعد، كنت أراقب المشهد عن حب وإذا بهبة تشدّني إليها وتُجلسني عنوة

بقربها، وراحت تقهقه عاليًا، نظرت إلى حيث يجلس، فوجدته قد قفز إلى المقعد الذي خلفها مباشرة، شعرت باضطراب أدبي، اضطراب حِبْريّ، لا أكثر.

كم أردت أن أخرج مفكرتي لأعترف لها، لكنني دعوت الله أن يصبرني، أردت أن أتريث، ألّا أستخدم الكلمات دفعة واحدة، وذلك فقط في انتظار الكلمات الأجمل.

الطريق كان شاردًا مثلي تمامًا، والشتاء معاتبًا، والصمت لم يكن عاديًا، ولو كثر ضوضاء الكلام والقهقهات العالية.

تشجعت كي أكون خليفة لمستغانمي، لعلها تقرأ يومًا مصيبتي! وهكذا تصبّرت ورماد الحب.

كنت أنظر إليه بين الفترة والأخرى، وأحرص ألّا أموت فيه عينيه. كنت أنظر إلى يدي العارية، ويده المكتفية.

كنت أنظر كما ينظر الكتاب لأشياء، أذوب في التفاصيل المتغيرة، فكرة تضيعني وأخرى تَهْديني، كلمة تكتبني وأخرى سأكتبها.

وحين وصلنا، وفي اللحظة التي قابلنا فيها نسائم الإسكندرية، رحت أذكر يوم لقائي به يوم الوقوع الأول، اليوم الذي تبعثرت فيه وتناثرت فيه!

رحت أعاتبه وهو يمشي من أمامي عن بعد ويحادثه قلبي:

أتذكر؟! أم أنك كابرت فما عدت تذكر أي شيء؟!

أحيانًا تصبح الذكرى أوفى منا نحن البشر. كم ننسى وننسى!! فلا

تصبح سوى عائق يعيق تلك الذكرى، الذكرى التي تذكرنا باستمرار، الذكرى التي تحفظ جميل مولودها على أيدينا.

صعدت بعد ذلك على متن حافلة أخذتنا حيث الشاطئ، الإسكندرية الساحرة في فصل الشتاء، الوقت والمكان الأفضل للحب، او الانكسار! الإسكندرية شتاءً هي المنارة الأولى للعاشقين والتائهين، كم تمدنا بخيارات الحب واللا حب! تمدّنا بالمفاتيح اللازمة للاستمرار _وذلك إن أردنا_ هذه هي الإسكندرية ببحورها، بأجوائها، بنسائمها، وكأنها تقول لنا:

((عشاق الطريق..

لكم حق الاختيار هنا..

في الحياة أو في البكاء.))

كم أردت أن أبكي بهدف أن أحيا!! لم أكن عاشقة، لم أكن تائهة، كنت بينهما! أَبَيْتُ على نفسي أن أستمع لنحيب يديّ يد تشتاقه وأخرى تشتاق القلم فوضعتهما في جيبي!

مشهدهما معًا كان يسحبني بقوة من حبه، وقتها بدا الفصل الأخير وانتهى في ثلاث ثوان فقط، الثواني الأجمل، رأيته يحادثها وعيناه تبتسم لها جدًا، عيناه الضاحكة أسرتني فما عدت قادرة على أن أشيح بنظري. راح شريط الحب يمتد أمامي واضحاً فلم أعد أقوى على ألّا أبتسم، وأحترق خفية.

شعرتني أنا الأخرى تشاهد أنا الأخرى تبتسم ،أنا الأخرى يصيبها الحنين. ذكرت يومًا سألته بعد أن عرفت الحقيقة:

- هل تحبها؟

فأجاب باستنكار:

- من؟

أجبته باسمة:

- تلك التي تحبها!

كنت أحاول جاهدة أن أؤكد كعاشق، كنت أحاول جاهدة أن أنتهي.

أجاب:

- وهل أخبرتك يومًا أنَّ لي حبيبة؟

لم يكن ذلك خادعًا بل مماطلة مشاكسة باسم الحب أراد استفزاز صمتي لا أكثر.

أجبته قائلة:

- تبدو لي كعاشق قد ضل الطريق.

أجاب سريعًا، حتى ظننته قد أرسلها فور إرسالي لرسالتي:

- هل هذا واضح لكِ إلى هذه الدرجة؟

- أجل.

- يمكن.

إجابته لم تذكرني سوى بمصيبتي.

أنا المعَلّقة بين البين بين؛ بين حبك والانتهاء منك، بين اشتياقك والاكتفاء منك، بين احتياجك والاستغناء عنك.

قد تكون تلك الـ"يمكن "بمثابة كلمة النهاية في فصل الحب خاصتي، ولكنه في بداية تحادثنا على الفيس بوك وحين كثرت بيننا المعارك، أخبرني أن المحادثات خلف الشاشات قد تكون "خداعة "لذلك وجب على أن أجمعهما معًا تحت مظلة الحب، مظلة الحب خاصتي!!

كنت أسير مع زملائي على شاطئ الإسكندرية ونحن حفاة الأقدام، فعدت أتذكر يومنا معًا حين سرنا قلبًا بعقل. كنا يتقدماننا قلبًا بقلب، لم تكن أيديهما متعانقة الصورة بحد ذاتها، كانت أجمل وأعمق من ذلك، وكم أردت أن أرسمهما معًا، كان لا بد لي من أن أرى وجهه، فناديته من خلفه في لحظة جنون:

"أيمن."

أردت أن ألفظ اسمه كي أرى وقع حروفه على مسمع فؤادي فأدركت أن اسمه سيبقى دائمًا وأبدًا لعنة تلاحقني أينما ذهبت!

التفت إلي باسمًا، همس:

"نعم؟!"

فابتسمت له تلك الابتسامة التي ستجر ضحكة بعدها، وقلت:

"لا شيء!!" وكم أردت أن أصرخ:

"هنيئًا لك وللحب (بها)،

((صدّقت أني من يوم سبت)) ولكن لم يكن عندي أية وصية أوصي بها، فكتبت رسائل عاشقة قد جردها الحب من الحب، وجدتني أمام شعور إلزامي بضرورة ترك شيء خلفي قبل أن أشرع بالهروب.

لم أجد الوصايا، فماذا – بِرَبّي– قد أوصي؟! فتركت الرسائل، تركتها معلقة بين سمائينا، رحت أَتخيلها وهي تزين الفصل الأخير من الرواية، والفصل الأخير من الحياة.

سأتوجه برسائلي هذه إلى أيمن فريد مباشرة، والحب يشهد والحرف يشهد أنني آمنت بالحب على يدك، ورحل عني على يدك!!

سألتني:

– أتكتبين عنّي؟

"أجل فعلت!!! أجل فعلت، وأخشى انتحاري قدر ما أخشى عينيك حين تقرؤني. "

كتبتك لأتخلى عن حبك، كتبتك لأستغني عنك، كتبتك لأكتفي منك لا أكثر ولا أقل.

إن سألني الناس حالاً: أما زلت تحبينه؟!

فقد حان دور بأن أجيب: لا!!

لا النافية، لا العاتية، وقد أدركت هذا والقلم في يدي الآن، وحين سأشتاق حبك سأعود أقرؤك هنا، لأذكّر نفسي كم كنت عاشقة ومشردة وروائية مجنونة!

وهذا هو الحب بيننا وذلك إذا سمحت لي بستخدام (نا) وإن أَبَيْتَ فهذا هو حب "بين."

إن سألتنى: كيف علمتِ بانتهائك مني؟ علمت هذا في طريق عودتنا من الإسكندرية إلى القاهرة حين دخلت إلى الحافلة ورحت أفكر بصوت مرتفع: "أين سأجلس؟"

وبعدها - وإن كنت تذكر- سريعًا أجبت: تعالي أجلسي بجواري، تعالي اقعدي جمبي."

لا أعتقد بأنك شعرت بدقات قلبي وأنا أتوجه نحوك، جلست إلى جوارك وأنت لا تعي أن هناك قلبًا يشتعل وعينين تخشيان صقيعك.

أكنت بهذا تثير غيرتها؟! يا لك من مشاكس! لقد فعلت!

حدثتني فرفعتُ ناظري إليك أتأمل عينيك للحظة الأخيرة حين أدركتُ أنّني......................

انتهى

رسائل عاشقة

استعن باللّه

وخُذ نفسًا عميقًا

الرسالة رقم ١:

لاحظت أنه باختفائك، تختفي الكلمات من وجدان قلبي قبل ذاكرتي، وكأنّني لا أشتعل كفاية بغيابك، لم أعد أقوى على حمل القلم على الجنون، كنت تختفي فأتوقّف برهة عن الحياة، ولا أنفك أخذل روايتي تلك التي أكتبها منك وإليك، أحياناً كنت أريد أن أسألك، أن آخذ بنصائحك؛ قل لي مذا أفعل؟ هذا ليس ضعفًا مني أو هوانًا، فكل ذلك كان من أجل روايتنا، أردتها خالدة في قلوب العاشقين، أردتها أن تكون الإلهام الأروع لهم وأن تمدّهم بالصبر والحياة.

كما أردتكَ أن تكون حاضرًا حين أكتبك، فأنت شريك روايتي.. أردت أن أكتب عنك الحب كما يجب، والجنون كما يجب، والغضب كما يجب. أردتكَ أن تمدّني بحروفك المتراقصة على أوتار الكبرياء، ولكلماتك المعجونة بالتمرّد والعجرفة. اسمح لي أن أروي لهم عمري تحت ظلك، اسمح لي بالجنون ولا تفقد الذاكرة، أرجوك! ولا تكن ذا ذاكرة فولاذية، أخافك حين تنسى، وأخشاك حين تذكر الأشياء. تعال نبدأ معاهدة السلام، تبيعني فيها جنونك وأبيعك فيها رواية، أحببتك

من أول السطر إلى آخر الأحلام فاحترم حقوق حبي في السطور، فلم أستطع فعل ذلك في الواقع. قررت أن أحبك في الرواية منذ أمسكت القلم، وحين كنت تختفي كنت أخشى من أن تحرمني من أجمل الأحلام الروائية، وأن تسلب مني أملاً قد يحني دروب العاشقين. تعال نفرح لهم ونهنئهم. تعال ندعوهم لفنجان قهوة كما اعتدنا أنا وأنت.

الرسالة رقم ٢:

لا تقرأ ما بين السطور فقط، بل ما بين الكلمة والكلمة، والحرف والحرف، وحتى حبر قلمي الأسود، تَحَركْ معه. احزر متى توقف ليتنهد، ومتى خطَّ في الصفحات البيضاء بلا توقف. وإن شعرت وكأنّك قد تعلمت القراءة منّي، والحب منّي، والجنون منّي فستنجح في أصعب الامتحانات الأدبية، ولكن جائزتك لن تكون عندي إن نجحت، ومعاتبتك لن تكون مني إن فشلت. قد وضعت الامتحان لك ولا يهمني نجاحك ولا فشلك، حبّك أو سقوطك، اعتبرها فائدة لك لا أكثر أو ذكرى لذيذة بيننا.

الرسالة رقم ٣ :

كتبت كل ما لم أستطع قوله لك، فلتتخذ من روايتي فهرسًا تستدل منه على فصول قلبي، بدءًا بالصيف يوم التقينا، والخريف الذي حال بيننا، وصولاً إلى الربيع الذي أغدق علينا بصدف جمعتنا، وانتهاءً بالشتاء الذي لم يخلق لنا. اقرأ كما لم تقرأ من قبل ولكنّي لن أقبل منك أي استجواب كان، ولن أجيب عن أي أسئلة كانت. من الصعب التزام الصدق أمام عينيك وظلّك الثلجي، أخفقت في فهمي على أرض الواقع ولا يهمّني حقًا إن أخفقت في فهم الرواية. فليشهد القارئ وليشهد العالم أجمع، أنّي بذلت قصارى عشقي معك، سنين مضت وأخرى ستمضي، وأنت تقبع في قصورك المشيدة بالكبرياء. ألم يحن وقت السلام بعد؟ أم أنك ستظل دوما وأبدًا رجل الثلج المعهود؟ احترت في أمرك، فاستعنت بالأدب عليك وكتبت الرواية، فهذه هي حربي معك؛ الحرب التي طالما قلت لي إنها عندك، ولكن حربي روائية من الدرجة الانتحارية، ذخائري الأقلام والأوراق، قد تتلقى رصاصات اعترافية موجهة لك وحدك بين السطور. قالت لي صديقة وهي تقرأ سطور جمعتنا: "لك الجنة يا فتاة!" ضحكت لقولها جدًا، وقد رأت أن الله قد يكرمني بالجنة جراء صبري عليك. ما أجمل سطوري معك.

الرسالة رقم ٤:

لا إطلاق سراح مشروط حين يعتقلنا الحب، إنّها الحقيقة الوحيدة التي أدركتها من الصفحة الأولى التي رسمتك فيها بالحروف. لكنّني لم أكن سوى امرأة تحضر نعشها وتعطّر كفنها، إذ إنني علمت أن حبي لك في روايتي هو دفن لحبي لك في الحياة. حقيقة مرّة لازمتني، كلما آنسني القلم وتهافتت الحروف بين أناملي، أصابني جنون الأدباء، وهوس الرّواة أصبحت لي حواسًّا خمسًا روائيةً بقوة حبريّة. كم بحثت عنك في وجوه المارّة، علّني أجد نسيمك أو طيفًا يشبه طيفك، وجه واحد كان يشبهك حد الجنون، حتى إنني تسمّرت مكاني فور رأيته؛ شاب درجة حرارته تحت الصفر، كان يتحدث في الهاتف ويبتسم نصف ابتسامة، لربما كانت أخرى تحادثه. تشتعل لبرودته، فتفقد قدرتها على التحكم في درجة حرارة جسدها، كنت أشاهده وأتذكرك، لمحني ثم نظر بعيدًا ثم عاد يطالعني في ذات الثانية وحين أفقت، هرولت هاربة ولا أزال أفقد أعصابي كلما رأيته.

إنّه من صنف رجال الثلج أمثالك.

الرسالة رقم ٥:

لم يحدث الكثير بيننا، لكن القلم علمني حبّك والحروف علمتني اشتياقك. وهذا الذي رضيت به حين عودتني اختفائك، فارضى بحقيقة اكتفائي وارضى بحقيقة ما تكنّه لك الرواية. بحوزتك النّسخة الأولى، حان موعد اختفائي، وكما اتفقنا: لا تعليق، لا أسئلة لا حب، يا رجل الثلج. فقط، هذه الحروف بيننا. فالحب حرف والحرف حب، ولكن قد نلتقي صدفة في زمان قد زاد على عمره العشر سنوات، وفي مكان محفوظ في قلبينا سنجلس على طاولة ستشفع لنا لقاءنا، والقهوة تنتظر أن ترشفنا لا أن نرشفها. حدّثني عنها إن أردت، تلك التي أحببت، تلك الجميلة، حدّثني عن أطفالك منها، ماذا ورثوا منها؟ لكنّني متأكدة أن جيناتك هي الأقوى والأقرص يا رجل التلج. أعطني صورة لهم، عرّفني بهم، بأسمائهم، بطفولتهم، وحدّثني عن الحياة ماذا فعلت بك، وماذا لم تفعل بها؟ سأستمع إليك بتأنٍ، فاقبل - إن سمحت - نصائحي، سأكون أنضج وأعقل حينها، سأسمح لك باجتياحي وباستفزازي كما عوّدتني، سيظل هذا الباب مفتوحًا لك دومًا وأبداً، وإن كان لي عندك طلب، فاجلب روايتي معك. أريد أن أرى فعل الزمان بها وما فعلته عيناك التي أحب بها. حينها فقط سأسمح لك باسترجاع الماضي،

باسترجاع كل الأشياء التي كنت تعلم، وكل ما لم تكن تعلم. أعلم بأنني سأخجل منك وكأنني لا أزال بنت العشرين، وأعرف ملامحك ستكون هي ذاتها مشاكسة رجولية فوضوية، ويا حبذا لو كنت ترتدي الأسود! بهذا سيكون لقاؤنا أجمل. ومن يدري؟ قد أشرع في كتابة جزء ثانٍ للرواية بعنوان "رجل الثلج"، إن وافقت كتبتها وإن لم تفعل كتبت رواية أخرى لبطلين يشبهاننا، أنا وأنت والجنون ثالثنا.

الرسالة رقم ٦ :

ومنك أصبحت أكثر مخلوقات الله معرفة باللاحب وقد حان موعد اعترافي. اللاحب؛ هو أن تبقى معلّقًا بين بين، أن تبقى كلمة "أحبّك" على طرف شفاهك العاشقة وألا تتحد مع ضوضاء الكون السمعية خشيةَ أن تظل وحيدًا على قارعة النكران، أو ألّا تكون سوى كلمة عابرة في فوضى النسيان. اللا حب هو النّشوى الموجعة والشوق المؤلم. يا الله! كيف يؤلمنا اشتياقنا وتصبح كلمة "اشتاقك" جثّة وقتيّة لا أكثر؟ كلمة نقتلها بصمتنا بوحدتنا، كلمة لها معانٍ أخرى غير الاشتياق.

"اشتقتك" في اللاحب، قد تعني بربّك أين أنت؟ أحتاجك ها هنا، أحتاجك ها هناك. إنّها الدليل الأقوى على تيتّم الليل، اللاحب، قد يتحوّل في لحظة ضعف إلى جواز سفر عقيم، يبيح لنا الرحيل، وجعبتنا خاوية كأفئدتنا الخاوية عشقًا. لمَ لا توجد ظاهرة عظيمة أخرى تسمى باللاحب؟ أنا واثقة تمامًا أنها ستنافس ظاهرة الحب ذاتها، وتصبح الموضوع الدارج بين العشاق الذين توقّف الحب ذاته عن إيوائهم، لمَ لا يوجد عيداً للاحب؟ لمَ لا تباع بطاقاته في يوم محدد من السنة ليبدأ

اللاعاشقون طقوسهم؟ لِمَ لا تُشتَرى روايات اللاحب بدلاً من الورود والشيكولاتة؟ في عيد اللاحب القادم، سأشتري روايتين لأحلام مستغانمي. سأهديكَ واحدة، فاختفائي لن يعني انسحابي من الحياة، سأظل كما أنا ولكن بشروط أكثر وجنون أقل، فهكذا اللاحب يفعل حين نتعرف به.

الرسالة رقم ٧:

انتهائي منك لن يعني بالضرورة اختفائي الكلّي، سأكون في الجوار، أكتب حينًا وأشرب القهوة حينًا. أعدك بأني سأتقصّى أخبارك، وكيف لا أفعل؟ سأفعل بهدف الاطمئنان عليك والبحث عن حجة مناسبة لاسترجاع ذكرياتي معك ومع قلمي، الذي خطّك. سأفعل رغبةً في الحنين الذي سيقودني إليك، والابتسام سهوة.

كم أحب ابتسامات السهوة! إذ إنها تسرقني من نفسي أحيانًا، وتأخذني إلى لحنٍ عذب لذكرى انقضت، في سماء لم تعد تلمع فيه نجومه.

الرسالة رقم ٨:

"عشق أوّلي لا يتجاوز رواية."

هذا هو عشقي لك! وإن انتهى، سأظل أكنّ لك الحب في روايتي، سأشتاقك منها وخارجها، وبهذا أنا أهيئ لانسحابي خارجها!

أحيانًا حينما كنت أراجع روايتي، أجد نفسي أقرؤها بصوتك، لم أكن أدري إن لقلبي صوتك حين يقرأ، صوتك المشاكس، مع أني فعليًا لم أكتف يومًا منه لدرجة إدماني إيّاه. وأحياناً كنت أتخيلك وأنت تقرؤها؛ كيف تجلس، كيف تتكيّف مع الحروف وتنسجم مع الكلمات. لا أدري أن روّضَتكَ حروفي، ولكن اعترافي – ربّما– أتخيل كم تستعد لتصبح ذلك المواطن؛ الصامت، المقيم، المحلّق، المفكّر، الفيلسوف! أتخيلك تصرخ فجأة، ثم تعود لصمتك، ثم تصرخ مجدداً، لتبدأ الضحك، وتصمت لاحقًا وأخيرًا!

وفي الصفحة الحاسمة، سيبدأ إدمانك وتحمسك للوصول للنهاية، أتخيلك تقرؤها في العمل، في السيارة حينًا، وفي المواصلات العامة حينًا. أشعر بأنك سنضيع في منتصف الرواية، ستتوقف عن استيعاب

أي شيء وهكذا أريدك، مثلما فعلت بي، تُهْ قليلا! لا بأس بالضياع طالما نهايتك محفوظة هنا، ولا تقلق فأنا الأكرم. تابع القراءة وستجد خيط الهداية، ولكن كن على يقين، الطرف الآخر من الخيط ليس في يدي بل عند توقف القلم حين تتنهد للمرّة (يرجى كتابة رقم آخر صفحة قبل رسائل عاشقة)

الرسالة رقم ٩:

وكما أخافك حين تقرؤها أخاف ألّا تعني لك شيئًا، أو ألّا تكون سوى مفخرة أدبية تضعها في رف فوق رفوف كبريائك الشاهقة. وهناك يكمن التناقض، فعلى عكس الرسالة رقم (٨)، أخاف أن تقلب الصفحات كما تقلب صفحات مجلة لعدد قديم، لذلك وجب علي أن أضع هذا الاحتمال، إذ عودت نفسي دومًا على الاحتمال الأسوأ والأشد قهراً. إياك أن تتجرأ أبدًا! فهنَّ العظيمات فقط من يستطعن حمل القلم والبدء في الرواية عن رجل الحياة، قد جعلتك رجل الحياة في روايتي وجعلت لك حروفًا تشبهك لتميزك عن كل رجال الدنيا، فاحتفظ بهذا الشرف للأبد وعلقه وسامًا على صدرك أمام خلق الله العاشقين حتى وإن لم تكن عاشقًا. أخاف رد الفعل وردّ الحروف حين تصبح الأمور واضحة أمامك. وإن كنت قد لذتُ بالفرار، فالفرار أمر وعيناك القارئة أمر آخر. آه لو كان باستطاعتي الجلوس إلى جوارك وأنت تقرأ!! الجلوس خفية لأرى بنفسي وجهك القارص وحاجبك المرفوع.

الرسالة رقم ١٠:

توقيعي على صفحة الإهداء وعطري، حرصت كل الحرص على رشه كل صفحة حتى تشعرني حاضرة معك وأنت تقرأ. هل قرأت كما لم تقرأ من قبل؟ هل انتهيت؟ إذن فابتسم من أجلي. فكم أحب ابتسامتك! وقل: "المجنونة!"

احتفظ بالرواية على رف مكتبك أو في درج مكتبك الخاص، اجعلها دوماً على مرأى منك. إنّها روايتك شئت ذلك أم أبيت. قل لأحفادك عنها ذات يوم، قل لهم: "أَحَبَّتْني مجنونة فكتبت في حبي رواية." راسلني حين تفعل، هذه الرواية هي لكل أيمن فريد في الدنيا. إلى كل من عاند الحب بالصمت والكبرياء، إلى اللاتي خبّأنَ حب الحبيب في الدفاتر. إلى اللاتي وجدنّ أنفسهنَّ الرقم اثنين في رواية البطل. آمنت دومًا بالنهايات السعيدة، لكن السعادة قد ضلت طريقها إلى الكلمة الأخيرة في الرواية. قُرّائي الجدد، تركتُ لكم الحكم في النهاية، معكم مطرقة القاضي وأوراق الجاني والمجني عليه. قرروا أنتم، واحكموا بالعدل. وليكن الحكم النهائي باسم الحب.

وأخيـــرًا

رسالة من عاشقة إلى عاشقة:

على كل من أرادت الاعتراف لحبيب، أرسلي له نسخة موقّعة بحبّك وانسحبي إن أردتِ الانسحاب أو انتظري رد الفعل وردَّ الجنون. ولكن، لا ضمانات في الحب كما لا ضمانات في اللا حب، فتيقني من هذا وأنتِ تسلمينه كفنك/ حبّك في يده، فقد تبدأ أروع قصص على العشق على يدك، أو قد تنتهي أجمل العذابات. فلتكوني بادئة عشق وإن كان في الخفاء، أو كوني مودعة عشق جهرًا أمام كل العاشقين. اكتبي عنه وإن لم تكن الكتابة من هواياتك، أحبّي الأدب منه والحب واللاحب منه والجنون منه. تعلّمي أن تكتفي ذاتيّاً منه، اكتبي بالعربية أو بلهجتك الخاصة، وإن كثرت فيها الأخطاء فالحب في كل اللهجات سواء. ومن يدري؟ قد نسمع عنك يومًا ونسمع بجنونك الحبري. اشتري مفكّرة وعدّة أقلام وابدأي أوائل الاكتفاء أو أوائل الحب.

مع حبّي..

حلا المطري